الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الغربى

◆

أحمد الشنوانى

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

اسم الكتاب : الخالدون من أعلام الفكر

اسم المؤلف : أحمد الشنوانى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٤٠٤٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 260 - 2

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى - ت : ٢٢٢٣٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٧



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان - تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ - تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ - ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

1

الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الغربى

المقدمـــة

مع إشـراقـة شـمس كل يوم.. يولد مـلايين الناس فى مـختلف أنحـاء العـالم.. ويعيشـون حيـاتهم.. ثم يمضـون.. دون أن يحس بهم أحـد، ودون أن يخلفوا وراءهم شـيئـا يَذْكُرهـم به الناس، أو يتركوا أية "بصـمة" أو عـلامة مميـزة على وجه الحيـاة.. وبين الحـين والآخـر، يولد بعض الناس وهـم على مـوعـد مع القـدر، ليكون مـولدهم إيذاناً بفتـرة خصبة فـى مسـيرة البشـرية.. حـافلة بالخلق والإبداع والعطاء.. وتبقى ذكراهم بعد رحيلهم حية ماثلة فى أذهان الناس، وتبقى أعمالهم وإنجازاتهم خالدة على مَرِّ الأجيال.. تذكر الناس بهم، وتؤكد تفوقهم وتميزهم.

إن العظيم لا تنتهى حيـاته بموته.. ولا يُسْدَل السـتـار على مسـيرته بمجـرد أن يكف قلبه عن النبض والخفقان وتسكت أنفاسه، ولكنها تمتد فى ضمائر الناس جيلا بعد جيل، متمثلة فى عطائه وإنجازه المبدع الذى يحمل كل مقومات الخلود والبقاء.

هؤلاء العباقرة هم الذين كتبوا لأنفسهم الخلود، بما أبدعت أذهانهم، وجادت به قرائحهم، وبما خَلَّفوا من تراث رائع ونتاج عظيم، وفكر مؤثر فى مسيرة البشرية.

وتتجلى آية الله عـز وجل، حين يهدى مسيرة البشـرية بين الحين والحين رجـلا فَذّاً، يملك من الطاقات والقـوى الذهنية والنفسـية والإرادية مـا يستطيع به أن يدفع الحيـاة دفعة قوية الى الأمـام، تزيدها عمقـا وخصوبة وثراءً، وقـد تمثل الرعيل الأول من هؤلاء الأفذاذ فى الأنبياء، الذين سعوا بين الناس برسالة الحب والخير والحق والأخاء.

ومـرة أخـرى لم تبـخل السـمـاء على الإنسـانيـة بعطائهـا من أفـذاذ الـرجـال، أصـحـاب العـقـول المتوهجة، والأذهان العـبـقـرية، والإرادة النفـاذة، والملكات الفـذة، ليفـجروا طاقـات الإنسـانيـة الكامنة، ويدفعـوا بالـركب الإنسـانى خطوات جبـارة على

طريق التقدم والرقى والازدهار. فتوالى بزوغ عباقرة ملهمين ومفكرون وفلاسفة يثرون الحياة الإنسانية بفكرهم الخصب لخدمة مسيرة ركب البشرية.

* * *

إن هذا الإنجاز الثقافى الذى تصدينا له.. والذى يعتبر الأول من نوعه فى تاريخ المكتبة العربية، هو ثمرة جهد استغرق قرابة خمس سنوات من القراءة والاطلاع والتحقيق والمراجعة.. فقد تطلب وضع مسيرة مائتين من إعلام الفكر الخالدين.. قراءة مئات الكتب والمراجع، واستخلاص الحقائق التى أجمع عليها المؤرخون والعلماء، وإجراء دراسات عميقة مقارنة لما كتب عن كل واحد من هؤلاء الأعلام، لكى نقدم لك- عزيزى القارئ- فى النهاية هذا الإنجاز الثقافى العملاق!

إنها رحلة طويلة خصبة مع مائتين من العلماء الخالدين من أعلام الفكر الإنسانى.. رحلة زاخرة بالثقافة والمتعة الذهنية، وبالعظمة والعبرة، تعيش خلالها مع أحلام هؤلاء الخالدين وتطلعاتهم، ومع آمالهم وآلامهم، ومع نجاحهم وفشلهم.. ومع مشاعرهم البشرية والإنسانية، ولحظات قوتهم وضعفهم، وتخرج منها بزاد موفور من المعرفة.. ورصيد خصب من التجارب الإنسانية التى تثرى الذهن وتلهم ممارستك للحياة..

إن الأعلام الذين تتناولهم هذه الموسوعة ليسوا بأى حال من الأحوال كل الإعلام الذين حفل بهم تاريخ الأدب والفكر العالمى والإنسانى، على أن المنهج الذى حاولنا اتباعه فى اختيار هؤلاء الرواد والأعلام من شعراء وروائيين ومسرحيين وضع فى اعتباره- ما أمكن - تغطية مراحل الأدب والفكر الإنسانى واستقراء صفات كل مرحلة من خلال استعراض المراحل اتى اجتازها كل أديب ومفكر ممن تناولنا حتى تبلورت معارفه، ورقت مداركه فخلصت له شخصية مستقلة فريدة، تخول لنا بحق أن نعده علما من أعلام الفكر العالمى والإنسانى.

فهذه موسوعة تضم دراسات موجزة تناولت مائتين من أعلام الفكر العالمى.. هذه المجموعة من المؤلفين فى جملتهم من أصحاب المكانة، وبعضهم ممن له الرياسة فى القصص أو المسرح او النقد أو الشعر، ثم هم فوق ذلك أنماط مختلفة

يكاد يستقل كل واحد منهم. بشخصيته وسماته ولونه وتركيب مزاجه وسائر شمائله وصفاته، فضلا عن منازع شعوره واتجاه تفكيره وأسلوب تعبيره..

ولكن.. أين حياة الكاتب والمفكر فى إنتاجه؟!

ذلك هو السؤال الذى كان يتردد على لسانى، وإنا أدرس كل شخصية من شخصيات هذه الموسوعة. ولقد كان أسهل هذه الدراسات ما وجدت مادة حياة صاحبها ميسرة قريبة المنال ولعل شخصيات كثيرة أجهدتنى فى البحث عن حياتها فيما كتبت ولعل شخصيات بارزة كبيرة الشأن والأثر، أجلت دراستها لأننى لم أستطع العثور على المادة التى تعطينى صورة الحياة فيها ولعل الكثير من المفكرين الأعلام حرصوا على أن يتجاهلوا مشاعرهم الخاصة فلا يبرزوها، وبذلك أعجزونا عن الوصول إلى معالم أنفسهم. وخفقات قلوبهم، ومظاهر حياتهم والأحداث الضخام التى أثرت فى ماضيهم أو حاضرهم..

حقا.. إن الكتابة عن النفس عن بعض المفكرين الأعلام وخاصة العقليين والعلماء ليست عيبا.. ولكن الترجمة الذاتية فن من فنون الكتابة أوغل فيه كثيرون .. وهى عندى عملية ضرورية لازمة لأنها ترسم التجربة التى يمر بها المفكر والأديب فى ميدان الحياة حين يصارع خصومه ويعلن رأيه ويواجه المعارضة. وقد صادفتنى هذه العقبة وأنا أعد موسوعتى عن حياة الأدباء والمفكرين ، ذلك أننى فى هذه الدراسة أنما كنت أحرص على أن أسم صورة حياه لكل كاتب من هؤلاء تكشف عن طبيعته ونفسيته فهى مفتاح أدب وفكر هؤلاء الكُتاب، فليس من اليسير فهم روح إنتاج كل أديب ومفكر دون الإلمام بطرف من حياته يلقى الأضواء على التيارات المختلفة التى أحاطت بفنه وإنتاجه محاولا بقدر ما أستطيع أن أكشف عن معالم الحياة الخاصة وما اضطرم فيها من عواصف وأهواء.

وقد استعنت ما وسعنى ذلك بآثار هؤلاء الأعلام والمفكرين وما صوروا به حياتهم من صميم انتاجهم نفسه فهو أصدق فى هذا الصدد من كل الأسانيد.

إن هؤلاء الأعلام والمفكرين الذن كانوا مصابيح على الطريق نادوا غفاة البشر ـ كما يقول عمر الخيام ـ وكان هدفهم إيقاظ الوعى الإنسانى.. من حقهم علينا

وقد بذلوا الكثير من ذوات أنفسهم لينيروا لنا الطريق لإقامة مجتمع إنسانى حر كريم، أن نحيى سيرتهم ونجدد ذكراهم ونبين مبادئهم، هذه المبادئ التى كانت لنا نورا يضىء حياتنا فى الحاضر والمستقبل.

ولتكن هذه الصفحات تحية وفاء لهؤلاء الأعلام الخالدين الذين اتسمت حياتهم بالأريحية الإنسانية، وتأرجت أفكارهم بالحب الكريم، وأى حب فى الدنيا أنبل وأكرم من حب المثل العليا.. وأسال الله أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم خالصة من العجب والرياء والحمد لله أولا وآخرا.. ومنه أستمد العون والسداد.

أحمد الشنوانى

أبسن

١٨٢٨ - ١٩٠٦م
أحد أعظم الكتاب المسرحيين
فى جميع العصور

فى عالم المسرح الأوربى عمالقة كبار سطع بريقهم فى سماء الأدب والفن الرفيعين فاستووا على الافئدة والأبصار وظلوا نجوما ثابتة براقة على ممر الحقب والعصور، لايخبو نورها أو يصيب بريقها الضعف أو الزوال. وإذا حق للإنجليز أن ينظروا إلى شاعرهم الروائى الأكبر شكسبير نظرتهم إلى نعمة من نعم السماء اختصهم بها الخالق دون غيرهم من البشر، وإذا كان للألمان أن يفخروا بجوته باعث نهضتهم الأدبية ورافع فنهم المسرحى إلى أعلى السماء والذرى، فإن للنرويجيين تراثا أدبيا وفنيا خالدا يدينون بمعظمه إلى عملاق أدبهم المسرحى «هنريك ابسن».

ولد أبسن فى قرية صغيرة من أعمال النرويج فى عام ١٨٢٨: ولم يتسن له أن يتلقى تعليما عاليا بالمعنى الصحيح لضيق ذات اليد: فاضطر إلى أن يعمل أجيرا لصيدلى فى بلدته الصغيرة وهو لم يتعد الخامسة عشرة من العمر. وكان أبسن يمقت عمله هذا أشد المقت وكان يشعر فى قرارة نفسه بأن مجاله الرحب الفسيح هو ميدان الأدب والشعر؛ ولهذا كان يعكف فى أوقات فراغه وكلما سنحت له الفرصة العابرة على نظم القصائد وهو بعد فى أول ربيع الشباب.

وفى عام ١٨٥١، حنا عليه الدهر حينا فنال بعض ما كان يتمنى: فقد انتقل إلى بلدة برجن فى النرويج وأثار اهتمام علية القوم فيها؛ فاختاروه ليشرف على إعداد الروايات المسرحية لمسرح المدينة وظل أبسن يشغل هذا المركز حتى عام

١٨٥٧. ولم يستطع أبسن أن ينال حظوة حقيقة لدى مجتمع الطبقة البرجوازية السائد آنذاك فى «برجن»، بل لقد أثار نقمة المجتمع عليه وسخطه لجرأته فى القول والنقد وخاصة فى روايته المسرحية«كوميديا الحب».

وكان لأبسن فيما لاقاه من جحود وعزوف أسوة بكبار أئمة الأدب الذين سبقوا عصرهم بمراحل وأشواط بعيدة أمثال الشاعر الانجليزى شيلى فآثر ابسن أن يرحل عن وطنه فترة من الوقت تجول فى أثنائها فى ربوع ايطاليا الساحرة الجميلة، تلك الربوع التى طالما كانت ملاذا لأمثاله من الأدباء والفنانين ثم ألقى عصا الترحال فى ألمانيا وأقام أكثر وقته فى مدينة ميونيخ ما بين عامى ١٨٦١إلى ١٨٩١. وكان أن أنتج هذا الزمن القاسى عليه، الذى قضاه أشبه ما يكون بالمنفى أشهر رواياته المسرحية: بيرجنت «والدمغة» ورواية أعمدة المجتمع.

وفى عام ١٨٩١ عاد إلى وطنه وكان الناس قد بدأوا يعترفون بفضله فقضى أواخر حياته فى هدوء وطمأنينة، إلى أن وافاه الأجل فى عام ١٩٠٦، بعد مرض دام أربع سنوات كاملة وهد قواه الجسدية والعقلية معا.

ويعتبر أبسن بحق مجدد الأدب المسرحى فى أوربا، بعد أن نزل هذا الأدب إلى الدركات، ذلك أن أبسن آثر أن ينفض عن الدراما غبار التقاليد المتراكم الذى جعل منها دراما ميكانيكية روتينية تهتم بالشكل والمبنى دون الروح والمعنى. وكان محور مسرحيات أبسن يرتكز إلى فكرتين أساسيتين جعل منهما الكاتب هدفه المنشود.

أما الفكرة الأولى فإيمانه العميق بقيمة النفس البشرية، ذلك الإيمان الذى دفعه ساعيا بكل ما أوتى من جهد فكرى لإعلاء حرية الفرد ولإصراره على أن الفرد إذا ما أتاحت له حريته الصحيحة أن يختار طريق البعث بواسطة الثقافة الرفيعة والخلق القويم المتين، سعى إلى إنقاذ نفسه، ومن ثم عمل على تطوير المجتمع وإصلاحه وإنقاذه.

أما الفكرة الثانية فهى تمسكه بقيمة الحب الحقيقى الخالص من شوائب النفاق والأثرة. واعتقد أبسن أن غاية ما يصيب الفرد الإنسانى من مأساة فى هذه الحياة إنما هو حرمانه من أن يهب وأن ينال مثل هذا الحب الحقيقى سواء بسواء.

وقد عُد أبسن فى عصره الذى عاش فيه متشائما متوحدا. ولكنه كان فى

الحقيقة من أكبر المتفائلين لا بالنسبة لعصره وحده، ولكن بالنسبة إلى أمله فى الإنسانية وما يستطيع الإنسان عمله فى سبيل بناء مستقبل أفضل ومجتمع أمثل يقوم على المحبة والصدق.

مسرح أبسن

لم يكن الكاتب النرويجى«هنريك أبسن» هو مبتكر المذهب الواقعى فى الأدب كما يزعم كثيرون، ولكنه كان صاحب أقوى دفعة بهذا المذهب نحو الحياة المتحررة. وقد اختارها«أبسن» خشبة المسرح ليكون معرضا لمذهبه الجديد كما اختارها من سبقوه فى هذا الميدان أو بتعبير أدق كما اختارها من سبقه، وأعنى به«موليير» على وجه التحديد.

كانت مسرحيات«موليير» هى اللبنة الأولى فى صرح الواقعية، فقد صور بقلمه النارى عيوب مجتمعه الفاسد الذى اشترك فى تلويثه وإفساده من كانوا يسمون أنفسهم رجال الدين والنبلاء وتضافرت على إتلافه قوى الرجعية والتقاليد البالية.

ولم يكتف«موليير» بمجرد التصوير بل أخذ يهدم الأصنام.. أصنام التعفن والفساد والتقاليد. وكانت وسيلته فى ذلك الهدم هى كوميدياته الخالدة؛ فتلقى أكبر التجاوب من الجماهير وهز معاقل الرجعية هزا عنيفا.

وعندما مات موليير، لم يأت بعده من يخلفه أو يدين بدينه، ولم يعرف المسرح مؤلفا يمسك بالمبضع ليشرح المجتمع الذى يعيش فيه ولم يحاول كاتب من كتابه السير فى الطريق الذى مهده موليير... ومضت السنون وتتابعت الأجيال حتى كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما ظهر خليفة موليير الذى حمل لواء الواقعية وجرد قلمه؛ ليصور عيوب مجتمع عصره على خشبة المسرح وليهدمها عيبا عيبا بمثل القلم المر الذى حمله الكاتب الفرنسى الكبير.

صور«أبسن» أكبر رذائل عصره وهو النفاق وشن عليه حملة شعواء. ولم يترك لونا من ألوان النفاق... هاجم نفاق السيد للمسود ونفاق الزوج للزوجة ونفاق رجال الدين وحارب الانتهازية والوصولية التى جعلت من الفرد آلة صماء يحركها غيره ويفرضون عليها أفكارهم.

خاض«أبسن» معركة من أعنف المعارك، ولفت إليه أنظار المفكرين فى أنحاء العالم كله واستطاع أن يوقظ الأفراد فأيدوه فى كل قضية اجتماعية أثارها؛ لأنهم أدركوا أنها مشاكلهم... ومن ثم ثار عليه المحافظون، وزعموا أنه تعرض لمناقشة أمور لا يجوز لأحد مناقشتها، فكان جوابه عليهم وعلى ما زعموا أنه قد آن الأوان لثورة الإنسانية على كل ما يقف حائلا بينها وبين التقدم، وأنه لايعطل ركب الإنسانية إلا التقيد بالتقاليد البالية.

وقد انتصر«أبسن» فى كل قضية خاضها وتحرر العالم أو معظمه من ألوان العبوديات التى حاربها كلها. ولهذا السبب أصبحت معظم مسرحياته غير ذات موضوع فى أيامنا هذه؛ لأنها تعالج مشاكل لم يصبح لها وجود فى العصر الحديث... غير أن هذا لا ينقص من قيمتها الفنية بحال من الأحوال كما لا يجردها من فضيلتها الكبرى، وهى أنها كانت تدعو إلى تحرير الأفراد حتى تحرروا.

وتمتاز مسرحيات أبسن بميزات واضحة هى:

١- أن المسرحيات التاريخية منها تبدأ بداية عاصفة. أما المسرحيات الاجتماعية فتبدأ هادئة مشوقة معتمدة على الحوار الدقيق.

٢- أن أبسن لزم فيها وحدة الزمان والمكان كما وضعها اليونانيون.

٣- أنها محكمة البناء المسرحى إحكاما دقيقا لا يجاريه فيه مؤلف آخر.

٤- أن الحبكة فيها تبدأ بالقرب من نقطة الزمن، مما يساعد على إخضاع المسرحية للوحدات الفنية المسرحية الثلاث وهى الزمان والمكان والحدث.

٥- أن شخصياتها من النماذج الإنسانية العالمية الطبيعية.

قال برنارد شو: «إن أستاذى النرويجى -أبسن- هو أول من رفع مشكلات المجتمع إلى خشبة المسرح وقد ظل حتى آخر حياته الأدبية قادرا على انتزاع الإعجاب ويتمتع بعقلية خصبة».

إن أبسن له فضل كبير على المسرح الحديث، فهو فضلا عن أنه أول من عالج المشكلات الاجتماعية فى مسرحياته، كان أول من كتب مسرحية الفكرة التى قلده كثيرون فى كتابتها فيما بعد.

أبقراط

٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م
أبو الطب

الأساطير الإغريقية القديمة تعتبر أن " أسكليبيوس" بن أبوللو- هو إله الطب. ولهذا فقد أقيمت في شرفة المعابد الهياكل التي يحضر إليها المرضى والمصابون ليقدموا القرابين ويقيموا الصلوات طلبا للشفاء والصحة. وقد وجد الكهنة الملحقون بهذه المعابد في ذلك فرصتهم، فألفوا فيما بينهم رابطة متماسكة، وأطلقوا على أنفسهم لقب «الاسكليبديون» نسبة إلى اله الطب. واقتصرت الخبرات والممارسات الطبية عليهم، فهم يحتفظون بالمعارف الطبية ويخبئونها ويعدونها أسرارا مقدسة، ولا تنتقل إلا من الأب للابن. ولعل من المناسب أن نسمي أعضاء هده الرابطة «بالأطباء الكهنة» أو «الأطباء الفلاسفة» فهم يربطون ويخلطون ما بين الممارسات الطبية وبين مهنتهم الأساسية بالمعابد والأفكار الفلسفية السائدة عن الكون.

والقاعدة المعروفة عندما تكون المعارف والمعلومات في أى مجال من المجالات سرية، هي أنها تكون دائما في خدمة الطبقات المسيطرة. وهذا ما حدث فعلا في اليونان القديمة. بل وفي الحضارات التي سبقتها أيضا، فقد كان الكهنة الأطباء لا يعالجون إلا السادة والأغنياء، أما العامة من الشعب فكان علاجهم محصورا في نطاق المسنين والمسنات الذين يستخدمون أساليب الشعوذة والسحر بشكل أساسي.

والاتجاهات العامة التي كانت تسود دائرة الطب والعلاج في اليونان القديمة قبل أبقراط كانت اتجاهات تخمينية غيبية وفلسفية في الغالب الأعم.. أما المشاهدة الدقيقة والتجربة فلم تكن تشكل الأساس الضروري .

وخلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد كان العصر الذهبى للتنوير فى اليونان القديمة، حيث ظهرت الأسماء الكبيرة من الباحثين عن المعرفة مثل سقراط وسوفوكليس وأفلاطون.. الذين تمعنوا وتأملوا فى طبيعة الإنسان والكون. ورغم بعض التمزقات فى المجتمع الإغريقى الذى ينقسم إلى سادة وعبيد ويتسم بالتخلف الصناعى بالمقارنة بمجالات النشاط الفكرى، إلا أن الوقت كان مهيئا والحاجة ملحة لظهور عقل علمى ليحرر الممارسة الطبية من القيود الأسطورية والخرافية والفلسفية، ويؤسسها على مزيد من المشاهدات.

وظهر أبقراط «والكلمة فى الأصل هيبوقراط» بجزيرة «كاوس» فى بحر إيجه، حيث ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد أى قبل ظهور الإسكندر الأكبر بحوالى مائة عام. ولم يُعرف إلا القليل عن حياته الخاصة. ويبدو أن والده كان عضوا فى رابطة «الأطباء الكهنة» بمعبد جزيرة «كاوس». وكالعادة فى ذلك الوقت، اكتسب الابن أسرار فن الشفاء والعلاج من أبيه، وأبدى تفوقا فى التحصيل، مما دفع الأب إلى البحث عن أفضل المدرسين الموجودين فى ذلك الوقت. ومن المعتقد أن «ديموقريطس» صاحب النظرية المادية كان أحد معلميه، وكان متجولا فى أنحاء العالم لاكتساب المعارف الواسعة عن العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والفلسفة، أصبح أبقراط الصغير زائرا هو الآخر لكثير من مراكز التعليم فى العالم القديم. لقد ذهب إلى أثينا ولعله قد التقى بأفلاطون أعظم المعلمين فى عصره. والواقع أن أفلاطون قد أشار فى بعض كتاباته إلى أبقراط كمعلم طبى عظيم، كما نقل عنه بعض أقواله المهمة فى مجال الطب..

مؤلفات أبقراط

ويذكر المؤرخون أن أبقراط قد ألف ما يقرب من ثلاثين كتابا أهمها:

الأول: كتاب الأجنة. ويتناول فيه كون المنى وكون الجنين وكون الأعضاء.

الثانى: «طبيعة الإنسان».

الثالث: «الأهوية والمياه والبلدان».

الرابع: «الفصول».

الخامس: «المعرفة. وضمنه تعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على أحوال المرضى.

السادس: «الأمراض الحادة».

السابع: «أوجاع النساء».

الثامن: «الأمراض الوافدة».

التاسع: «الاخلاط».

العاشر: «الغذاء».

الحادى عشر: «القاطيطرون أى حانوت (دكان) الطبيب».

الثانى عشر: «الكسر والجبر».

هذا وقد فسر جالينوس معظم كتب أبقراط وشرحها ونقل المترجمون العرب والسريان هذه الشروح إلى اللغة العربية. ولا تزال لهذه الشروح مخطوطات موجودة فى أياصوفيا وينى جامع بتركيا.

قسم أبقراط

كان لأبقراط ولدان هما «ثاسس وذواقن» وتلميذ فاضل جاد هو «فولويس» فعلم ابنه وتلميذه صناعة الطب مع الإفضاء إليهم بأسرارها ودقائقها. ولما رأى أن هذه الصناعة - التى يكبرها ويجلها - أوشكت أن تخرج منهم إلى غيرهم. وضع عهدا: استحلف فيه المتعلم لها: أن يكون ملازما للطهارة والفضيلة. وعرف فيه جميع ما يحتاج إليه طالب الطب.

فقد أقسم أبقراط بأبللو الطبيب وباسكلييوس، وبهجيائيا وباناسيا وبكل ما هو مقدس، وأشهدهم جميعا على أن:

❖ أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتى وحكمتى.

❖ وأن أضع معلمى فى هذا الفن فى منزلة مساوية لأبوىَّ، وأن أشركه فى مالى الذى أعيش منه، فإذا احتاج إلى المال اقتسمت مالى معه، وأقسم أن أعد أسرته إخوة لى، وأن أعلمهم هذا الفن إذا رغبوا فى تعلمه، من غير أن أتقاضى منهم

أجرا أو ألزمهم بإنفاق.

- ❖ وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائى ولأبناء أستاذى وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ولا ألقنها لأحد سواهم.
- ❖ وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتى وحكمتى، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر.
- ❖ ولن أسقى أحدا السم إذا طلب إلىّ أن أفعل هذا أو أشير بسلوك هذا السبيل.
- ❖ كذلك لن أعطى امرأة صوفة لإسقاط جنينها، ولكنى سأحتفظ بحياتى وفنى كليهما طاهرين مقدسين.
- ❖ ولن أستعمل المبضع ولو كنت محقا فى استعماله، لمن يشكو حصاة، بل أتخلى عن مكانى لمن يحذقون هذا الفن.
- ❖ وإذا دخلت بيت إنسان أيا كان، فسأدخله لمساعدة المرضى، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى متعمد.
- ❖ وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء.
- ❖ ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس، إذا كان مما لا تجب إذاعته، فلن أفشيه.

«فإذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه، فإنى أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعا بحياتى وبفنى، أما إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا».

ويضيف أبقراط إلى هذا أن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى، وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه. ويجب عليه أن يكون هادئا على الدوام، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض.

ويجب عليه:

«أن يعنى بمراقبة نفسه، و... وألا يقول إلا ما هو ضرورى.. وإذا دخلت حجرة

مريض فتذكر طريقة جلوسك، وكن متحفظا فى كلامك معتنيا بهندامك، صريحا حاسما فى أقوالك، موجزا فى حديثك، هادئا... ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض... واضبط أعصابك، وازجر من يقلقك، وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يفعل... وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية، وعليك أيضا أن تقدم خدماتك من غير أجر، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال، فقدم له معونتك كاملة، ذلك أنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضا حب الفن».

لقد مات أبقراط قبل ألفى عام. ولكن قسمه خالد يذكره كل طبيب ولو مرة واحدة على الأقل فى حياته عندما ينتهى من دراسته. وإنا لنرجو أن يظل هذا القسم العظيم عالقاً بأذهان الأطباء. وإذا كنا قد أتينا على ذكر هذا القسم فلكى يقف الناس جميعاً على المثل العليا التى أرساها أبقراط فى الطب والتى يجب على الطبيب تعهدها والتمسك بها.

ولقد استطاع أبقراط أن يحافظ على هذا العهد طوال حياته، فعاش سعيدا موفقا وترك تراثا خالدا لا ينسى.

أول مدرسة طبية علمية

وعندما توفى أبقراط عام ٣٧٠ ق.م. عن تسعين عاما، كان قد أنشأ أول مدرسة طبية لها اتجاه علمى حقيقى، وكان قد خلف ثروة من المعارف والتوجيهات أصبحت أساسا جيدا للعمل فى ميدان الطب والعلاج لقرون طويلة من الزمان، ولعل من أهم ملامح هذا الاتجاه وهذه الثروة ما يلى:

تأكيد أبقراط الشديد والمتكرر فى كل مناسبة علي أنه ينبغى على الطبيب المعالج دراسة المريض ككل وليس مجرد مرضه فقط. ولكى يكون التشخيص سليما ينبغى دراسة كل ما يمكن دراسته عن المريض.. تصرفاته اليومية الروتينية، تاريخ أسرته، وظيفته، الظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية التى يعيش فيها... ومدى الحرية أو القهر الذى يحيط به... إلى هذه الدرجة!! وتأكيده على أن ينبغى على الطبيب أن يكون تشخيصه النهائى مستخرجا من مشاهداته ومراقبته الحريصة

لحالة المريض.

إصرار أبقراط على أن كل مرض مهما كان بسيطا أو خطيرا، لابد أن يكون له مسبب طبيعى، ومهاجمته للممارسة الطبية الخرافية والخيالية والفلسفية. فهو يقول: «إن الطب من بين كل الفنون هو أرفعها شأنا، ولكن نظرا لجهل من يمارسونه فإنه يتخلف كثيرا عن كل الفنون الأخرى».

على الرغم من أن تشريح الجسم بعد الممات كان محرما عند قدماء الإغريق، وعلى الرغم من أن المعارف عن التفاصيل التشريحية والفسيولوجية والمرضية كانت بدائية نتيجة لهذا التحريم، إلا أن كتابات أبقراط عن الكسور وخلع المفاصل تكشف عن معرفة متقدمة بتركيب ووظائف العظام والعضلات والأربطة بين بعضها البعض. وهو أمر يثير الدهشة.

لقد كانت الحاجة إلى التعقيم معروفة، على الرغم من عدم فهمها وكانت لأبقراط تعاليم محددة فى تحضير غرفة العمليات والآلات الجراحية، وتعاليم عن ضرورة تنظيف الجروح وتطهيرها بمزيد من الدقة قبل إغلاق حواف اللحم أو الجلد المجروح بالضمادات. وعن وضع الأعشاب الطبية على الجرح بعد ذلك ثم تغطيته برباط نظيف.

ثم إنه بعد ذلك يؤكد على أهمية نوع الطعام والتمريض والعناية بالمريض خلال فترة النقاهة والتئام الجروح وهو أمر يوضح مدى استنارة أبقراط وسبقه لزمانه ولتميزه بنظرته العلمية.

إن ما يسمى «بالموسوعة الأبقراطية» كانت أول تجميع علمى منسق فى مجال الطب عرفه العالم، فقد حوت أكثر من ثمانين مقالا طبيا كانت تغطى كل مراحل الممارسة الطبية تقريبا، كتبها أبقراط وتلاميذه وجمعها تابعوه خلال القرن الثالث قبل الميلاد لمكتبة الإسكندرية التى يرجع إليها الفضل فى حفظها من الاندثار.

❖ ويجمع المؤرخون فى مجال تاريخ وفلسفة العلم أن أول اتجاه علمى فى الطب هو ما نشأ مع مدرسة أبقراط. فالرجل كان يدرك بشكل واضح أن الطب كجانب من المعرفة التطبيقية ينبع من الممارسة العلمية ومن التكنيك. ولهذا تعتبر أعمال

وآراء وتوجيهات أبقراط إسهامات جديدة بالنسبة لوقته فى تشكيل صورة علمية عن البيئة أو عن جانب منها.

إن القيمة العظمى «للموسوعة الأبقراطية» كانت فى تأكيدها وإصرارها على حاجة الطبيب للأسس الصحية عند الاقتراب من مشكلات الصحة والمرض وهو أمر لا يزال من أساسيات العمل الطبى حتى اليوم. وهناك بعض المقالات فى هذه الموسوعة لا تزال تجد مكانها فى التفكير الطبى العلمى فى أيامنا هذه.

* * *

أرستوفانيس

٤٣٠ - ٣٨٥ ق.م
أعظم شعراء الملهاة اليونانية

لقد احتل اريستوفانيس فى العالم اليونانى منزلة سامية وذاع صيته بعد أن نال الجائزة الأولى فى أربع مسابقات تمثيلية وفاز بالثانية فى أربع أخرى وهذا نصر لم يحرزه أى من شعراء الملهاة (الكوميديا) بمختلف أنواعها فاستحق بذلك تمجيد الأدباء والفلاسفة وفي مقدمتهم أفلاطون الذى صوره فى المأدبة أحسن تصوير وأثنى عليه فى الجمهورية أيما ثناء ونظم فيه الأبيات الرائعة.

وأعجب بأريستوفانيس شعراء الرومان أيضا فقلدوا مسرحياته، أما المربى كونتليانس فقد امتدح مؤلفاته وأكد ضرورة الرجوع إليها وفرض تلاوتها على تلاميذ المدارس ليفيدوا من نقاء أسلوبها ورشاقته ويقفوا على قوة تركيبها وتدفق حوارها بخاصة فى الأجزاء الخطابية لذا كان هذا الناقد الرومانى يعتبر هوميروس وأريستوفانيس نموذجين لتعليم الخطابة أما شيشرون فقد اعترف لشاعر الملهاة ببراعة النكتة وتوقد القريحة.

ولكن تأثير أريستوفانيس كان أشد وضوحا فى عصر النهضة، حين اهتم أدباء إيطاليا بنشر أسفاره وترجمتها وتبعهم فى ذلك شعراء فرنسا وكتابهم الذين ذهب بعضهم إلى تقليد أريستوفانيس فى أسلوبه وسخريته اللاذعة ومنهم من تقمص روحه وحاكى طريقته فى النقد ومنهجه فى التصوير. ويعتبر رابليه زعيما لهذا الفريق من الأدباء، ثم جاء راسين وموليير واقتفيا أثر الشاعر اليونانى فى مطلع حياتهما وقلده فى انجلترا ابن جونسون وغيره من شعراء المسرح الإنجليزى. ولما

بدأ القرن التاسع عشر ونشطت الحركة الرومانتيكية حاز أريستوفانيس على إعجاب كثير من الكتاب مثل براوننج وسوينبرن فتعددت ترجماته وراجت مسرحياته وأخرجت فى المسارح الإنجليزية والفرنسية والإمريكية وأعدت للإذاعة فلاقت نجاحاً عظيما فى هذه الدول.

أجمع الدارسون على أن أريستوفانيس شاعر عظيم فى فن اللمهاة لكن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أريستوفان وأقل منهم من قرأه وسبر أغواره، وهذا شأن الساخرين من الشعراء لأن شعرهم فى العادة مرتبط بالبيئة والأحداث التى عاشوها ومثل هؤلاء سرعان ما تتبخر صورهم وتخبوا تلميحاتهم بزوال الأشخاص والأحداث. على أن أريستوفان كان أكثرهم حظا فقد تبقى من مسرحياته التى جاوزت الأربعين إحدى عشرة ملهاة هى:

١- أخارنيس (اسم معبد وحى)

٢- الفرسان.

٣- السحب.

٤- الزنانير.

٥- السلام.

٦- الطيور.

٧- ليسستراتى (مسرحية الجيوش).

٨- تسموفويازوسى (حارسات التقاليد أو العرافات).

٩- الضفادع.

١٠- النائب أو المجتمعات.

١١- الغنى أو المال.

وأريستوفان من أولئك الشعراء الذين غلبت شهرة عملهم الأدبى على تاريخهم فلم يعرف للآن حتى موعد مولده ووفاته، كل ما يعرف عنه هو ما كتبه عن نفسه

وما ذكره أفلاطون وقد كان معجبا به - إلى متناثرات أخرى نجدها عند بلوتارك وغيره من النقاد والمؤرخين القدامى.

المعروف عنه حتى الآن:

انه أثينى من عشيرة (كودا) من قبيلة (بنديونيد) وهى قبيلة عريقة من القبائل العشر التى كونت أثينا منذ القدم.

كما كان يطلق عليه الأجينى نسبة إلى جزيرة أجينا المقابلة لأثينا شرقا والتى قضى بها الشاعر سنين كثيرة من عمره ويقال إن أباه أُقطع مزرعة بها.

ويذكر هليودور الأثينى أن أريستوفان من جزيرة رودوس ويرجح أنه مصرى جاء من مدينة نقراش (ناوكراتيس) وكانت مدينة هيلينية بدلتا النيل قرب إيتاى البارود، نجد أطلالها اليوم فى كوم جعيف وغيرها من القرى، سكنها اليونانيون أيام سمح لهم الفراعنة بسكناها ليكونوا قوة بحرية وتجارية تسند جيش مصر فى حروبها ضد آشور والفرس وغيرهما. وهذه المدينة الاغريقية ظهر تاريخها وحضارتها منذ القرن السابع قبل الميلاد ولعبت دوراً مهما فى المزج الحضارى وكانت هى وكانون (أبو قير) وغيرهما من المدن أسسا ودعامات لبناء الإسكندرية فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

ويزعم سويداس أن أريستوفان من طبقة العبيد واعتمد فى هذا الزعم على الوثيقة التي أعلنها كليون الحاكم الأثينى «تطعن فى أن أريستوفان أثينى أصيل» لكى يشهر بالشاعر الذى طالما فضحه على المسرح وكانت هذه التهمة دامغة لكل أجنبى فلا يستطيع أن يطالب بحقوق المواطن الأثينى.. ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى ادعى فيها الحاكم على أريستوفان أمام القضاء حيث طالب بعقابه وطرده من أثينا فعندما قام أريستوفان بنفسه كاشفا عن اسمه بعد ان كان مستعارا أصبح العداء سافراً بين الحاكم وبين أريستوفان فقاضاه وعذبه بالضرب وهدده وأغراه ولكن أريستوفان صمد وكتب البقاء للملهاة اليونانية على المسرح كما يذكر ذلك بنفسه فى مسرحية الزنانير (الأبيات من ١٢٨٣ - ١٢٩١).

معنى هذا أن الشاعر اضطر لاقتحام الميدان السياسى حتى يخلص نفسه من

التشهير به والادعاء عليه.

أما عن ثقافته فيبدو من شعره أنها واسعة ممتازة على أحسن ما كانت الثقافة والتربية فى عصر بريكليس الذهبى.

وأريستوفان يقول إنه قبل أن يكون ربانا لسفينة الكوميديا قد كان بحارا ماهرا وجدافا قديرا متمكنا. ونقده الأدبى فى الموازنة بين أسخيل ويوربيد فى الضفادع يثبت أنه راسخ فى العلم ذواقة فى الفن.

كذلك يذكر بعض النقاد أن أريستوفان متأثر بأوروبيد وهذا صحيح لكن لا ينكر أنه استحدث أساليب جديدة على المسرح اليونانى

أعمال أريستوفان

عاش الرجل حياته منقطعا للمسرح فكتب أربعا وأربعين ملهاة أصاب الشك منها أربعا وهى: (١) الشعر (٢) الغريق (٣) الجزر (٤) نيوباس. وبقيت من أعماله إحدى عشرة أصيلة ذكرناها أما الأخرى فمفقودة لم يبق منها إلا متناثرات فى بطون المراجع منها.

١- ديتاليس أو مجلس الشراب: سنة ٤٢٧ ق.م

٢- البابليون: سنة ٤٢٦ ق.م

٣- أولكاديس: ٤٢٣ ق.م

٤- الشيخوخة:

٥- أمفيراوس: سنة ٤١٤ ق.م

٦- تريفاليس:

٧- ليمينا: الأعياد والتقاليد المعيبة والبدع.

٨- شيوخ: سنة ٤٠٧ ق.م

٩- الفينيق: سنة ٤٠٥ ق.م

١٠- كوكالوس: سنة ٣٨٨ ق.م

١١- ايلويسيكون: سنة ٣٨٨ ق.م

وأعظم ما فى أعمال الشاعر بروز خفايا عصره ولهذا بقيت أعماله كوثائق تاريخية وعملية مما دفع أفلاطون إلى أن يمجده بهذا البيت.

«رباب النعم جدت فى البحث عن معبد لها فلم تجد غير روح أريستوفان هيكلا سرمديا».

* * *

أرسطوطاليس

٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م
الرجل الذى اخترع المنطق

هو أرسطوطاليس الفيلسوف الأغريقى، نادرة العصور، ونابغة المفكرين، وأكبر العلماء شهرة فى تاريخ الفكر الإنسانى. فهو منشئ فن النقد الأدبى، وأستاذ العلوم النفسية والمنطقية والأدبية والأخلاقية، والبحاثة الفذ فى علوم الإحياء. وقد انتهى به الحال لكثرة ما ألف وصنف أن يدعى بالمعلم الأكبر وأن تسمى مؤلفاته «التعليم الأول». وكما يقول ابن رشد:

«وضع علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة وأكملها، وقد قلت: إنه وضعها، لأن جميع الكتب التى ألفت قبله عن هذه العلوم لا تستحق جهد الحديث عنها. ولأنها توارت بمؤلفاته الخاصة. وقد قلت: إنه أكملها، لأن جميع الذين خلفوه حتى زمننا، أى فى مدة خمسة عشر قرنا، لم يستطيعوا أن يضيفوا شيئا إلى مؤلفاته أو أن يجدوا فيها خطأ ذا بال. والواقع أن جميع هذا اجتمع فى رجل واحد، وهذا أمر عجيب خارق للعادة، وهو إذ امتاز على هذا الوجه يستحق أن يدعى إلهيا أكثر من أن يدعى بشريا، وهذا ما جعل الأوائل يسمونه إلهيا».

ولد أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد «عام ٣٨٤ ق.م» فى ستاتجيرا بولاية صغيرة على الشاطىء المقدونى باليونان. وكان والده نيقوماخوس طبيبا ينتمى إلى طائفة عرفت باسم «أبناء سفولابيوس» إله الطب عند الأغريق، وكان والده يعمل طبيبا فى بلاط الملك أمينتاس الثانى، والد فيليب المقدونى، وجد الإسكندر الأكبر.

نشأ أرسطو فى محيط هذا البلاط الملكى، وقد عزا بعض المؤرخين - إلى هذه النشأة الأولى - اهتمام أرسطو البالغ بالدراسات المتعلقة بالفسيولوجية وعلم الحيوان، ولو أنه لم يعن بهذه العلوم عناية فائقة إلا فى السنوات الأخيرة.

وقد يكون للوراثة بعض الأثر فى اهتمام أرسطو بهذه العلوم، ولكن ما من شك فى أن الأثر الأكبر يرجع إلى شغفه العميق بالبحث والاستقصاء فى جميع الاتجاهات العلمية والفلسفية، وهو ما تميزت به المراحل الأخيرة من تطوره الفكرى.

تلقى أرسطو تعليمه الأولى - وفق التقاليد - على يد أساتذة من أقران أبيه الأطباء، الذين دمغوه وطبعوه بطابع ثقافتهم الطبية والبيولوجية المتصلة بمهنتهم. ولما كان المتبع أن يتلقى طالب الطب دراسات فى أصول الفلسفة، فقد أرسل أرسطو - وهو فى السابعة عشرة - إلى مدينة أثينا ليلتحق بالأكاديمية التى يرأسها أفلاطون. وظل يطلب العلم فيها نحو عشرين عاما إلى ان بلغ السابعة والثلاثين.

وفى أثناء هذه المدة، أشربت نفسه علوم أستاذه أفلاطون، وبانت مواهبه فتفوق على أقرانه بذكائه الخارق.. وهذا ما دفع أفلاطون إلى أن يقول «إن أكاديميته لا تحوى سوى شيئين اثنين فقط: عقل أرسطو فى جانب، والطلبة كلهم فى جانب آخر».

وبعد وفاة أفلاطون عام ٣٤٨ - ٣٤٧ ق.م فاز أرسطو - على ما جاء فى بعض المراجع - فى الانتخاب الذى أجرى لرياسة الأكاديمية إلا أنه - على الرغم مما كان يتمتع به من شهرة وتقدير، وبُعد صيت واحترام - قدم استقالته من هذا المنصب، ورحل إلى آسيا الصغرى، حيث التحق ببلاط هرمياس أحد أمراء الولايات الفارسية.

وكان انتقال أرسطو إلى آسيا الصغرى، مباشرة بعد وفاة أفلاطون، مدعاة لكثير من التقولات والإشاعات فيما يتعلق بالصلة بين أفلاطون وأرسطو.

ثم انتقل أرسطو إلى بيللا حيث أسند إليه مصنب مؤدب ولى العهد إسكندر، الذى أصبح فيما بعد الفاتح العظيم إسكندر الأكبر. وواصل عمله فى هذا المنصب ثلاث سنوات من ٣٣٨ الى ٣٣٥ ق.م.

وقد أسبغت عليه هذه الوظيفة ألقابا من الشرف وألوانا من النعمة، وحبته بثروة طائلة، فاستطاع أن يحقق ما تصبو إليه نفسه الطموح من الاتجاه إلى التبحر

فى العلوم. والتعمق فى البحوث الفلسفية، دون أن تعوقه الحاجة إلى المال، فعاد إلى أثينا، مهد ثقافته، واتخذها مجالا لنشاطه الفكرى، وميدانا لتأملاته العقلية.

وأقام بها تحت رعاية الإسكندر، زمنا ظل خلاله موضع الإجلال والتقدير من جمهرة تلاميذه العديدين وقد بلغ من علو قدره فى العلم، أن منح حق استخدام «معبد أبولو» فى أغراض التعليم، وهو المعبد الذى كان مكرسا لعبادة الإله أبولو، وأطلق على هذا المعبد اسم «الليكوم» وهى عين الكلمة الفرنسية «ليسيه» وهو المثال الذى احتذته فيما بعد المعاهد العلمية فى أنحاء العالم.

أرسطو رائد المشائين

وكان أرسطو يلقى محاضراته فى هذه الندوة العلمية - كل صباح - على النخبة من تلاميذه الأصفياء، وجلهم - إن لم يكونوا كلهم - من العلماء الطاعنين فى السن، ذوى الصيت الذائع، الذين عاونوه فى تسجيل بحوثه ونشرها، وفى إثبات آرائه، فيما كان يدور بينه وبينهم من مجاولات ومساجلات حول المسائل العلمية، والقضايا الفلسفية، وتفسير ما تنطوى عليه من غموض، أو كشف ما يحوطها من إبهام. وهؤلاء هم حواريوه ومريدوه الذين اصطفاهم، والذين كان يقع على كاهلهم أكبر قسط من الجهد العلمى، وكان يسمى طلبته بالمشائين، لانه كان لا يعلم جالسا ولكنه كان يتمشى خلال الاروقة المحيطة بمعبد أبولو، فيتمتع بالهواء الطلق وأشعة الشمس فى الشتاء، وبالهواء العليل والظل الظليل فى الصيف. وكان يرى أن هذه الطريقة تساعد على تنشيط الذهن.

أما فى المساء فكان يعقد ندوات عامة على طائفة أخرى من تلاميذه الشبان، ومع ذلك يجد من وقته متسعا، ليدون طائفة من المواضيع فى علوم المنطق، وما بعد الطبيعة، والفنون، والعلوم السياسية والنفسية والأخلاقية، وعلم الأحياء.

ويدل هذا النشاط الجم على حيوية دافقة، لا تعرف الكلل، وعلى مقدرة فائقة فى حسن تنظيم عمله اليومى، وإتقان توزيعه.

واستمر أرسطو ينسج على هذا المنوال مدى ١٢ سنة، إلى أن ثارت أثينا، بعد وفاة الإسكندر، وتمردت على سيادة مقدونيا. وأمست حياته معرضة لخطر داهم،

وشعر أنه - لابد - مواجه تهمة من تلك التهم التى كانت توجه ببساطة إلى أمثاله، كالالحاد، وإنكار الآلهة وتحقيرها، وهى التهمة التى توجه عادة إلى الخصوم، عند الافتقار إلى ما يعوز الاتهام من وقائع جدية وأسباب صحيحة.

لذلك فر أرسطو ناجيا بحياته، لكى يعفى حكام أثينا - كما قال هو نفسه - من وصمة ارتكاب جريمة أخرى جديدة. بعد جريمة سقراط، تتصل بمقاومة الفلسفة، ومطاردة العلماء من الفلاسفة، وقصد إلى جزيرة يوبيا، حيث لم يلبث غير وقت قصير حتى قضى نحبه فى عام ٣٢٢ ق.م.

مؤلفات المعلم الأكبر

كتب أرسطو فى كل علم تقريبا. وقد ألف نوعين من الكتب، كتب عامة وأخرى خاصة. ونقصد بالكتب العامة تلك الكتب البعيدة عن المصطلحات العلمية والتى كتبها بأسلوب علمى مهذب وهذه هى الكتب التى أثنى شيشرون على أسلوبها. أما مؤلفاته الأخرى فقد كتبها لتلاميذه وهى تحتاج إلى إلمام بقسط من العلوم ومعرفة بالاصطلاحات العلمية التى اختارها أرسطو والتى بدونها تصبح قراءتها عبثا.

وأسلوب أرسطو يمتاز بجفافه وشدة تركيزه، ويرجع ذلك إلى أن كتاباته كانت بمثابة نقط مركزة يسترشد بها المعلم الأول أثناء الشرح فى «الليكوم»، ولكن شيشرون يذكر أن أسلوب أرسطو فى عهد الشباب كان متأثرا بجمال أسلوب أفلاطون ورشاقته.

ويمكن تقسيم مؤلفات أرسطو بحسب أدوار حياته:

١- دور الشباب:

تجد فيه محاورة «أوديموس» مثلا وهى على غرار «فيدون» لأفلاطون، ونلاحظ أن أرسطو فى هذا الدور متأثر بتعاليم الأكاديمية.

٢- دور الانتقال:

يضع أرسطو فيه كتابا عن «الفلسفة» ينتقد فيه نظرية أفلاطون فى المثل ويضع الخطوط العريضة لمذهبه فى الميتافيزيقا والطبيعة والأخلاق والسياسة.

٣- الدور الأخير:

وهو مرحلة النضج الكامل وهى تمثل الثلاثين سنة الأخيرة من حياة أرسطو، وضع أرسطو مؤلفاته الرئيسية على صورة مذكرات تعليمية.

وتنقسم كتب أرسطو إلى المجموعات الآتية:

١- الكتب المنطقية:

وقد سميت بالأورجانون أى آلة الفكر منذ القرن السادس الميلادى وهى: المقولات، والعبارة، والتحليلات الأولى، والتحليلات الثانية، والجدل، والأغاليط.

٢- الكتب الطبيعية.. وتتضمن:

(أ) كتاب الطبيعة أو السماع الطبيعى وهو مؤلف من ثمانية أجزاء.

(ب) كتاب السماء.

(جـ) كتاب الكون والفساد.

(د) كتاب الظواهر الجوية.

٣- الكتب البيولوجية.. هى:

تاريخ الحيوان وحركة الحيوان ويضم اليها كتاب النفس والرسائل الصغرى المتصلة به وعددها ثمانية. وقد سميت بالطبيعات الصغرى وهى: الحس والمحسوس، والذكر والتذكر، والنوم واليقظة، وتعبير الرؤيا فى الأحلام، وطول العمر وقصره، ورسالة فى الحياة والموت، ورسالة فى النفس، ورسالة فى الشباب والشيخوخة.

٤- الكتب الميتافيزيقية:

يعرض أرسطو فى هذه الكتب للفلسفة الأولى وهى تشتمل على أربعة عشر كتابا رتبها أندرونيقوس حسب حروف الهجاء اليونانية، وسماها «ما بعد الطبيعة» لأنها ترد فى الترتيب بعد كتاب الطبيعة.

٥- الكتب الأخلاقية والسياسية:

وهذه الكتب تبحث فى الجانب العلمى من فلسفة أرسطو وهى تتضمن:

(أ) الأخلاق الأوديمية: وهى أقرب إلى مذهب أفلاطون. وتشمل على سبعة مقالات.

(ب) الأخلاق النيقوماخية وهى فى عشرة مقالات.

(جـ) الأخلاق الكبرى: وهى تلخيص للكتابين الأولين.

أما الكتب السياسية فأهمها: كتاب السياسة، وكتاب «نظام الأثينيين» وقد جمع فيه أرسطو مقتطفات من ستة عشر دستورا للمدن اليونانية.

* * *

أسبينوزا

١٦٣٢ - ١٦٧٧م
الفيلسوف الهولندى صاحب المؤلفات عميقة الأثر

ولد أسبينوزا فى ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ بمدينة أمستردام بهولندا، لأبوين يهوديين من أسرة تنتمى إلى أصل إسبانى برتغالى هاجرت إلى هولندا هربا من اضطهاد محاكم التفتيش. وقد تلقى العلم فى المدرسة اليهودية الرئيسية بأمستردام، ولكن دراسته تميزت عن دراسة بقية أبناء الطائفة اليهودية بوجود عناصر من الثقافة اللاتينية حرص أبوه على أن يتلقاها الابن على أيدى معلم خاص أطلع أسبينوزا - بفضله أيضا - على أعمال علماء الطبيعة المحدثين.

كان أبوه من التجار الناجحين، يرجو لابنه أن يكون رجلا ناجحا من رجال الدين، ولكن باروخ - وهو اسم عبرى معناه المبارك - كان أشد كلفا بالحقيقة منه بالنجاح. وأدى به بحثه عن الحق إلى مسالك وعرة، تبعد عن الدين، وتبعد غاية البعد عن عالم المال والعقائد. لقد وقف فى طفولته أمام قبر «اريل اكستا» ذلك اليهودى المتشكك الذى نبذه بنو جلدته علنا لأنه ألحد، فوضع لحياته حدا، متأثرا بما لحقه من خزى أمام الملأ. فيخلف ذلك المشهد فى نفس أسبينوزا أعمق الأثر.. فيتساءل ماذا يفرق الناس شيعا فى الفكر، فيصب بعضهم العذاب على بعض من أثر هذه الفرقة؟. وفى هذا اليوم بالذات كرس الصبى اليهودى نفسه لحياة البحث، دون أن يدرى معنى ذلك حق الدراية.

فلما كبر توفر على دراسة التوراة والتلمود وشعر القدامى وعلم المحدثين. وتوفر بنوع خاص على تعمق ما ساد عصره من الآراء الفلسفية العظيمة. فسلط ضوء

عقله الناقد المحلل على الميتافيزيقا الخلقية التى شاهدها الفلاسفة اليهود من أمثال فيلو وابن ميمون، ليفى بن جرسون وابن جبرول وحسداى. وسلطه كذلك على الأخلاق الميتافيزيقية للفلاسفة من غير اليهود، كأفلاطون وأرسطو وأبيقور وجيوردانو برنو وديكارت. وشاء أن يوسع آفاق بحثه فى فلسفة غير اليهود فدرس اللاتينية على الأستاذ الهولندى «فان دى اندى» وهو فقيه لغوى لامع، وهو متشكك ثائر.

وقد اصطدم أسبينوزا بالطائفة اليهودية التى أفزعها جرأته فى المسائل الدينية وتحديه لتراثها الروحى، وحاولت استمالته إليها، أو على الأقل منعه من انتقادها جهراً، ثم جربت سلاح الإرهاب، ولما لم يفلح معه هذا كله، أصدرت فى عام ١٦٥٦ قرارها بطرده من الطائفة وتوقيع عقوبة التحريم على «التجديف الشنيع الذى يمارسه ويعلمه». ولم يكترث أسبينوزا بهذه العقوبة بل يبدو أنه رحب بها، بدليل أنه بادر إلى تغيير اسمه العبرى «باروخ» إلى مقابلة اللاتينى «بنديكتوس». ومن الجدير بالذكر أن أسبينوزا بعد طرده من الطائفة اليهودية لم يحاول أن ينضم إلى طائفة أخرى، ومعنى ذلك انه ظل منذ ذلك الحين حتى وفاته دون أن يكون منتميا من الوجهة الرسمية إلى أية عقيدة، ولاشك أن تلك كانت حالة فريدة بين جميع فلاسفة العصر الحديث.

وكان من أثر قرار الطرد والحرمان أن تبرأ منه أبوه. ولما مات الأب بعد ذلك، أرادت أخته ان تحرمه حقه فى تراث أبيه، ودافع أسبينوزا عن حقه أمام القضاء، وحكم له، ثم نزل عن ميراثه لأخته. فهو لا يبغى المال، وإنما إقرار العدل. فما أتفه صالحه الشخصى فى مسرحية الحياة التى يحاول الظهور على غوامضها.

وسعيا لتحقيق هذه الغاية آوى إلى حجرة علوية فى «أوتراك» من ضواحى أمستردام واحترف صقل العدسات ليصيب عيشه، واشتغل بالفلسفة، وجعل منها رسالة حياته. وكان هذا يتفق مع تقاليد أسلافه. فالمعلمون العبرانيون الأوائل كانوا يؤثرون ان يتعلم المرء حرفة يدوية من حيث هى ضرورة من ضروريات التوفر على حياة العلم. فعندهم ان العلم أسمى من أن يتكسب به. وكانوا يقولون: «اشغل يديك ببضاعة الأرض، ورأسك ببضاعة السماء». وكان كهؤلاء المدرسين القدامى يذهب مذهب علية القوم فى الإيمان بهواية الرياضة... ولكن هوايته كانت رياضة العقل

لا رياضة العضل.

لذلك عاش فى حجرته فى أعلى المنزل، يصقل العدسات، ويهب فراغه للتفكير، ويكتب عن سر الله ومعنى الحياة. ولما بلغ الثامنة والعشرين انتقل إلى «رينسبرج» القريبة من «ليون». واعتكف فيها، كأنه دودة القز فى الشرنقة. فهو قلما يخرج لغير النزهة أو شراء طعامه.

تراث اسبينوزا

كانت حياة أسبينوزا قصيرة إذ لم يتجاوز به العمر أربعا وأربعين سنة وثلاثة أشهر، ولكنه ألم فى حياته القصيرة تلك بعلوم ومعارف شتى، ووقف على كتب دينية وفلسفية وعلمية عدة، وعكف على دراسة هذا كله إما نقدا وتحليلا لبعضها، وإما تفسيرا وتأويلا لبعضها الآخر.

على أن حياته على قصرها كانت حياة خصبة غنية بما أنتجه إبانها من الكتب والرسائل وما خلفه من الخطابات التى دارت على كثير من المسائل، وكلها مرآة لما عرفه وأخذ عنه وتأثر به من كتب وعقائد ومذاهب سابقة عليه أو معاصرة له من ناحية، وصورة معبرة أصدق تعبير عن أفكاره وأنظاره ومذاهبه التى ابتكرها هو من ناحية أخرى.

وها نحن أولاء نسلك تلك السبيل مع فيلسوف هولندا الفذ، فنلم على قدر ما يتسع له المقام بما خلفه أسبينوزا من آثار فلسفية انطوت على كثير من الأفكار الإنسانية.

١- (مبادىء فلسفة رينيه ديكارت، مبرهنة بالطريقة الهندسية) سنة ١٦٦٣ وقد شفع أسبينوزا هذه الرسالة برسالة أخرى فى (الأفكار الميتافيريقية).

٢- (الرسالة اللاهوتية - السياسية) ١٦٧٠م

وقد انتقد فيها التفسير المألوف للكتاب المقدس، ثم رفض الإيمان بالإله كما يصفه العهد القديم وآمن باله أوسع رحمة فى عهد جديد من لدنه. والعهد الجديد لأسبينوزا هو كتابه الشهير فى الأخلاق.

٣- (رسالة فى الله وفى الإنسان) سنة ١٦٦٠م.

٤- (رسالة فى إصلاح العقل).

٥- (الرسالة السياسية) سنة ١٦٧٥ - سنة ١٦٧٧م.

وهذه الرسالة كتاب عام فى السياسة العقلية والسياسية.

٦- (الخطابات).

٧- (علم الأخلاق على النهج الهندسى).

وهو أهم كتب أسبينوزا وأصدقها تصويرا لمذهبه ومنهجه، وقد اشتغل بإعداده وتأليفه وتنقيحه طوال سنين عدة من حياته، ولكنه لم يجرؤ على نشره إبان حياته خشية الفتنة، فنشر الكتاب بعد مماته.

* * *

أسترابون

٦٤ - ٢١ق.م
صاحب الآثار الجغرافية التى نستمد منها معرفتنا بالعالم القديم حتى الآن

التعريف الصحيح بالجغرافى أسترابون هو أنه مؤلف كتاب (الجغرافيا)، وكل ما نعرفه عنه مستمد من هذا الكتاب الذى يعد أهم مؤلفاته، وهو الكتاب الوحيد الذى بقى لنا من هذه المؤلفات، ونستنتج منه أن أسترابون ولد حوالى عام ٦٤ ق.م فى مدينة أماسيا التى يفرد لها وصفا يدل على محبته لهذه المدينة. وينتمى أسترابون إلى أسرة ذات شأن، عمل بعض أفرادها فى خدمة ملوك بنطس وهم: مثراداتيس الخامس يوثرجيتيس ومثراداتيس السادس يوباتور، حيث كانوا قادة عسكريين وحكاما وكهنة للإلهة (بيلونا). وتنحدر أسرة أسترابون من فرعين مختلفين، يونانى وآسيوى، ولكن كان استرابون يونانيا محضا فى لغته وعاداته ولابد أن أسرته عاشت فى رغد من العيش مما مكنه من أن ينال قسطا وافرا من التعليم. وبعد أن أتم أسترابون مراحل التعليم الأول فى البيت أرسل إلى نيسا (بالقرب من مدينة تراليس فى إقليم كاريا)حيث درس النحو والأدب على يد أريستوديموس. وفى سنة ٤٤ ق. م (وهو فى العشرين من عمره) ذهب أسترابون الى روما لمتابعة دراسته العليا. وتتلمذ على أيدى تيرانيون الأميسوسى، وهو العالم النحوى والجغرافى (ولعل هذا العالم هو الذى أجاز لأسترابون الاشتغال بالجغرافيا). وكان من أساتذة استرابون كذلك كسينارخوس السليوكى فى إقليم قيليقية، وهو أحد الفلاسفة المشائين. وعرف أسترابون عددا من الرواقيين أمثال بوسيدنوس وبؤيثوس الصيداوى وأثينودوروس الطرسوسى فى قيليقية. ولذا صار أسترابون رواقيا

متحمسا للرواقية، وأدرك ضرورة الأساطير والطقوس والأسرار الدينية لعامة الناس ولكن ديانته هو كانت (الرواقية).

كان أسترابون رحالة عظيما، ولكن ليس بالقدر الذى يذكره هو عن نفسه. وسافر أسترابون من أرمينيا شرقا إلى إيطاليا غربا، وزار بلاد اليونان (على الأقل كورنثة) ومصر - حيث صعد فى النيل حتى أطرافه واستمد الكثير من معلوماته من الكتب، أى الكتب اليونانية، اذ أن ما كان من الكتب الجغرافية بلغات أخرى قليل فى هذا المجال.

ويشير أسترابون فى كتاب الجغرافيا إلى بعض مراحل حياته. فكان فى روما فى سنة ٤٤ ق.م كما كان بها فى سنوات تالية، ٣٥، ٣١، ٢٩، ٧ ق.م وأقام أسترابون فى مصر من سنة ٢٥ إلى سنة ٢٠ أو بعد ذلك، (إذ لا يمكنه فى غيرها أن يحصل على جميع ما احتاج إليه من مؤلفات). (عاش استرابون متمتعا بمجده فى عصر الإمبراطور أغسطس كله وبداية حكم تيبريوس (١٤ - ٣٧م) ومن المحتمل أنه أمضى أعوامه الأخيرة فى بلدته أماسيا، ومات فى سنة ٢١م. أو بعد ذلك.

وقد أعطتنا مؤلفات أسترابون فكرة عن مجموع العالم المعروف لدى الأقدمين. وكانت مؤلفاته وصفيه وتهتم كثيراً بالتاريخ على خلاف بطليموس الذى كان جغرافيا رياضيا اهتم خاصه بحساب درجات الطول والعرض.

* * *

أفلاطون

٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م
الفيلسوف الذى تذوق طعم الحياة

لقد آكثر الفلاسفة المتشائمون من وصف الحياة وذمها، فقالوا: إنها حياة شقاء أولها عناء، وآخرها فناء، حتى إنه قيل لأرسطو مرة: «صف لنا الدنيا!» فقال: «ما أصف من دار أولها قوت، وآخرها موت؟ كأن الحياة هى سجن العاقل وجنة الجاهل، وكأنها جسر نعبره ولا نعمره، أو كأنها مزرعة إبليس، والأشرار لها حراثون». فالمتشائم لا يعتقد أن المدينة السعيدة موجودة على الأرض، ولا يثق بصلاح الإنسان بل يزهد فى الحياة لكثرة شرورها، ويعرض عنها، ويرغب فى سعادة الآخرة. وعدالة ملكها القادر على فصل الخير عن الشر.

على أن طائفة من الفلاسفة المتفائلين تصوروا إمكان هذه المدينة السعيدة، فحلموا بها، وتخيلوها تحت تأثير الشرور والمفاسد التى شاهدوها فى زمانهم، فعدد أفلاطون فى جمهوريته شرائط الفردوس الأرضى، ونسج كثيرون من المفكرين على منواله، فألف الفارابى مدينته الفاضلة فى القرن العاشر للميلاد، وتصور توماس مور مدينته الخيالية فى القرن السادس عشر، وأتبعهم كامبانيللا[١] فى مدينة الشمس، باحثين كلهم عن شرائط الحياة المثلى، التى تقرب حياة الدول والأفراد من أسباب السعادة الحقيقية، فهم يعتقدون أن فى وسع الانسان أن يجد شيئا من السعادة فى هذه الدنيا، وأن فى وسع الدول أن تصلح شرائعها، وتبنى قوانينها على العدالة وتعطى كل ذى حق حقه.

(١) كامبانيللا: فيلسوف إيطالى (١٥٦٨ - ١٦٣٩م).

ومن أوائل المفكرين الذين تصدوا للبحث عن المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية كان أفلاطون.

والواقع أن أفلاطون من أنبغ نوابغ الفكر، وأول الفلاسفة، وأشهر الحكماء، وهو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة، فكانت الأكاديمية إحدى مدارس أربع أثرت أعظم الأثر فى الحضارة القديمة. وقد ظلت مدرسته قائمة فى أثينا - حيث أنشأها - تسعة قرون حتى أغلق الامبراطور جستنيان أبوابها وطرد فلاسفتها، ثم استمرت الأفلاطونية مؤثرة فى الفكر حتى الوفت الحاضر. وقد قيل إن الفلسفة قد بنيت على يديه واكتملت فى حياته، وذلك لأنه ضرب فى كل فن، وطرق كل باب، وبحث فى كل علم، وأرسى قواعد الفلسفة، وشيد قوائم العلم، وهو أول من كتب فى المدينة الفاضلة، وأول من حاول إصلاح المجتمع بتطبيق الفلسفة على السياسة، وأول من حلل النظم الاجتماعية وعرف طبائعها.

والاجماع منعقد على أن الحضارة الغربية ثمرة الأفلاطونية، فقد تسربت الى المسيحية وصبغتها بالمثالية، وثبتت قواعدها، وتعلمها جاليليو فوضع علم الفلك الحديث. وسار العلم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم على سنة التفسير الرياضى الذى ذهب إليه أفلاطون.

وكذلك تسربت الأفلاطونية إلى الحضارة الإسلامية، واتجهت فى أول أمرها وجهة أفلاطونية قوية تبدو فى الكندى وفى الفارابى صاحب الجمع بين رأيى الحكيمين، والذى كتب فى المدينة الفاضلة متأثرا بخطى صاحب الأكاديمية. واليوم تجد الأفلاطونية شائعة بين الناطقين بالضاد، فنحن نقرأ عن الحب الأفلاطونى، والبحث الأكاديمى، والتفكير المثالى، وغير ذلك مما يجرى على كل لسان، ويعرفه كل مثقف.

* * *

ولد أفلاطون فى شهر مايو سنة ٤٢٧ قبل الميلاد، وعاش حتى بلغ الثمانين وتوفى سنة ٣٤٧ ق.م، وكان مولده فى جزيرة قريبة من شاطىء أتيكا لا تبعد كثيرا عن أثينا تسمى «ايجيتا» حيث استقر فيها مؤقتا أبوه أرسطون.

ويزعم قدماء الرواة أن اسمه كان فى الأصل أرسطوقليس، ثم لقب بعد ذلك بلقب اشتهر به هو أفلاطون: أى عريض الجبهة، أو الأكتاف، أو الصدر، أو الفكر والأسلوب.

وهو من ناحية الوالدين شريف النسب، فأبوه أرسطون ينحدر من صلب قودرس آخر ملوك آثينا الأقدمين والذى حقق النصر لشعبه على الدوريين وهزمهم فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد، ويزعمون أنه من نسل الإله بوزيدون. أما أمه «فاريقطيونى» فهى من أسرة حكام أثينا ومشرعيها وتمت بالصلة الى صولون [١] المشهور، وكان أفلاطون يعتز بنسبه فسجله فى محاوراته، فعرفنا الشىء الكثير عن آبائه من هذا الطريق.

وقد عاش أفلاطون طيلة حياته مؤمنا بأن صلاح الدولة فى اقتران الفلسفة بالسياسة واتصاف الحاكم بالحكمة. وقد نشأ فى بيت من الحكام، وكان أجداده من الملوك والمشرعين، فلا غرابة أن ينسج على منوالهم، ولكنه أضاف إلى السياسة المأثورة شيئا جديدا هو الفلسفة. وينبغى أن يستقر فى أذهاننا من أول الأمر أن أفلاطون لم يكن من الفلاسفة الذين كانوا يعيشون فى برج عاجى، أو يفهمون الفلسفة على أنها البحث عن الحقائق الميتافيزيقية المجردة بصرف النظر عن صلتها بالحياة العملية.

وأهم شخصية آثرت فى تفكير أفلاطون هو سقراط، فقد كان من جملة أصحابه وأصدقائه لأن سقراط لم يكن صاحب مدرسة بالمعنى المفهوم من كلمة «مدرسة». وقد بين لنا أفلاطون مدى علاقته بأستاذة فقال: «حين كنت شابا توقعت كما يتوقع فى الغالب الشباب أن أشارك فى الحياة العامة للمدينة عندما أبلغ الرشد. وقد شهدت من التطورات فى الموقف السياسى السخط العام على الدستور القائم. ثم حدث تغيير أدى إلى استيلاء واحد وخمسين شخصا على السلطة، بقى عشرة منهم فى أثينا، وأحد عشر فى بيرايوس، ولم تقف سلطتهم على مباشرة الحال فى الأسواق فقط بل على العناية بجميع شئون المدينة كذلك. أما الثلاثون الآخرون فكانت لهم على الجميع سلطة مطلقة.وكان منهم بعض أقربائى

(١) صولون: مشرع أثينى ذاع صيته كشاعر حتى اصبح واحدا من حكماء الاغريق (٦٣٩ق.م - ٥٥٩ق.م).

وأصدقائى، فدعونى إلى الاشتراك معهم باعتبار أن هذه الأعمال من جملة ما يشتغل به أمثالى.. ولكنى تبينت بعد قليل أن مسلكهم جعل الدستور القديم بالنسبة إلى حكمهم ذهبيا، هذا إلى أنهم أرسلوا صديقى القديم سقراط الذى لا أتردد فى القول بأنه أعدل رجل فى عصره... للقبض على مواطن فى المدينة... فلما رأيت جميع هذه الأحداث وغيرها من الجرائم التى لا يمكن غض النظر عنها اشمأزت نفسى وانسحبت من شرور ذلك الزمان».

ويصور لنا أفلاطون الأحوال السياسية التى ساءت فى تلك الأيام وموقفه منها، واشمئزاز نفسه من مفاسدها، سواء من جهة الأحكام أم من جهة القوانين والتقاليد، ولم تكن الحال فى أثينا أحسن من غيرها من المدن فجميعها فى الفساد سواء، ولذلك فهو يقول: «لن يخلص الجنس البشرى من متاعبه إلا بأن يستولى المشتغلون اشتغالا حقيقيّاً بالفلسفة على السلطان السياسى أو بأن يصبح أصحاب السلطان فى المدن فلاسفة حقيقيين». وهذا هو المحور الذى دارت عليه فلسفة أفلاطون وهو العمود الفقرى فى مدينته الفاضلة، نعنى: الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم.

رحل أفلاطون بعد موت سقراط إلى أقليدس فى ميجارا ومكث عنده طويلا، وتواردت الروايات على أنه رحل بعد ذلك إلى مصر، فهذا شيشرون يذكر أنه زارها مما يدل على أن الرواية قديمة وأنها كانت متداولة فى الأكاديمية بعد موت صاحبها بمائتى عام. ويذكر سترابون أنه زار المنزل الذى كان يعيش فيه أفلاطون فى مصر، وذلك بعد ثلاثمائة عام من موته.. ومما يؤكد هذه الروايات، اهتمام أفلاطون بمصر بوجه خاص، ومعرفته الشىء الكثير عنها، ووصفه لأمور تدل على الرؤية والمعاينة، مثل آثارها وفنونها، ونظم التعليم السائدة فيها، والعلوم التى اشتهرت بها وبخاصة الرياضيات.

ثم رحل من مصر إلى تورينا فى شمال أفريقيا حيث لقى ثيودورس الرياضى الذى ذكره أفلاطون فى ثلاث من محاوراته، وتوجه بعد ذلك إلى تارنتوم فى جنوب إيطاليا، وكانت معقل الفيثاغوريين حيث لقى زعيم المدرسة الرياضى أرخيتاس الذى لعب دورا كبيرا فى تفكير أفلاطون، فرأى فيه الصورة العملية للحاكم الفيلسوف،

وأخذ عن مدرسته كل ما يخرج عن مسائل السلوك والأخلاق، وهذه المسائل هى خلود النفس والرياضيات بفروعها : العدد والهندسة والموسيقى. وهكذا أشبع أفلاطون رغبته فى الاتصال بالفيثاغوريين والارتشاف من مناهل علومهم.

وفى عام ٣٨٧ ق.م وقد بلغ أفلاطون الأربعين، أسس فى أثينا أول وأقدم جامعة فى العالم، وهى الأكاديمية التى ظل يشرف عليها عشرين عاما، وكان يبغى من تعليمه فى هذه الأكاديمية هدفا سياسيا هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية فى أنحاء بلاد اليونان.

ويذهب بلوتارخ أن أفلاطون لم يترك لنا مجرد مذهب نظرى فى السياسة بل تعدى ذلك حين أخرج سياسيين ومشرعين أمثال «ديون» من صقلية و «بتون» و«هيراقليد» فى تراقيا، و «أودوكس» وأرسطو اللذين شرعا قوانين لكنيدوس واسطاغيرا.

ولقد عنى الباحثون بمحاورات أفلاطون وصنفوها تصنيفات مختلفة. غير أن أهم هذه التصنيفات ما اعتمد على تطور لغة أفلاطون على مدى حياته الطويلة فرتبت إلى ثلاث مجاميع، مجموعة محاورات الشباب ويدور أكثرها حول حياة سقراط وآرائه، ومجموعة النضج ومجموعة الشيخوخة، وفيهما تطورات نظرياته عما كانت عليه فى عهد الصبا.

أما محاورة الجمهورية فتعد أهم ما كتب أفلاطون لما تضمنته من نظريات مختلفة ارتبطت لتكون نظرة عامة لحياة الانسان والمجتمع، وكان لها فى تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم ير مثله كتاب من كتب الفلسفة.

* * *

أقـليـدس

٣٢٣ - ٢٨٥ ق.م
أشهر العلماء وأبعدهم أثرا

قليلون جدا من الخالدين استطاعوا أن يعيشوا طويلا مثلما عاش عالم الهندسة الاغريقى أقليدس. فمن بين هؤلاء الخالدين أناس اشتهروا وهم أحياء مثل نابليون والإسكندر الأكبر ومارتن لوثر وغيرهم. بينما عاش أقليدس هذا مجهولا فى حياته، ولكن بعد مماته أصبح أشهر من الجميع وأبعدهم أثرا أى أطولهم عمرا!!

وعلى الرغم من شهرته هذه، فإن القليل جدا عن حياته هو الذى نعرفه. ونحن نعلم أنه عمل مدرسا فى الإسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ ق.م. ولسنا على يقين من تاريخ مولده أو مماته، ولا نعرف أيضا إن كان قد ولد فى أفريقيا أو فى أوروبا، ولا فى أى مدينة!

ولكن جاء فى كتابات العرب عنه أنه أقليدس بن نقراط بن زنارخوس، ولد بطبرة، اغريقى الجنسية، دمشقى الموطن، فيلسوف من العصور الماضية، عالم كبير فى الهندسة، كتب أعظم وأنفع كتاب أسماه «أصول الهندسة»، أو أسس الهندسة، وهو عمل لم يسبق إليه ما هو أعظم منه، ترسم خطاه واعترف بفضله كل من جاء بعده، ودأب القادمون من علماء الاغريق الرومان والعرب على شرح كتابه والتعليق عليه والاقتباس منه. وكان الفلاسفة الاغريق يضعون على أبواب مدارسهم العبارة الشهيرة: «لايدخلها من لم يتعلم أصول هندسة أقليدس».

ويقول ابن النديم فى كتابه الفهرست: «أقليدس صاحب جومطريا، ومعناه الهندسة، وهو أقليدس بن نوقطرس بن برنيقس، المظهر للهندسة، أقدم من أرشميدس وغيره، وهو من الفلاسفة الرياضيين».

وذكر ابن النديم فى كتابه أيضا أن لأقليدس كتبا أخرى غير كتاب «أصل الهندسة» منها: «كتاب الظاهرات، كتاب اختلاف المناظر، كتاب المعطيات، كتاب النغم، وكتاب القسمة، كتاب الفوائد، كتاب القانون، كتاب الثقل والخفة، كتاب التركيب، وكتاب التحليل».

وعلى الرغم من أنه قد ألف كل هذه الكتب، فإن كتابا واحدا له هو الذى حظى بكل الشهرة. أعنى كتابه «مبادئ الهندسة».

وقد ظن بعض كتاب العرب أن كتاب أصول الهندسة لم يكن من وضع أقليدس نفسه، وأن الكتاب كان لغيره، وكان عمل أقليدس هو تهذيب وتفسير ما احتواه الكتاب، إذ جاء فى كتاب «كشف الظنون» أنه ورد من شرح الأشكال للفاضل قاضى زاده الرومى، «أن بعض ملوك اليونان مال إلى تحصيل ذلك الكتاب «الأصول» فاستعصى عليه حله، فأخذ يتوسم أخبار الكتاب من كل وارد عليه، فأخبره بعضهم بأن فى بلدة صور رجلا مبرزا فى علمى الهندسة والحساب، يقال له أقليدس، فطلبه والتمس منه تهذيب الكتاب وترتيبه، فرتبه وهذبه، فاشتهر باسمه بحيث إذا قيل كتاب اقليدس يفهم منه هذا الكتاب دون غيره من الكتب المنسوبة إليه».

غير أنه من المؤكد أن كتاب الأصول كان من الأعمال الرئيسية لأقليدس، وأن كان قد ضمنه نظريات بعض من سبقوه من فلاسفة الاغريق الرياضيين وذلك بعد أن أكملها واستوفى براهينها.

وتجمع كتابات العرب على أن جماعة منهم نقلوا كتاب أقليدس من الاغريقية إلى العربية، ويبدو أن أول من ترجم الكتاب إلى العربية هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى ترجمه مرتين، وأسمى الأول الهارونى نسبة إلى هارون، وأسمى الثانى المأمونى نسبة الى المأمون، ويوجد الآن نسخة من المخطوط الثانى فى مكتبة ليدن،

من كل ذلك يتضح لنا جليا أن كثيرا من علماء المسلمين عنوا بالبحث فى كتاب أقليدس فى الهندسة، وشارك فى هذا القدامى والمحدثون منهم، وقد قاموا بترجمته ونشره وإصلاحه وتفسيره والتعليق عليه.

مما هو جدير بالذكر أيضا أن بعض الكتاب الغربيين يقولون: إن كتاب «الأصول» لأقليدس وصل إليهم عن طريق العرب. ومن ذلك تقول دائرة المعارف الأمريكية:

«وقد وصلتـإلينا أصول أقليدس من العرب عن طريق غير مباشر من الترجمات العديدة التى قاموا بها والتى لم تطبع منها إلا إحدى التراجم التى تمت فى القرن الثالث عشر، وكان طبعها فى روما سنة ١٥٩٤م. ويقال إن أول من قام بإعادة ترجمة الأصول من العربية إلى اليونانية هو Adelard of Bath فى القرن الثانى عشر. وقد كانت هذه الترجمة أساسا للطبعة اليونانية التى حررها Com-panus of novara (فينسيا – ١٤٨٢).

* * *

أكسينوفون

٤٣٠ - ٣٥٥ ق.م

المؤلف الفارس

ولد أكسينوفون بن جريلوس حوالى عام ٤٣٠ق.م وتوفى فى قورنثية حوالى ٣٥٥ق.م. وذكر ديوجينس لاثرفيوس عنه ما يأتى:« كان أكسنيوفون ممتازا من وجوه كثيرة أبرزها غرامه بالخيل والصيد وفن القتال، هذا إلى أنه كان رجلا صالحا يحب أن يقرب القرابين ويمارس الشعائر الدينية كما كان تلميذا وفيا لسقراط». وهذا الوصف القصير بارع وتكمله قصص تعيننا على معرفة أى طراز من الرجال كان. ومن هذه القصص ما يذكره ديوجينس مثلا عن مقابلته لسقراط:« يقال إن سقراط التقى به فى الشارع فسد عليه الطريق بعصاه وسأله أين يمكن أن يشترى الإنسان حاجات الحياة الضرورية. فأخبره بأمكنتها ثم سأله سقراط: وإذا أراد الإنسان أن يكون فاضلا فأين يذهب، فلم يحر جوابا.

وعندئذ قال سقراط: «اتبعنى لأرشدك». أليست هذه قصة بديعة؟ إنها توحى بأنه كان لدى سقراط من نفاذ البصيرة ما يجعله يعرف الرجل الصالح حين يراه. وتؤثر فينا هذه القصة تأثيرا عميقا.

كان أكسينوفون ثريا يستطيع أن يشبع ذوقه فى الركوب والصيد. ولعله اشتغل فى فرقة الفرسان بأثينا. ولكنه لم يكن ذا حرفة معينة، لذا استطاع سنة٤٠١ق.م أن ينضم إلى جيش من مرتزقة الاغريق فى حركة قورش الثانى ضد أخيه الملك ارتخشارشا، وغلب قورش وقتل فى معوكة كوناكسا واضطر الجيش الاغريقى أن يتلمس طريقه إلى بلاده ناجيا بنفسه. وانتخب أكسينوفون رئيسا له بعد مصرع قادته، ونجح فى قيادة«عشرة آلاف» إلى طرابزون. وفى أوائل عام ٣٩٩ق.م سلم ما

بقى من الجيش إلى قائد اسبرطى كان موجودا فى ذلك الوقت بآسيا. ونفى حول ذلك الوقت من مدينته ثم استمر فى خدمة أسبرطة وأصبح صديقا معجبا بأجسلاوس(ملك اسبرطة)، وكان من أحسن قواد الاسبرطيين وأشرفهم، وحارب أكسينوفون الفرس تحت قيادته وعاد معه الى اليونان، واشترك (فى الفرقة السبرطية) فى معركة كورونيا. وتزوج أثناء ذلك وبلغ أولاده عام ٣٩٤ق.م من العمر ما يسمح لهم بتلقى العلم فى اسبرطة. ووهبه الاسبرطيون فيما بعد ضيعة كبيرة فى سكيلوس على مقربة من أوليمبيا، وفيها عاش عيشة ملاك الأرض يدير أملاكه ويركب الخيل ويصطاد ويكتب. وقد ألف معظم كتبه خلال العشرين سنة التى أقامها فى سكيلوس. ومن المؤكد، أنه كتب أفضلها هناك، وتعنى رسالته فى زحف الجيوش أو حملة قورش وذلك بين عامى٣٧٩ - ٣٧١ق.م ثم أدت تقلبات الحرب إلى فقدانه ضيعته واضطراره إلى بدء حياة جديدة فى قورنثية. وفى عام ٣٦٩ ق.م وقع الأثينيون صلحا مع اسبرطة وسمحوا لأكسينوفون بالعودة إلى موطنه. وقد خدم أولاده بين حين وآخر فى جيش فرسان أثينا.

لم نذكر جميع أعمال أكسينوفون الحربية، إلا أنه من الواضح أنه اكتسب كثيرا من التجارب كفارس وجندى، وهو لم يكتسب ذلك فى تقهقره المشهور حين كان شابا من كوناكسا إلى البحر الأسود فحسب، بل باشتغاله أيضا فى خدمة أعداء بلده. وكان من أشد المعجبين بالتعليم فى اسبرطة وما فيها من نظام، وكتب بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ ق.م رسالة فى مدحه.

مؤلفات اكسينوفون

مؤلفات أكسينوفون متعددة وغزيرة. وباستثناء كتاب منها أو كتابين لا يمكن أن يكون قد ألفها قبل نشاطه الحربى(٤٠١ - ٣٩٤ ق.م) وهى لهذا تقع ولا شك فى القرن الرابع قبل الميلاد. وقد ألف كثيرا منها فى سكيلوس(٣٩٤ -٣٧١ ق.م)، ولكنه ظل يكتب حتى الأيام الأخيرة من حياته، وسنستعرض ثبت مؤلفاته.

ونبدأ بمجموعة من ثلاثة كتب تتعلق بالصيد والفروسية، إذ من المفروض أن أولها كتبه فى شبابه قبل خروجه من أثينا الى آسيا.

١ - فى الصيد:

٢ - فى ركوب الخيل:

٣ - فى الفروسية:

أما أشهر مؤلفات أكسينوفون فهما الكتابان الخاصان بالأمورالآسيوية (٤، ٥).

٤ - زحف الجيوش أو(حملة قورش) وهو عرض لأعظم مغامرة فى حياته، وتصوير لاشتراك عشرة آلاف جندى من المرتزقة فى ثورة قورش الأصغر وانسحابهم إلى طرابزون. ويعد أول تأريخ من نوعه. ولا يزال يعد من أهم المذكرات الحربية.

ويعد كتاب«زحف الجيوش» أو حملة قورش قطعة أدبية رائعة تكفى لتخليد مؤلفها.

٥ - تربية قورش: عبارة عن سيرة قورش الأكبر مؤلفة تأليفا قصصيا. ونجد فيه أن نظم الفرس وعاداتهم - المفروض أنها موضوع الكتاب - أقرب الى أن تكون مقالا لها بقلم شخص كان معجباً بالاسبراطيين، بقدر ما كان يحتقر الفوضى الأتيكية.

إنه كتاب من أنفس كتب العالم فى الأدب، ويمكن أن نسميه النموذج الأول لطائفة من الكتب ظفرت ببعض الذيوع فى العصر الوسيط، مثل«مبادئ الحكم» وكتب تعليم أبناء الملوك وتعليم حكام المستقبل واجباتهم وحقوقهم.

٦ - المذاكرات: وهى دفاع عن سقراط وذكريات عن محاوراته.

٧ - الدفاع: وهذه أيضا تكمل العرض الذى نشرة أفلاطون بهذا العنوان نفسه.

٨ - المأدبة: وهى تكرار آخر لمحاورة أفلاطون.

٩ - فى تدبير المنزل: وهى محاورة بين سقراط وكريثوبولس .

أما مؤلف أكسينوفون الوحيد الذى يضرب فى صميم التاريخ فهو «هيلينيكا».

١٠ - هيلينيكا: ويقع فى جزءين متميزين : الأول يتابع تاريخ ثيوسيديدس من ٤١١ ق.م الى نهاية الحرب البيلوبونيزية ٤٠٤ ق.م، والجزء الثانى تتمة له حتى

معركة مانتنيا (٣٦٢ ق.م)، ولكن بطريقة أخرى.

وتكون مؤلفات أكسينوفون السياسية مجموعة أخيرة (فى غير ما ترتيب تاريخى، ويصعب بيان التسلسل التاريخى الدقيق لكتبه).

١١ -اجسلاوس: وهو سيرة ملك اسبرطة الذى خدمه أكسينوفون وأعجب به، وقد ألف بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ بمدة قصيرة.

١٢ - سياسة اللقدمونيين:

١٣- هيرون: وهى محاورة وهمية بين هيرون الأكبر وبين الشاعر الغنائى سيمونيدس القوسى وتعالج موضوعا مزدوجا: أيكون الطاغية أسعد من الشعب الذى يحكمه؟ وكيف يظفر باحترامه ومحبته؟ .

١٤- فى الوسائل: ويشمل اقتراحات عملية لتحسين المالية الأثينية.

* * *

أثر أكسينوفون

كان أثر أكسينوفون بالغ العظم بسبب أهدافه التعليمية من جهة، وحكاياته المشوقة التى رواها وأحسن روايتها من جهة ثانية، وانسانيته ونقاء أسلوبه من جهة ثالثة. كان سمحا، وكان نثره من السهولة والحلاوة بحيث جعله يلقب بنحلة أتيكا.

وكان آثر أكسينوفون عظيما فى الزمن القديم. ولقد قيل إن كتبه التى ألفها عن آسيا وبخاصة «زحف الجيوش»، هى التى وضحت السهولة النسبية فى معاملة الآسيويين، وأثارت فى ملوك مقدونيا الطمع فى فتح آسيا. وأكبر الظن أن الإسكندر الشاب درس هذه الكتب، ومن ناحية أخرى كان وصف أكسينوفون لملكة آسيوية مثالية تصويرا ساحرا للممالك الهلينستية. وكان سادة الرومان يدرسون الصيد وتدبير المنزل والأخلاق وصناعة الحكم فى كتب أكسينوفون، وكانوا يجدون فيها حلولا واضحة فى لغة سهلة مناسبة لمعظم مشاكلهم.

أوستن.جين

١٧٧٥ - ١٨١٧م
من أعظم كتاب الرواية الإنجليزية

إن تفصايل حياة جين أوستن يمكن أن تحكى باختصار شديد. فعائلة أوستن كانت من العائلات العريقة، وهى كغيرها من العائلات العظيمة فى إنجلترا قامت ثروتها على تجارة الصوف، تلك التى كانت تعد وقتا ما الصناعة الرئيسية فى البلد. وما إن تجمع لديهم المال، حى اشتروا أرضا كغيرهم من ذوى الشأن. وبمضى الوقت أصبحوا فى مصاف أعيان البلد. ولدت جين عام ١٧٧٥ فى ستيفنتون، وهى قرية من قرى هامشير حيث كان والدها جورج أوستن قسيسا. وكانت أصغر أبنائه السبعة، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها اعتزل والدها الخدمة، وانتقل الى بات مع زوجته وابنته كساندرا وجين، أما أولاده الذكور فقد سبق أن تفرقوا ليشق كل منهم طريقة فى الحياة. لقد توفى عام ١٨٠٥ واستقرت أرملته وابنتاه فى ساوثمبتون. ولم يمض على ذلك وقت طويل حى ورث أحد أشقاء جين أملاكا فى كنت وهامشير. وعرض على أمه أن تعيش فى إى من المقاطعتين. واختارت أن ترحل إلى تشوتون فى هامشير. وكان ذلك فى عام ١٨٠٩ وهناك عاشت جين إلى أن اضطرها مرضها إلى الذهاب إلى ونشستر كى تعرض نفسها على أطباء أفضل من أطباء القرية وهناك ماتت عام ١٨١٧، ودفنت فى الكاتدرائية.

وقد قيل إنه بالرغم من أنها عاصرت بعض الأحداث التى تعد من أكثر الأحداث إثارة فى تاريخ العالم كالثورة الفرنسية وعهد الإرهاب، وقيام نابليون وسقوطه، إلا أنها لم تشر إلى شىء من هذا فى رواياتها. ومن هنا كانوا يلومونها لانفصالها الذى لا مبرر له. على أنه ينبغى أن نذكر أن عصرها كان ينادى بأنه

لا يصح للنساء أن يشغلن أنفسهن بالسياسة، فقد كان الخوض فيها شأن الرجال وحدهم. ولم تكن النساء يقرأن حتى الجرائد، غير أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض بأنها لم تنفعل بهذه الأحداث لأنها لم تكتب عنها. كانت مغرمة بأسرتها، وكان اثنان من إخوتها فى البحرية. وكثيرا ما كانا يتعرضان للخطر وترينا خطاباتها أنهما كانا يشغلان كثيرا من تفكيرها. ولكن ألم تثبت أنها ذات إدراك حين ابتعدت عن الكتابة فى هذه المسائل لقد كانت متواضعة لدرجة أنها لم تكن لتظن أن رواياتها ستقرأ بعد موتها بزمن طويل . أما إذا كان هذا هو هدفها فلم تكن لتستطيع أن تتصرف بطريقة أعقل من الطريقة التى تصرفت بها جين، عندما تجنبت الخوض فى هذه الأمور التى تعد من وجهة النظر الأدبية ذات قيمة عابرة. مثال هذا أن الروايات التى كتبت فى السنوات القليلة الماضية عن الحرب العظمى قد ماتت. كانت بنت ساعتها تماما كالجرائد التى كانت تخبرنا يوما بيوم بما يحدث.

ولا يستطيع أحد أن يصف جين أوستن على أنها متعالية ولكن من الواضح أنها كانت امرأة مثقفة. فقد وضع. و. تشابان، وهوالثقة الكبير فى رواياتها، قائمة بالكتب التى يقال إنها قرأتها، وهى قائمة رهيبة، وعرفت شكسبير جيدا ومن بين المحدثين قرأت لسكوت وبايرون، ولكن يبدو أن شاعرها الأثير كان كوبر. وليس من الصعب أن ندرك لماذا كان شعره المتزن المتألق يجتذبها، كذلك قرأت دكتور جونسون وبوزويل، والكثير من كتب التاريخ، وعددا ليس بالقليل من المواعظ.

وهذا ما يقودنى إلى أهم ما يتعلق بها بطبيعة الحال، وأعنى بذلك الكتب التى كتبتها. لقد بدأت الكتابة فى سن مبكرة جدا.

وكانت الرواية أحد أشكال الفن التى لا تلقى تقديرا كبيرا، بل إن جين أوستن نفسها قد صدمت عندما علمت أن «سير ولتر سكوت» وهو الشاعر يكتب روايات. كانت تحرص على ألا يكتشف حقيقة مهنتها من الخدم أو الزوار أو أى شخص آخر خارج دائرة الأسرة. أما أخوها الأكبر جيمس فإنه لم يخبر ابنه الذى كان تلميذا فى المدرسة، أن الكتب التى كان يقرأها بمتعة إنما هى من تأليف عمته جين. وكتب أخوها هنرى فى مذكراته: «لم تكن الشهرة لتغريها. لو كانت قد عاشت، بأن تضع اسمها على أى إنتاج بقلمها». ولذلك نرى أن أول كتاب نشر لها «الحس

والحساسية» قد وصف فى صفحة العنوان على أنه بقلم سيدة ما».

ولم تكن أول رواية تؤلفها. ذلك أن أول رواية كان اسمها «انطباعات أولى» وقد كتب أخوها جورج أوستن لأحد الناشرين يعرض عليه نشرها على حساب المؤلفة أو بأى طريقة أخرى ووصفها بأنها «أصول لرواية تتكون من ثلاثة أجزاء تكاد تبلغ فى طولها رواية» مس بورنى - إيفلينان». وقد رفض العرض برجوع البريد. وكانت جين قد بدأت فى كتابة «انطباعات أولى» خلال شتاء ١٧٩٦ وانتهت منها فى أغسطس عام ١٧٩٧. ويبدو أنها تشبه إلى حد كبير نفس الكتاب الذى صدر بعد ستة عشر عاما بعنوان «الكبرياء والهوى». وسرعان ما أتبعته بكتابة روايتى «الحس والحساسية» و«دير نورثنجر» ولكن الحظ لم يحالفها فيها. غير أن «مستر رتشارد كروسى» اشترى - بعد خمس سنوات ــ الرواية الثانية، وكان اسمها فى ذلك الحين «سوزان» لقاء عشرة جنيهات، ولم ينشرها أبدا. وأخيرا باعها بنفس الثمن الذى اشتراها به. ولما كانت روايات مس أوستن قد نشرت بدون ذكر الاسم فلم تكن لديه أدنى فكرة بأن الكتاب الذى باعه بثمن بخس كان بقلم المؤلف الناجح الشهير لرواية «الكبرياء والهوى».

ويبدو أنها لم تكتب سوى قطعة صغيرة بعنوان «آل وطسن» بين عام ١٧٩٨ (الذى انتهت فيه من تأليف دير نورثنجر) وعام ١٨٠٩. وهى فترة انتظار طويلة بالنسبة لكاتب لديه مواهب مثل جين أوستن، وهناك من يقول إن انقطاعها عن الكتابة كان بسبب قصة حب شغلتها، عن أى اهتمامات أخرى.

مهما يكن الأمر فقد حدث عام ١٨٠٩، عندما استقرت فى تشوتون الهادئة مع أمها وأختها أن شرعت فى مراجعة أصول رواياتها القديمة، وأخيرا فى عام ١٨١١ ظهرت رواية «الحس والحساسية». ومنذ ذلك الحين لم يكن شاذا، أن تكتب امرأة. وفى محاضرة عن جين أوستن ألقاها البروفسور «سبورجون» فى الجمعية الملكية للأدب، ردد ما جاء فى مقدمة «خطابات أصلية من الهند» لإليزافاى. فقد كان هناك من استحث هذه السيدة على نشر هذه الخطابات عام ١٧٢٨، ولكن الرأى العام كان جد كاره «للكتابة النسائية» لدرجة أنها عدلت عن الفكرة.

ولكنها كتبت عام ١٨١٦ تقول: «منذ ذلك الحين وثمة تغير كبير قد طرأ بالتدريج على مشاعر الجماهير وتطور هذه المشاعر. واليوم لم يعد لدينا فقط ــ كما كان الحال فى الماضى ــ عدد النساء اللائى يشرفن جنسهن بوصفهن أديبات، وإنما هناك أيضا كثيرات من النساء غير المتظاهرات اللائى لاتهمهن الأخطار الهائلة التى كانت تصاحب «الرحلة» فى يوم من الأيام، وأكثر من هذا أنهن يغامرن ويدفعن بمراكبهن الصغيرة فوق المحيط الرحب الذى يقدمن فيه المتعة أوالفائدة لجمهرة القراء».

ونشرت الكبرياء والهوى عام ١٨١٣ وباعت جين أوستن حقوق النشر لقاء عشرة جنيهات. وإلى جانب الروايات الثلاث التى ذكرتها، كتبت جين ثلاث روايات أخرى هى « منتزه مانسفيلد» «وإما»، «والإغراء». وعلى هذه الكتب القليلة قامت شهرتها. لقد كان عليها ان تنتظر طويلا قبل أن ينشر لها كتاب، ولكن ما إن تحقق لها هذا، حتى أصبحت مواهبها الساحرة معترفا بها. ومنذ ذلك الحين اتفقت معظم الشخصيات البارزة على امتداحها. ويكفى أن أورد هنا ما قاله سير ولتر سكوت فى تلك السطور التى تتميز بسخائها: «إن هذه السيدة الشابة لديها موهبة فى وصف دروب الحياة العادية وما تزخر به من مشاعر وشخصيات، وهذا أروع ما صادفنى، أن الطنطنة شىء أستطيع أن أمارسه مثلما يستطيع أى شخص آخر، أما اللمسة الرقيقة التى تضفى أهمية على الأشياء والشخصيات العادية بفضل صدق الوصف والمشاعر فشىء لا أستطيعه».

* * *

أونيل، يوچين

(١٨٨٨ - ١٩٥٣م)
من أبرز أركان المذهب التعبيرى فى المسرح

يُعد يوجين أونيل رائد المسرح الأمريكى بصفة عامة. فهو أول من أرسى تقاليده، وأول من كتب مسرحيات أمريكية ناضجة بمعنى الكلمة. بل إن تاريخ المسرح الأمريكى الحقيقى يبدأ بأونيل برغم أن أول مسرحية أمريكية كتبها امريكى هى مسرحية «جوستافوس فاسا» لبينجامين كولمان عام ١٦٩٠. أى أن البدايات المبكرة للمسرح الأمريكى تعود إلى أواخر القرن السابع عشر. ولكنها كانت محاولات بدائية للغاية ولا تصلح لكى تكون بداية لمسرح يفرض نفسه على التراث المسرحى العالمى الموغل فى القدم منذ الأغريق.

وعلى الرغم من هذا العدد غير القليل لكتاب المسرح الأمريكى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان المسرح فى نظر الكثيرين منهم مجرد حرفة وتجارة، وأصبح الإيراد هو الهدف النهائى لكل من الكاتب والمخرج وصاحب المسرح على حد سواء، ولم تقتصر الناحية التجارية على المسرحيات الراقصة والهزليات الموسيقية، بل تعدتها إلى الملودراما العنيفة الصاخبة التى تثير فى نفس المتفرج كل الأحاسيس البدائية ولذلك يعد القرن العشرين البداية الحقيقية للمسرح الجاد فنيا وفكريا فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان من الطبيعى أن يكون هذا القرن إرهاصا بظهور يوجيل أونيل، لأن الكاتب المسرحى العظيم لا يأتى من فراغ وقد تمثلت هذه الإرهاصات فى المسرحيات التى تبلور قضايا المجتمع الأمريكى كما نجد فى مسرحية وليام فون مودى «الانقسام الكبير» التى جسد فيها الانقسام بين شطرى الأمة الأمريكية، شرقا وغربا، وضرورة إدماج هذين الشطرين فى أمة

واحدة متجانسة من حيث العادات والتقاليد والأفكار والأهداف.

ومع ازدياد عدد المسارح فى أمريكا لم تتمكن المسرحية الأمريكية من سد حاجتها، فاعتمد معظم المخرجين على المسرحيات الواردة من أوروبا مما ساعد على تنشيط حركة الترجمة من الفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات الأخرى.

وكان هذا بمثابة رافد جديد للمسرح الأمريكى الوليد منحه الكثير من القوة والجدة والخصوبة. ولذلك كانت التجارب الأمريكية الأصلية فى بداية القرن العشرين مع التحام المسرح الأمريكى مع المسرح الأوروبى من خلال الترجمات والفرق الوافدة، خلفية خصبة ترعرع من خلالها يوجين أونيل الذى يعد الرائد الحقيقى للمسرح الأمريكى.

* * *

ولد يوجين أونيل فى نيويورك ابنا لممثل أمريكى يدعى جيمس أونيل. وتلقى تعليمه الأولى فى مدارس الروم الكاثوليك، ولكنه لم يكمل تعليمه الجامعى الذى بدأه فى كل من جامعتى برنستون وهارفارد بسبب اضطراره الى اصطحاب أبيه مع فرقته المسرحية الجوالة فى أنحاء الولايات المتحدة، وبسبب عدم إقباله على التعليم المنتظر.

ولذلك عهد إليه أبوه ببعض الأدوار الصغيرة مع بعض الأعمال الإدارية فى فرقته فتشرب جو المسرح منذ نعومة أظافره. وكان قد اشتغل من قبل بحارا لمدة عام من ١٩١٠ الى ١٩١١. وكانت الحياة العريضة الغريبة التى عاشها أونيل هى المدرسة التى تعلم فيها الكتابة للمسرح.

هكذا أدرك أونيل طريقه ككاتب مسرحى. كانت الخبرات والمغامرات والتقلبات التى مر بها تمثل زادا يستطيع أن يستمد منه المادة الخام لعديد من المسرحيات. ولكى يصقل موهبته التى اكتشفها بكتابته لمسرحية «العنكبوت»، التحق بالمدرسة التجريبية التى أنشأها ج.ب. بيكر بجامعة هارفارد وعرفت باسم «مدرسة ٤٧» وبعد ذلك انضم الى فرقة «ممثل بروفنستون» التى أخرجت له معظم مسرحياته الأولى القصيرة على مسارح نيويورك. وهى المسرحيات التى لم تنل رضا أونيل نفسه عندما رسخت قدمه فى المسرح لدرجة أن أحرق معظمها ولم يتبق سوى

بعض منها مثل: «العطش» و «التهور» و «التحذيرات» و«الضباب».

وعندما كتب أونيل أولى مسرحياته «العنكبوت» قال إنه كتبها وأطياف أساتذته الذين قرأ لهم وتأثر بهم تداعب خياله. ومن الواضح ان الكاتب المسرحى السويدى أوجست سترندبرج كان اول وأهم الأساتذة الذين أثروا فى أونيل الذى يصفه بأنه الكاتب الذى يبحث فى إصرار لا يعرف الكلل عما وراء الحياة. ويشبه أونيل نفسه بسترندبرج لأنه يسير على نفس خطاه فى البحث عن معنى يؤمن به وينتمى إليه، وفى بحثه هذا أدرك أنه لن يؤمن إلا بالإنسانية ولن ينتمى إلا إليها. ويتضح هذا التأثير فى مسرحية «قبل الإفطار» التى قلد أونيل فيها سترندبرج فى مسرحيته «الأقوى» عندما جعل منها مجرد «مونودراما» يمثلها ممثل واحد فقط من أولها إلى آخرها سواء كان يحدث نفسه أو يحدث المتفرجين.

وفى عام ١٩٢٠ ظهرت لأونيل أولى مسرحياته الطويلة والناضجة بعنوان «وراء الأفق» التى حققت نجاحا باهرا وجلبت له جائزة بوليتزر.

وإن كان أونيل قد التزم بالواقعية الطبيعية إلى حد ما فى مسرحية «وراء الأفق» فإنه كتب فى نفس العام ١٩٢٠ مسرحية «الإمبراطور جونز» التى جنح فيها إلى الاتجاه الخيالى التعبيرى الذى يتجاوز المذهب الطبيعى المحدود بالوصف الفوتوغرافى الدقيق لخلجات النفس البشرية والخلفية الاجتماعية التى تتفاعل معها.

ويبدو أن عام١٩٢٠ كان خصبا فى حياة أونيل لدرجة أنه كتب فيه مسرحيات «وراء الأفق» و «الإمبراطور جونز» و «قضية من نوع آخر» و «التعويذة» و «الذهب» و«تريس كريستوفرسون» وفى المسرحيات الأخيرة يبدو أثر سترندبرج واضحا أيضا وخصوصا مسرحية «قضية من نوع آخر» التى تعد دراسة تعبيرية للعوامل النفسية التى تتحكم فى السلوك الجنسى عند الإنسان.. وفيها عالج أونيل ظاهرة المتطهرين المتعصبين الذين يتطرفون فى إيمانهم الأعمى بالطهارة والنقاء إلى أن يقعوا فى نهاية الأمر فى المحظور الذى كانوا يتجنبونه طيلة حياتهم ولذلك فالمسرحية زاخرة بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة من هؤلاء الذين ينتهون إلى الندم وخيبة الأمل بسبب فقدانهم القدرة فى التقيم الموضوعى لحياتهم.

فى عام ١٩٢١ ظهرت لأونيل مسرحيتان «انا كريستى» و «القش» .

فى عام١٩٢٢ ظهرت مسرحية «القرد الكثيف الشعر» التى جسد فيها أونيل غربة الإنسان فى هذا الكون وحاجته المستمرة إلى الانتماء .

فى عام ١٩٢٥ كتب أونيل مسرحية «الإله الكبير» وفيها يثبت مقدرته.

ويضيق بنا المقام للتعرض لكل مسرحيات أونيل العديدة. ولكن يجدر بنا أن نذكر منها ثلاثية «الحداد يليق بالكترا» ١٩٣١. ومسرحية «بائع الثلج يأتى» ١٩٤٦ التى استعاد بها أونيل مجده فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. ومسرحية «القمر لابن السفاح »١٩٥٢. ومسرحية «رحلة يوم طويل فى جنح الليل» التى عرضت بعد موته فى عام ١٩٥٦ استمد مضمونها من حياته العائلية.

وكانت غزارة إنتاج أونيل سببا فى حيرة النقاد واختلافهم فى حكمهم عليه. فيقول ايريك بنتلى انه نجح فى استخدام الواقعية والميلودراما بينما فشل فى بلوغ روح المأساة. بينما يعتقد جون جسنر ان أونيل نجح فى بلوغ هذه الروح فى «الحداد يليق بالكترا». أما مارتن لام فيعترف أنه لا جدال فى الانجازات التى أضافها أونيل إلى التراث الأمريكى. وكل هذه الأقوال تدل على أن النقاد لم يستطيعوا تجاهل المكانة الضخمة التى حازها أونيل فى التراث المسرحى العالمى.

* * *

أينشتاين

١٨٧٩ - ١٩٥٥م

إنسان فوق مستوى البشر

فى صمت وهدوء أحدث أينشتاين ثورة هائلة فى العلم.. ثورة أذهلت العالم، وقلبت فى العقل البشرى مفاهيم الزمان والمكان والحركة والمادة والطاقة وغيرها.. بل إنها امتدت إلى إعادة تشكيل نظرتنا إلى المستقبل.

ولا أظن أن أحدا استطاع ان يحدث أثرا فى العلم أعظم مما فعل ألبرت أينشتاين.. لقد أحدث ثورة عميقة فى مجال علم الفيزياء سوف تمتد آثارها بغير شك إلى أجيال أخرى قادمة.. وهى بغير تجاوز حدود الموضوعية والأمانة تعد ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مفاهيم ومدلولات.

فقد كان لما جاء به أينشتاين الفضل الأول فى تلك الطفرة العلمية التكنولوجية التى شهدها العالم فى الربع الأخير من القرن العشرين. ولا أعتقد أننى فى حاجة الى الحديث عن آثار هذه الطفرة العلمية التكنولوجية فى مختلف مجالات الحياة. فنحن نعيش وسط ما نحققه من معجزات علمية تتدفق كطوفان هادر من حولنا كل يوم، ومن ثم فإن ما أحدثه أينشتاين فى تاريخ البشرية هو ثورة بحق وبصدق وبغير ادعاء.

ولقد وضعه برنارد شو مع عدد قليل من عظماء التاريخ فى مكانة سامية، ووصفهم بقوله: «إنهم بناة التاريخ والعالم».

وقد يملؤنا العجب إذا علمنا أنه قد كتب عن أينشتاين منذ نشأته الأولى سنة ١٩٠٥ وحتى سنة ١٩٥٢ وقبل وفاته بثلاث سنوات ٤٣٠٠ كتاب كامل ولا يدخل فى

هذا العدد الكتب التى وردت فيها أعماله العلمية وهى تعد بعشرات الآلاف!!

وإذا أردنا أن نحدد ملامح العبقرية عند أينشتاين، نجد أنها مؤلفة من عناصر مختلفة ومتناقضة:

ثورة على التقاليد.. قدرة على النقد الصائب ونقد لنفسه ونظرياته.. حب الهدم والعناية بالبناء.. نظرة شاملة للأمور تتناول جميع نواحى الموضوع وتسعى إلى تفسير عام شامل على أساس علمى واحد.. خيال خصب وقدرة مذهلة على التركيز.

وساعد على ذلك الظروف التى نشأ فيها أينشتاين. فقد ولد فى يوم ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ فى مدينة أولم بألمانيا - وهى نفس المدينة التى ولد فيها القائد الألمانى الأسطورى روميل - وكانت طفولته لا تنبئ بأدنى قدر من العبقرية؛ فقد بدا طفلا متخلفا بدرجة هائلة، وظل عاجزا عن الكلام حتى بلغ الثالثة من عمره!

وفى سنوات عمره الأولى لم تكن هناك أية ملامح نبوغ تبدو عليه. كان مشاغبا يثير المتاعب لمدرسيه بكثرة أسئلته وإلى الحد الذى قال له مدرس يوما ما: «أنت لن تفلح مطلقا فى حياتك.. ولن تكون شيئا على الإطلاق».

ولكن المدرسين لم يعرفوا أينشتاين جيدا.

وهو فى الخامسة من عمره عثر على بوصلة صغيرة.. أذهله هذا الجهاز الصغير - ما القوة التى تجعل الإبرة تأخذ هذا الاتجاه دائما. كان متدينا إلى درجة كبيرة خلال سنوات عمره الأولى.. فى السادسة عشرة من عمره استنبط أول نظرية جديدة.. ليس فى المعمل ولكن فى عقله.. دارت النظرية حول انتقال الضوء.. فى هذه الفترة كانت العقول الضخمة تؤمن بأن الضوء مادة.. تنتقل كما تنتقل المواد الأخرى.. ولكن أينشتاين كان أول من تصور أن انتقال الضوء مختلف وأنه ينتقل فى شكل موجات..

كان والده قد افتتح محلا تجاريا فى ألمانيا ولكن تجارته فشلت.. فقرر الأب أن يزاول نشاطا تجاريا آخر فى إيطاليا..

وجد أينشتاين نفسه مضطرا إلى ترك المدرسة وإلى ترك جنسيته الألمانية

أيضا.. كان طالبا فى مدارس ميونيخ، ثم قرر الالتحاق بمعهد التكنولوجيا فى زيوريخ.

ولكن ثورته الداخلية كانت مستمرة. لم يكن يحضر الدروس ولا يستمع إلى المحاضرات. كان يقرأ فقط ما يمتعه وما يستهويه من المواد العلمية. كان مصرا على البقاء فى المعمل بدلا من الذهاب إلى قاعة المحاضرات. وصف مدرس الرياضيات هرمان منيوسكى.. الطالب أينشتاين خلال هذه الفترة بأنه كالكلب الكسول! فى نهاية العام.. طلب أينشتاين من زميل له أن يقدم له كراسة المحاضرات.. بهذه الكراسة وبقراءة ما فيها بسرعة وعلى عجل نجح أينشتاين فى امتحان نهاية العام. وتخرج فى المعهد سنة ١٩٠٠، ولكن درجاته كانت ضعيفة لهذا لم يحصل على منصب فى المعهد ولم يصبح بين هيئة البحث أو التدريس فقرر أن يكسب عيشه من خلال حل المسائل الرياضية كباحث فلكى، فى سن الثالثة والعشرين عثر أينشتاين على وظيفة ممتحن فى هيئة تراخيص فى مدينة برن بسويسرا. كان اسم الوظيفة هو «خبير تكنولوجى» من الدرجة الثالثة..

ويقول أينشتاين:

«وقد أنقذت هذه الوظيفة حياتى.. ذلك لأنه من خلالها وجدت المأكل والمسكن – وعرفت زميلتى – كان اسمها ميلكا ماريك.. تزوجتها..» ومن خلال فحصه لبراءات الاختراع الجديدة عرف الكثير واستطاع أن يفرق بسهولة بين ما هو حقيقى وما هو زائف!

ورفعه هذا العمل بالذات إلى التفكير فى علوم الطبيعة «الفيزياء».. كان لديه الكثير ليفكر فيه. نظريات نيوتن للجاذبية وقد دخلت القرن الثانى من عمرها. لم تكن هذه النظريات كافية عند أينشتاين لتفسير العديد من الظواهر.

وفى القرن التاسع عشر – كانت نظريات نيوتن تعانى من فجوات حادة.. مثلا.. يقول نيوتن: إن الضوء جزئيات. أو موج من الجزئيات.. ولكن التجارب أكدت أن الضوء ليس جزئيات ولكنه موجات..

الكون حول الأرض فراغ. لكى ينتقل الضوء من الشمس للأرض لابد من شىء ينتقل من خلاله.. لابد أن هناك شيئا ما ينتقل لها.. لهذا سماه العلماء: الأثير..! والموجات هى موجات الأثير..!

ولكن لابد لصحة النظرية من إثبات وجود هذا الشىء الذى سموه الأثير.. لابد من العثور عليه.. لابد من الإمساك به.. فحص خواصه..! لابد من معرفة مصدره وسببه..!

قال عالم اسمه ألبرت هيكلسون وزميل له اسمه ادوارد مورلى morley إنهما أجريا تجربة مهمة عام ١٨٨٧ تأكدا من خلالها من وجود الأثير.. قال: إن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تصل الى ٣٠ كيلو مترا فى الثانية.. وهذه الحركة فى حد ذاتها هى التى تولد الأثير..!

والتجربة هى أنه حينما يسير شخص يركب دراجة فإنه يحس بشىء بارد يلفح وجهه. هذا الشىء غير موجود لو كان الشخص واقفا على قدميه بدون دراجة. لابد أن هذا الشىء هو الأثير!

واستمر العالمان فى تجاربهما وخرجا بنتيجة مهمة ومؤكدة.. وهى أنه ليس هناك شىء اسمه الأثير!

واستمرت الآراء تتدفق عن نظرية نيوتن، حتى جاء آينشتاين ليقدم وهو فى السادسة والعشرين الإجابة المقنعة.. وهى نظرية النسبية..

كان ذلك فى عام ١٩٠٥.. وفى بحثين لم يلتفت إليهما كثير من العلماء يومها جاءت النظرية المهمة. البحث الأول والثانى لم يكن لهما اسم نظرية النسبية - كان الأول بعنوان «حول الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة».

رفض أينشتاين تماما فكرة الأثير من أساسها.. قال: إن الضوء يسير بسرعة ثابتة لا تتغير مهما تحرك مصدر الضوء.. إن حركة المصدر لا تؤثر على سرعة الضوء مطلقا - لو انطلق الضوء من جسم ثابت فإن سرعته هى نفسها سرعة الضوء المنطلق من طائرة سريعة!

شىء يصعب تصوره..! ليس هذا فقط - بل إن أينشتاين قال:

ـ إن نيوتن أخطأ حين تصور أن الوقت شىء مطلق وأنه ليس مرتبطا بشىء آخر – وهو يتدفق من الماضى نحوالمستقبل. قال إن الوقت شىء نسبى.

قال أينشتاين إن نيوتن أخطأ حينما قال إن وحدات القياس ثابتة.. والصحيح أن وحدات القياس نسبية أيضا! وأن الثابت الوحيد فى الكون هو سرعة الضوء..!

الوقت نسبى!

والمكان نسبى..!

والمساحة نسبية..!

والمادة نسبية..!

والثابت الوحيد: سرعة الضوء!

كيف هذا..؟!

* * *

بـاركلى

١٦٨٥ - ١٧٥٣م
الظاهرة الفريدة فى تاريخ الفلسفة

ولد فى أيرلندا بمنطقة كيلكنى عام ١٦٨٥. كان أجداده من الإنجليز البروتستانت، لكن باركلى قضى سنيه المبكرة والمتأخرة بأكملها فى أيرلندا وهو وإن كان قد قضى حياته تابعا للمذهب الإنجليكانى، إلا أنه يبدو كما لو كان يعد نفسه أيرلنديا بصفة قاطعة. تلقى باركلى تعليما ممتازا بكلية كليكنى أولا ثم ابتداء من عام ١٧٠٠ بكلية ترينتى بدبلن عين فيما بعد زميلا لعدة سنوات. رُسم قسا فى سنة ١٧٠٧، وصار نائبا للأسقف درى، ثم أسقف كلوين بعد ذلك بعشر سنوات، تزوج فى عام ١٧٢٨ وتوفى فى عام ١٧٥٣ بينما كان يشرف على إلحاق ابنه بكلية كرايست تشيرش بأكسفورد وقبره موجود بالكاتدرائية هناك.

وحياة باركلى جديرة بالاهتمام بغض النظر عن كتاباته الفلسفية، وترجع هذه الأهمية على وجه الخصوص إلى تلك المحاولة الغريبة التى قام بها فى أواسط عمره لإقامة جامعة فى برمودا وكان الغرض الخاص من هذا المشروع هو التبشير. ولم يكن باركلى يرجو أن يجتذب إلى كليته أولئك الذين نزحوا إلى المستعمرات الأمريكية وأقاموا بها فحسب، لكنه كان يرجو كذلك أن يجتذب إليها بعض الأهالى الأصليين من الهنود وهناك يدربون ليصيروا قساوسة للدين ورسلا للثقافة. ولقد استطاع باركلى - الذى كان على جانب كبير من النشاط والقدرة على الإقناع والجاذبية الفطرية - أن يحرز تأييدا شعبيا ورسميا كبيرا لمشروعه، وحصل على ترخيص بإنشاء الجامعة وعلى مبلغ طائل من المال عن طريق التبرعات الخاصة وعلى وعد من البرلمان بإعانة حكومية من الأموال العامة، لكن مشروعه كان فى

الواقع غير قابل للتنفيذ وقد تبين للناس ذلك فى نهاية الأمر فبرمودا - وهذا ما لم يدركه باركلى على نحو واضح - جد بعيدة عن القارة الامريكية بحيث لا تصلح موقعا ملائما لتحقيق أغراضه. وبعد أن رحل إلى أمريكا فى عام ١٧٢٨ أخذت عوامل التردد والشكوك تسود وطنه. وقضى باركلى فى الخارج ما يقرب من ثلاثة أعوام، منتظرا أن تدفع اليه المنحة لكن أعلن فى عام ١٧٣١ أن الحكومة لن تحقق له آماله. وما زال البيت الذى بناه باركلى وأقام فيه بنيوبورت فى رود ايلاند «فى الولايات المتحدة» قائما حتى وقتنا الحاضر.

كتب باركلى مؤلفاته التى يرجع إليها الجانب الأكبر من شهرته عندما كان شابا فى مقتبل العمر فهو فى الوقت الذى زار فيه إنجلترا لأول مرة سنة ١٧١٣ - وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره - كان قد نشر بالفعل كتابه «محاولة من أجل نظرية جديدة فى الرؤية» (١٧٠٩) وكتابه «أصول المعرفة البشرية» (١٧١٠) كما نشر فى ذلك العام نفسه (عام زيارته لإنجلترا) كتابه «ثلاث محاورات بين هيلاس وفيلونوس». وهو فى كتبه المتأخرة لم يضف من الجديد إلا القليل إلى دفاعه عن آرائه التى اعتنقها فى ذلك الوقت المبكر وتفسيره لها وتقويمها فى بعض مواضع قليلة الأهمية بل الواقع أنه - كما يتضح لنا من رسائلة - ظل لفترات طويلة فى حياته المتأخرة لا يشغل فكره بالفلسفة على الإطلاق، فهو من هذه الناحية يختلف على نحو يستوقف النظر عن لوك الذى لم يظهر مؤلفه الرئيسى إلا حينما قارب الستين من عمره. والواقع أن باركلى الفتى الذى تعرف على كتابات لوك فى وقت مبكر من عمره يميل عادة إلى أن يشير إلى أفكار لوك على أنها أفكار شيخ طاعن فى السن وعلى أنها فى حقيقة الأمر مثيرة للإعجاب، إذ تصدر عن رجل تقدمت به السن على هذا النحو.

إن باركلى ظاهرة من أكثر الظواهر استيقافا للنظر، بل الواقع أنه ظاهرة فريدة فى تاريخ الفلسفة، فقد كان فى تاريخ الفلسفة كثير من الفلاسفة الذين أقاموا أنساقا ميتافيزيقية، تتسم بالجرأة والشمول وبالغرابة فى كثير من الأحيان وقد كان هنالك أيضا بعض الفلاسفة ممن انصرفوا إلى توضيح الإدراك الفطرى السليم والدفاع عنه، ثم كان هنالك من المفكرين من كرسوا جهودهم للدفاع عن

الإيمان الدينى لكن باركلى يتفرد بمأثرة فذة هى أنه استطاع ببراعة ومهارة مثيرة للدهشة أن يضطلع بجميع هذه المهام فى وقت واحد وكانت هذه المأثرة على تواؤم كامل مع مزاجه الذى كان يجمع بين ميل إلى النسق الميتافيزيقى الطامح ومعتقدات دينية قوية واحترام راسخ للإدراك العادى السليم، لكنه لم يستطع أن يصوغ نظرياته بحيث تمنحه الرضا العقلى أيضا إلا بفضل نفاذ بصيرته وقوة ذهنه إلا أن تأليفه بين هذه المهام التى تتضارب عادة تأليف غير وطيد البنيان بغير شك وقليل من قرائه هم الذين استطاعوا أن يتابعوه فى هذا التأليف. ولقد نظر إليه الناس فى بادئ الأمر - وهذا ما أصابه بالكدر الشديد - على أنه «مجرد» فيلسوف ميتافيزيقى جامح الخيال لكنه وجد فيما بعد من يدافعون عنه بين حين وآخر باعتباره «مجرد» نصير «للإدراك الفطرى السليم» لكننا إذا أردنا أن ندرك نظرياته بكل ما فيها من قوة، فلزام علينا أن نتبين كيف امتزجت فى هذه النظريات الثلاث جوانب متباينة.

اننا نستطيع أن نفهم موقف باركلى على خير وجه إذا نحن قارناه بموقف لوك والواقع ان هذه الخطة تتابع مجرى موقفه ذاك فى تصوره التاريخى بالفعل فلقد كانت صورة العالم كما وجدها باركلى لدى لوك حينما كان يقرؤه كما يلى تقريبا: العالم فى حقيقته وفقا للوك - نظام ميكانيكى من أجسام فى المكان فهو عالم «مصنوع» فى حقيقة الأمر من المادة والأجسام المادية لا تتصف فعلا الا بتلكم الصفات التى يستلزمها الطابع الميكانيكى لسلوكها - أى أنها تتصف «بالصلابة» والشكل والامتداد والحركة أو السكون والعدد وتؤثر هذه الأجسام - من بين ما يؤثر فيه - على حواس الكائنات البشرية التى لها عقول - أى «جواهر غير مادية» كما أن لها أبدانا وعند حدوث هذا التأثير يؤدى التنبيه الميكانيكى للحواس والمخ إلى نشوء «الأفكار» فى العقل، وهذه الأفكار هى فى حقيقة الأمر ما يعيه المشاهد من أشياء وهذه الأفكار تمثل من بعض الجوانب طبيعة «العالم الخارجى» تمثيلا صادقاً، لكنها لا تقوم بهذا التمثيل الصادق من جوانب أخرى فالأفكار الخاصة بالصوت واللون والرائحة على سبيل المثال لها من مقابلات واقعية تطابقها فى العالم، فما هى إلا حالات يتأثر فيها المشاهد بحكم تكوينه ذاته بالمنبهات الميكانيكية

المناسبة. لكن سرعان ما انتهى الأمر بباركلى إلى أن ينظر الى هذه الصورة للعالم على أنها صورة مثيرة للسخرية وخطرة ومنفرة فى وقت واحد فهى مثيرة للسخرية لأنها كانت تؤدى على نحو بين إلى نزعة تشككية جامحة تتعارض مع الإدراك الفطرى السليم، إذ كيف يمكن لمشاهد لا يعى شيئا من أفكاره قبل ان يعرف «أى شىء» عن «العالم الخارجى» الذى قال به لوك؟ على أن لوك نفسه قد قرر - وفى هذا ما فيه من بطلان -أن اللون على سبيل المثال سمة ظاهرية وليس سمة واقعية من سمات العالم، لكن كيف أتيح له أن يعرف أن تأملنا لأفكارنا يطلعنا على نحو صحيح - من أية ناحية من النواحى - على طبيعة العالم كما هى بالفعل؟ فما على الفيلسوف المتشكك إلا أن يشير إلى احتمال أن تكون أفكارنا مضللة لا من بعض النواحى فحسب ولكن من جميع النواحى - فيما يتعلق بطبيعة الأشياء، وأنه لمن الواضح ان لوك لا يستطيع عندئذ أن يواجه مثل هذا الرأى، وبهذا يكون لوك قد أسلم نفسه إلى ذلك الرأى المثير للسخرية القائل بأن الأشياء - إذا قصرنا أنفسنا على ما «نعرفه» - قد تكون فى العالم «الخارجى» مباينة تمام المباينة لما نظنه فيها ولعل هذه الأشياء - إذا قصرنا أنفسنا على ما «نعرفه» غير موجودة ولا شك أن هذا الرأى منفر لأى إنسان ذى عقل سليم.

ومن الواضح أخيرا - وإن يكن باركلى قد قرر هذا فى عبارة أقل صراحة - أن الفكرة القائلة بأن «العالم» مكنة ضخمة كانت تحرج صدره وتنفره وكانت تلكم المجازات التى يبتهج بها لوك عن الساعات والمكنات والعجلات تبعث التقزز فى نفس باركلى إلى أقصى الحدود فقد كان يشعر أن العالم «لا يمكن» أن يكون على هذا النحو حقا - وخاصة إذا كان اعتقادنا أنه كذلك يقتضى أن نقرر أن مظهره الفعلى خادع لنا، «فجمال الخليقة كما تراه الأعين» ليس فى واقع الأمر سوى حواسنا لا لشىء إلا لنعتقد أن العالم منفر إلى هذا الحد؟

من هنا عَنَّ لباركلى - وقد خطر له هذا فيما يشبه الإلهام - ما بدا له على أنه وسيلة جريئة ولكنها بسيطة بديعة لاستئصال كل تلك الفظائع والأباطيل دفعة واحدة فما كان الأمر يقتضى منه إلا أن «ينكر وجود المادة»، إذ ماذا عساها تكون النتائج التى تترتب على ذلك؟ أولا لن يكون لهذا الإنكار أدنى تأثير على مجرى

خبرتنا اليومية كما تحدث بالفعل فنحن باعتراف لوك نفسه لا نعى قط فى واقع الأمر سوى أفكارنا، وإذن فإنكار وجود «الأشياء الخارجية» التى يزعمها لوك تلك الأجسام المادية لا يستتبع إنكار أى شىء مما قد دخل فى خبرتنا وهو فى واقع الأمر يدع آراء غير المتفلسفين من الناس على حالها دون أن يمسها بسوء لكن هذا لا يكفى، اذ ينبغى أن يضع هذا الإنكار نهاية لتساؤل المتشككين، لأن لوك قد اضطر إلى أن يسلم المتشككون بأن أفكارنا قد تضللنا فيما يتعلق بطبيعة الأشياء، وما اضطره إلى هذا سوى أنه نظر إلى الأشياء باعتبارها شيئا آخر «غير» أفكارنا. أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنظر فرأينا أن الأشياء أى موضوعات الخبرة العادية - ليست إلا «مجموعات من الأفكار»، فسيصبح من المستحيل استحالة قاطعة أن نزعم أن الأشياء قد لا تكون فى حقيقة أمرها كما تبدو لنا وسيستحيل على نحو أقطع من ذلك أن نزعم أن وجود الأشياء ذاته قابل للشك، ذلك لأن البرتقالة إذا لم تكن جسما ماديا «خارجيا» بل مجموعة من الأفكار، فبوسعى فى هذه الحالة أن أكون - كما يكون فى الواقع أى إنسان ذى عقل سليم بطبيعة الحال - على يقين من أن البرتقالة موجودة وأنها تتصف حقا بما أجده فيها من لون ومذاق وملمس، إذ يبدو أن الشكوك لا يمكن أن تنشأ بصدد بسيط كهذا إلا نتيجة لتقريرنا الذى لا داعى له بأن الأشياء موجودة «بمعزل» عما لدينا من أفكار عنها وبالإضافة إلى هذه الأفكار كانت التأملات الأولى لباركلى أقرب إلى المراوغة لكنه فيما بعد - وخاصة فى كتابه «فى الحركة» الذى نشر اتجاها مضادا لهوى العصر على نحو لا يرجى لها معه قبول، فلقد سبق باركلى كثيرا من فلاسفة العالم المعاصرين إلى أفكارهم حينما أجاب بأن النظريات العلمية لا تصدق على أى شىء على الإطلاق. نعم، لا شك أنها إذا كانت صحيحة فهى «تصدق» على عالم خبرتنا من حيث إنها تمكننا من أن نتنبأ بمجرد ذلك العالم، وأن نتحكم فيه كذلك إلى حد مَّا لكن مهمة هذه القوانين لا تزيد على مهمة الوسائل التنبؤية فنظرية التكوين الجسيمى للمادة - مثلا - تمكننا من التعبير الرياضى المضبوط الذى تتميز به الصيغ الرياضية وهو الذى يمكننا باستخدامه أن نحصل على تنبؤات قيمة لا تقدر ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى أن نفترض أن الجسيمات والجزئيات التى تقوم بها النظرية موجودة

بالفعل. إن افتراضنا إن هناك جسيمات من هذا القبيل ليس إلا افتراضا مفيدا من الوجهة النظرية وعلينا أن نتمسك به طالما ظهرت لنا فائدته، لكن لا ينبغى لنا أن نعده حقيقة تقرر الواقع تقريرا حرفيا وإذن، فليس هناك ما يخشى منه على متابعة العلم نتيجة لمبادئ باركلى وليس على العالم إلا أن يعترف بأنه لا يبحث فى «طبيعة الأشياء» وإنما يعمل على إتقان صيغة الوسائل التنبؤية.

وقد قضت مؤلفات باركلى الرئيسية وقتا طويلا قبل أن تحدث أى تأثير فى الفلسفة، على الرغم من أن كتابه الأول فى الرؤية ذلك الكتاب ذو المجال المحدود، قد نال حظا لا بأس به من الشهرة وقد كانت انتقاداته للوك قوية فى أغلب الأحوال ولقيت استقبالا حسنا وكان انتقاله إلى مبدئه الخاص العجيب القائل بعالم غير مادى متمركز حول الله عالم «وجوده» هو كونه «مدركا» (هو عالم موجود لأنه مدرك) وفيه يتصور باركلى الكائنات البشرية فى حوار مباشر مع العقل الإلهى - أقول كان هذا الانتقال انتصارا يتصف بالبراعة على أقل تقدير لكن هذا المبدأ كان من الخروج على المألوف بحيث لم يؤخذ مأخذ الجد فكون باركلى قد استطاع - بقدر ما يتعلق الأمر بالخبرة الفعلية - أن يصور مبدأه على أنه مطابق لآراء العامة المألوفة لم يكن كافيا - كما يشعر الناس بحق - لأن يجعل مبدأه هو نفسه رأى العامة بالفعل، فلم يرحب باركلى باعتباره نصير الادراك الفطرى السليم، بل ان نقده للوك قد فقد كثيرا من تأثيره، لأنه بدا وكأنه يؤدى على نحو مباشر إلى موقف أمعن فى الخطأ من موقف لوك. أما فلسفة العلم عنده فقد كانت عندئذ أقل قبولا بكثير مما كان يقدر لها لو أنها عرضت فى أيامنا هذه فقد كان من المسلم به تسليما عاما فى ذلك الوقت أن النظريات الفيزيقية ليست غير امتداد للملاحظة العادية وأنها تطلعنا على حقائق من نفس النوع الذى تطلعنا عليه الخبرة العادية، أما اليوم فقد أصبح من العسير أن نعتقد ذلك لكن لعل الناس قد شعروا - وكانوا محقين كل الحق فيما يتصل بحالة باركلى بالذات - أن انكار ذلك هو بمثابة محاولة مقنعة لتقويض مكانة عالم فيزيقا. وليس هناك أدنى ريب فى أن باركلى كان يقصد إلى ذلك لكن كان من سوء حظه أنه نفر من «النظرية العلمية إلى العالم» حينما كانت هذه النظرية فى أوج سطوتها.

باسترناك، بوريس

(١٨٩٠ - ١٩٦٠م)

لقد اعتاد النقاد التقليديون القول بأن الشاعر هو روائى فاشل بالضرورة إذا حاول أن يدلى بدلوه فى ميدان الرواية. وهذا النوع من التصنيف النقدى ينظر الى الأدب نظرة غير شاملة تحاول تقسيمه إلى مصنفات منقطعة العلاقة العضوية فيما بينها. وقد شجع هذه النظرة القاصرة الروائيون المحترفون الذين لايعترفون بما يسمى بالرواية الشعرية وكذلك الأساليب النثرية التى تهبط بمستوى الشعر فى نظرهم. ولكن هذه التصنيفات الضيقة تحطمت مع مطالع القرن العشرين على أيدى زعماء المدرسة الأدبية الحديثة من أمثال أزرا باوند و.ت.س. أليوت ووليام كارلوس وليامز وغيرهم من النقاد والشعراء الذين نادوا بأن للفنان مطلق الحرية فى استعمال الأداة التى يراها مناسبة لتوصيل عمله الفنى إلى الجمهور. المهم ألا يحدث انفصال بين الوسيلة والغاية حتى لايؤثر هذا بدوره على التناغم الجمالى والالتحام الدوامى بين المضمون والشكل. وعلى هذا فليس هناك تقنيات مسبقة تفرض على الفنان شكلا معينا ومحددا لكى يصب فيه مضمونه صبا.

فإذا كان الروائى الفرنسى بروست قد استعان بالفنون التشكيلية فى تركيب رواياته فلا أقل من أن يستعين جيمس جويس بالشعر فى منح أعماله الروائية نوعا من التكثيف اللغوى والثراء الدرامى.

وما ينطبق على جويس ينطبق على بوريس باسترناك الشاعر والروائى الروسى الذى منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٨ ولكنه رفضها تحت ضغط رسمى من الحكومة فى ذلك الوقت لأنه تعرض بالتحليل والنقد للثورة الروسية والمجتمع السوفييتى الذى نتج عنها فى روايته «دكتور زيفاجو» التى أثارت ضجة عالمية، رغم

أن جائزة نوبل منحت له لشعره قبل نثره. وليست رواية «دكتور زيفاجو» إلا التعبير الملحمى السردى للخطوط الفكرية والفنية التى وردت من قبل فى معظم قصائده وقصصه القصيرة. والصيغة الروائية التى أعاد بها باسترناك صياغة مضامينه وأفكاره الأثيرة، عبارة عن استجابة عملية لروح العصر التى تسعى الى النظرة الشمولية وخاصة فى مجال الأدب. فإذا ارتأى شاعر أن الرواية ستمنحه جمهورا أعرض من القراء فلا جناح عليه إذا لجأ إليها. وعليه فى نفس الوقت ألا يتخلى عن موهبته الشعرية الخلاقة لأنها ستعينه كثيرا فى تطعيم شكله الروائى بالأبعاد اللا نهائية والأدوات المتعددة للشعر. وكان هذا هو المنهج الذى اتبعه باسترناك فى رواية «دكتور زيفاجو». ويخطئ من يظن أن جائزة نوبل كان نتيجة لهذه الرواية فقط، إذ أنه من المتعذر الفصل بين الرواية وبين ما سبقها من قصائد وقصص كتبها باسترناك منذ مطالع القرن الماضى.

ولم يكتب باسترناك رواية نثرية قبل «دكتور زيفاجو» سوى رواية «السلوك السليم» التى كتبها عام ١٩٣١. ولكنها كانت رواية تقليدية إلى حد كبير لا تتمتع بالخصوبة الشعرية التى امتازت بها «دكتور زيفاجو». ومن هنا كان الثقل العالمى الذى حصلت عليه هذه الرواية لأن باسترناك نجح فى توظيف الشعر للوصول إلى أكبر قدر ممكن من خصوبة التجربة الفنية وثرائها. وبصرف النظر عن الإيحاءات الايديولوجية والتلميحات السياسية التى تحيط بتصرفات البطل فإن الرواية تستحق النجاح العالمى الذى أحدثته كعمل أدبى مستقل عن الخلفية السياسية لعصره. فلم يعد باسترناك مجرد شاعر غنائى يجتر أوهامه ويعيد صياغة آلامه فى قصائد سريعة ولكنه كان أديبا له مضمونه الفكرى المحدد كما أن له شكله الفنى الذى تمكن من ابتكاره.

وما كان باسترناك يقصد أن يكون عميلا للغرب كما حاول كثير من النقاد السوفييت أن يتهموه، أن روايته لم تفقد الأمل فى حركة تصحيح يعيد المسيرة الثورية إلى خطها الإنسانى الشامل. ولذلك لا تخلو الرواية من نغمة تفاؤل تفترب من مدرسة الواقعية الاشتراكية التى ابتدعها جوركى من قبل وسار على نهجها معظم الكتاب السوفييت الملتزمين.

ويؤكد باسترناك فى كتابه «خطابات إلى تولا» نفس المنهج الذى طبقة فيما بعد فى «دكتور زيفاجو». فالمكان ليس مجرد موقع أصم وجد أساسا لكى تقع عليه الأحداث ولكنه روح تنبض بالحياة والتفاعل مع الإنسان الذى يعيش عليه. وقد عبر باسترناك عن هذه الحقيقة عام ١٩١٨ فى مطالع حياته الأدبية وظل أمينا على تطبيقها طول حياته كشاعر بل أخضعها لفنه الروائى وتمكن من الاستفادة الدرامية بها فلم تعد مجرد زخارف وصفية لا تمت إلى الكيان الداخلى للعمل الأدبى بصلة. وباسترناك رومانسى فى نظرته إلى وظيفة الشاعر، فهو يرى أن عالم الخيال عبارة عن طاقة خلاقة يمكن أن تعيد صياغة الحياة على الأرض. ويقترب فى هذا من الرومانسيين الألمان بصفة خاصة. والشاعر ليس شخصا هاربا إلى عالم الخيال، ولكنه عائد منه وفى جعبته الكثير من الأفكار الجديدة ومقدرتها على مواصلة المسير فى الطريق الصحيح الذى يجنب البشر عوامل التشتيت والقهر والضعف والتردد.

وأيضا فالشاعر يجب ألا يعيش فى برجه العاجى كما يحلو لبعض الرومانسيين الهروبيين أن يلجأ إلى هذاالبرج الوهمى. فعليه أن يتعامل مع البرجوازيين والعمال والتقليديين والرجعيين والبؤساء والفلاحين والأرستقراطيين وكل فئات الشعب، لأن بضاعته الشعرية لم تنتج إلا لكى تستهلكها هذه الفئات على اختلاف مشاربها. أما أن ينزوى فى برجه العاجى ويجتر أحلامه الهلامية فإنه بهذا يهبط بالشعر من عليائه إلى مستوى إدمان المخدرات بينما الوظيفة الرئيسية للشاعر هى أن يرتفع بمستوى العامة من الناس إلى أعلى المستويات الفكرية والوجدانية والإنسانية الممكنة. ومن هنا كان اصطلاح النقاد بأن الشاعر هو ضمير عصره الذى يمكنه من تصحيح مسيرته كلما انحرف عن الطريق السوى. أى أن الشاعر يملك القدرة على إعادة صياغة الحياة فى مجتمعه ولا يعتقد باسترناك أن هناك وظيفة يمكن لإنسان أن يقوم بأخطر وبأسمى منها مثل وظيفة الشاعر التى يسىء الكثير من الناس فهمها بفعل الرواسب التى تراكمت بمرور القرون والتى رسخت فى الأذهان أن الشاعر ليس إلا بائعا للأوهام أو متزلفا لعلية القوم بغية الحصول على أكبر قدر ممكن من الارتزاق.

وقد أكد باسترناك هذه القيم الفكرية والفنية فى ديوانه الشعرى الذى كتب قصائده قبل عام ١٩١٧، وأطلق عليه عنوان أحلى قصائده «الحياة. . أختى».

ولا شك أن زيفاجو يوضح كثيرا من مفاهيم باسترناك نفسه. وإذا كان هذا عيبا فى الشكل الروائى لأن باسترناك لم يتمكن من الموضوعية الفنية التى تفصل بين شخصه وشخصية البطل إلا أن هذا المنهج الذاتى يمدنا بمادة خصبة تبرز لنا القيم الشعرية التى سيطرت على تفكير باسترناك. وبالطبع فإن الاهتمام به كشاعر يفوق التركيز عليه كروائى. وستظل إضافته الكبرى إلى تقاليد الأدب الروسى متركزة فى شعره وليس فى فنه الروائى التقليدى.

* * *

بـايـرون
جورج جوردن لورد

١٧٨٨ - ١٨٢٤م
رمز الحركة الرومانسية الشعرية فى الأدب الإنجليزى

«لم أحب هذه الدنيا ولم تحبنى هى»

«لم أتعشق هواءها الفاسد ولم أركع لأصنامها»

«لم أطوع خدى لابتسامة زائفة ولم أرفع عقيرتى بالدعاء لصدى أو أشباح».

«قد ينظروننى بين القوم فيحسبوننى منهم».

«حقا! إنى أقف بينهم ولكنى لست منهم»..

تقرأ هذه الأبيات فتحس أنك حيال أنفاس شاعر فرد.. اعتزل عن طواعية، دنيا الناس وانتحى بنفسه وفكره وقلبه ركنا قصيا.. ولم يفعل ذلك عن جهل بالدنيا ولا سلبية إزاء أحداثها، بل هو شاعر مغترب عن قومه وهو بينهم، خبر أحلامهم وربما عاش بعضها فى ذلك العالم الذى يوسدون فيه الخدود والشفاء لتطأها أشباح البسمات ويعبدون فيه أصناما بلا فكر وظلالا بلا روح.. عالم لا يقدر فيه الخلاص إلا لمن يتوفر له صفاء الرؤية ليعيش دنيا حقيقية أصيلة من صنع فكره وأحلامه. هى أبيات بعنوان «الوحيد» للشاعر الإنجليزى لورد بايرون الذى نطوى مع حياته وفنه هذه الصفحات.

عاش جورج جوردون لورد بايرون فيما بين عامى ١٧٨٨، ١٨٢٤ فى فترة من أخصب فترات التاريخ الإنسانى وأحفلها بالحركة والحيوية، فلم يكن قد مضى على

مجيئه إلى عالمنا سوى عام واحد حتى دكت أسوار الباستيل فى باريس ودوت فى أرجاء العالم ثورة على الملكية والإقطاع والاستبداد حملت الجو فى القارة الأوروبية وفى الدنيا كلها ببذور أفكار جديدة.. أفكار تمجد حرية الإنسان كفرد وتتغنى بإخاء الإنسان ومساواته بأخيه الإنسان، وتصل الأفكار الجديدة عبر المانش الى الجزيرة البريطانية وبيئتها المحافظة فلا تجد ترحيبا سوى فى قلوب المثقفين والفنانين فقد فتحت لهم الثورة آفاقا جديدة فى عالم الفكر والفنون، .

الطفل.. البيئة

أما فتانا جورج جوردون فقد كان عليه أن يذوق طعم الشقاء منذ رأت عيناه النور، فأبوه الكابتن جورج بايرون كان - كما وصفه خلصاؤه - نبيلا متلافا لا خلاق له ولا شعور بالمسئولية، بينما كانت أمه كاثرين جوردون سيدة ضعيفة البنية شديدة التيه والخيلاء جموحة العاطفة إلى حد الجنون.. وهكذا قدر أن يدخل فى تكوين الطفل الجسمى والنفسى عوامل كثيرة هى:

(أ) أبوه، تورثه اللامبالاة بتقاليد المجتمع وعُرف الجماعة، وأمومة تورثه حدة الطبع وهياج العاطفة.

(ب) عرج خفيف فى إحدى قدميه يورثه شعورا لم ينفك طيلة حياته يشعره بالنقص إزاء أقرانه وإزاء المخلوقات السوية التى كان يتخيلها فى رؤياه الشعرية.

(جـ) غنى فى اللقب، وفقر فى الجيب أحال طفولته ومطلع صباه جحيما لا يطاق، فقد تربى - وهو النبيل - فى ظروف متواضعة للغاية، إذ لم يكن أبوه ليذر للصغير سوى لقب النبالة وصيتها.

(د) بيئة خاصة فى ابردين حيث عاش من سن الثانية إلى الحادية عشرة يدرج بين سفوح جبالها ليعيش فى حضن الطبيعة.

(هـ) بيئة عامة جعلته يفتح عينيه وعقله على عصر مشحون بالأفكار الإنسانية والأعمال الثورية الجديدة، التى غيرت مجرى الحياة العملية والفكرية فى العالم تقريبا.

(و) وأخيرا قدر لبايرون أن يعيش فى فترة تعد من أخصب فترات تاريخ الشعر الإنجليزى بل قد نعدها أخصبها على الإطلاق بعد فترة النهضة الاليزابثية فى صدر القرن السادس عشر ومشارف السابع عشر، وقد غلب على الأخير الطابع المسرحى وسيطر عليها مارد المسرح ويليام شكسبير.

هذه هى الخلفية التى يجب على كل دارس لشعر بايرون أن يمهد بها وأن يرجع إليها ويرجع اليها كذلك كل ما أنتجه فن بايرون فى شتى مراحل تطوره.

البدايات

ساعات البطالة «Hours of Idlenoso» ديوان من الشعر لشاعر شاب على مشارف العشرين كان من الممكن أن يمر - كما يمر كل يوم عشرات الأعمال لكتاب ناشئين دون أدنى التفات من أحد - ولكن الاسم الجديد يسبقه لقب لورد، وفى هذا الكفاية ليستلفت أنظار الأوساط الأدبية فيتلقفه ناقد مجلة (Edinburgh Review) ويتصفحه ثم ينهال على كاتبه الشاب لوما وتقريعا وتجريحا بما فيه الكفاية وما هو أكثر بكثير ويصدم هذا الاستقبال الجاف الفتى الشاعر ويملأ نفسه مرارة وألما فيزداد أسى على ما لقى من جراء حب صامت خجول لفاتنة صباه مارى شاورث.. ويتحرك الجموح الموروث عن الوالدة لتشهد الأوساط الأدبية فى انجلترا الكسندر بوب يعود فى اهاب الفتى النبيل الشاعر، ويغمس بايرون قلمه فى الحنظل ليكتب هجائية بديعة يعرض فيها (بالادنبره رفيو) وكل من يتصل بها من قريب أوبعيد، ولم يكن العهد ببوب قد تناءى بعد ولذلك استطاع جورج جوردون أن يستعير أسلوبه وأوزانه بل وأخيلته فى بعض الأحيان وينشر القصيدة بعنوان: «المنشئون الإنجليز والنقاد الاسكتش» وهو يقدمها بهذا القسم:

لسوف أكتب وأنشر خطأ أو صوابا.

ولأتخذ من الحمقى موضوعات ولأجعل الهجاء أنشودة.

ويبدو أن تلك الأبيات الساخرة لم تشف غليل بيرون بما فيه الكفاية، فها هو يفارق البلاد كلها فى رحلة جاب فيها البحار وأشباه الجزر جنوبى أوربا.. فزار إسبانيا حيث دون جوانات أوروبا، وزار مالطة واليونان وإيطاليا حيث تعرف على

منابت الحضارات الأصيلة التى يدين لها كل أديب وكل مفكر وكل فنان.

وعاد بيرون إلى إنجلترا مفعم القلب مفعم الوجدان ليصوغ رحلته شعرا فى أسفار هارولد تشايلد وينشرها على الناس، ثم ليستيقظ ذات صباح - كما يقول هو ذاته - «فيجد نفسه مشهورا»..

وهكذا فتحت الأوساط الادبية فى إنجلترا ذراعيها على مطالع القرن التاسع عشر لتستقبل دون جوانها الجديد.. شاعر جميل الطلعة.. يمرح فى ميعة الصبا ويحمل لقب اللوردية ويحمل تجارب البحار الجنوبية ومغانيها ويحمل إلى جانب ذلك استعدادا للمغامرة والانحطاط أيا كان دركهما.

عن رؤاه الشعرية يقول الناقد لوجى روبرتسون: «إن تعبير بيرون الشعرى يهطل متدفقا يميزه نشاط وحيوية يتفرد بهما عمن سواه ثم يلى هاتين الصفتين صفات ثلاث أخرى هى التنوع والغزارة والطرب، كل ذلك على أديم من الشعر السهل غير المعقد».

ولقد تطور بيرون فى رؤاه وأخيلته ومعالجته للقصائد، على مدى مراحل حياته فبعد أن اجتاز مرحلة السخرية بالنقاد والتشفى منهم وصل إلى مرحلة من النضج، وبخاصة فى القصائد الطويلة جعلت بعض النقاد يقولون إنه لو عاش أكثر مما عاش لأتى بالكثير.

ولا يسعنا هنا إلا أن ننبه أن بيرون يجب ألا يأخذنا الحماس لشعره إذا ما قارناه بأعمده المدرسة الرومانسية، فهو خامس أربعة من أبطال هذه المدرسة هم على ترتيب أقدارهم وردسورث، وكوليردج، وشيللى، وكيتس. وقد يختلف الترتيب باختلاف الرأى، ولكن بيرون فى شبه إجماع فى الرأى يتأخر عنهم فى فنه وفى رسالته، بيد أنه يرقى إلى أعلى مدارك الفن وأسماها وأحلاها كذلك حين ينطلق من أسار البيرونية ويتحرر من هذه النرجسية التى صبغت أكثر شعره ويعبر عن مشاعر البشر جميعا..

وتمضى هذه الروح الشاعرة الحائرة تلفظها تقاليد مجتمعها وترحب بها مدارج العشق فى كل مكان، ولكنها تهفو إلى عمل أجل وأعظم وتجده فما أسرع التحاقها

به.. ويهرع بيرون إلى اليونان موطن أساتذة الفن الكبار وكان أبناؤها قد هبوا لاستخلاص بلادهم من حكم الأتراك العثمانيين فى عام ١٨٢٠، وهى الحرب التى اشترك فيها محمد على وعرفت فى تاريخنا بحرب المورة، وكانت حرب التحرير اليونانية فرصة انتهزها فنانو أوروبا وتأملوها ليجدوا فيها حركة بعد جمود وإيجابية بعد خلود إلى السلبية، فكانت شعار تحرير موطن الحضارة من المتوحشين الاتراك وكانت حملات الغوث لأبناء أثينة وأسبرطة أحفاد سقراط وسوفوكليس وجاسون، وذهب بايرون ليغرق نفسه فى أتون هذه الحرب وكأنما كان الشاعر يدرك أن منيته قد حانت فقد كان من أخريات أعماله الشعرية تلك القصيدة التى كتبها فى ذكرى ميلاده السادسة والثلاثين وقال فيها:

لقد أضحت أيامى فى خريفها

وذهبت أزاهير عمرى وثماره

ولم يبق لى سوى الدود والألم والحزن

أيتها الروح فلتمضى لتبحثى عن قبر جندى

ولن تجديه بسهولة - فهو أوفق لمثواك

ثم تلفتى حولك واختارى رمسك

وانعمى بالراحة..

ولا تمضى أيام حتى ينعى الناعون شاعر الحب والطبيعة فتتكسر قلوب وتتخلع صدور وتزفر أنفاس الرجال والنساء على السواء. ويمضى الشاعر ليلحق بتشيللى وكيتس ويترك لنا تراثا فيه المحلق والهابط ولكنه كله يعكس أنفاس شاعر حق هو جورج جوردون لورد بايرون.

بلزاك. أونورى دى

١٧٩٩ - ١٨٥٠م
اشهر الروائيين الفرنسيين

كان فى طفولته يعزف على القيثارة ساعات متصلة، وكان يحدث بها أصواتا غاية فى الإيلام، ولم يك يفهم علة لعدم شعور الناس بجمال موسيقاه. وكان فى المدرسة بدلا من الإقبال على الدرس يكتب مقالا عن «الإرادة البشرية» ولم يدر لماذا مزقه المدرس فى ثورة.

وكانت عيناه المتسائلتان تبدوان قويتى النظرتين٧٦ ، حتى لقد حسب الناس أن الأحلام قد جرت عليه ذيل الغباء. ولكن أمه كانت من وقت لآخر تشده للعبارات العميقة التى تنطق بها شفتاه «انورى.. محال أنك تفهم ماقلته اللحظة» كذلك قالت فى عجب لابنها الذى لم يكن يتجاوز السابعة من عمره. وكان أونورى هو اسمه لأنه ولد يوم القديس أونورى فياله من تحد لطفل أن ينسب إلى قديس، بل وقديس من قديسى الشرف.

وكان أبوه كاتب تموين للجيش، وكان يجمع فى نفسه كثيرا من «مونتانى ورابليه والعم توبى» وكان متفائلا حالما، أورث ابنه مزرعة من الأحلام ولا شىء سواها. ويئس منه مدرسوه فى المدرسة الثانوية، ونفضوا أيديهم منه، وتركوه لآفاق أحلامه «إن هذا الصبى السمين يسير فى حالة سبات عقلى» كذلك كتبوا فى تقريرهم عنه. وخرج أونورى من المدرسة إلى الشوارع وأكثر من ارتياد المكتبات طلبا للأخيلة والحقائق ومرق كالخيال إلى السربون وأصغى دون أن يلحظه أحد إلى محاضرات الأعلام.

فدعته أمه وكانت امرأة فائقة الفطنة إلى أن يعود إلى هذا العالم. وذكرت له أن من واجبه دراسه القانون. فالأب بلزاك، وقد بلغ الآن عامة الرابع والسبعين، قد

أدرج اسمه بين المحالين إلى المعاش. وكانت الأسرة تجتاز ظروفا ضنكة، وقد أوقفه داعى الواجب عن السير ذات يوم أثناء نزهته اليومية فى مقابر لاشيز، وهى بقعة كان يحبها ويغذى فيها وحيه وإلهامه، ويصدر إليه فيها الوحى والإلهام كأعمق ما يصدران وفيها كان يزن أقوى آرائه ويبدأ فى خططه ذات الطموح الفذ.

فرجع إلى بيته يعلن لأسرته أن «لست أبغى دراسة القانون بل أريد أن أكون أديبا» «اذهب إلى سقر!» وفكرت أمه وكانت لها عبقريتها الخاصة فى خطة لإفاقة ابنها من أحدث أحلامه. فأخبرته أن ليس بوسعه أن يعمل فى المنزل لأن ضيق المسكن لا يتيح ذلك واستأجرت له علية تحت سطح منزل وأثثتها بأقل الضرورات وهى إنما تقدم هذه الهدية المزعجة ترجو أن تشفيه بها من جنون طموحه، فيبارك أونورى هذه الهدية، فإذا جلس بين القذارة والهوام شعر أنه يقتعد عرض أجداده الروحيين.. ملوك القلم الجياع.. نعم ولكن ما أمتع أن يسلس لهواه العنان فينطلق فى أعظم أحلامه.

أتى لزيارته صديق فوصف الزيارة هكذا (دخلت عليه حجرة ضيقة تحت سطح منزل أثاثها كرسى لا قاعدة له، ومائدة كسيحة، وسرير بائس، وستاران قذران قد أسدلا إسدالا نصفيا، كانت على المائدة محبرة وكراسة كبيرة ملأى بكتابة عجلى وأبريق شراب الليمون، وكوب وكسرة خبز، وكانت حرارة ذلك الجحر البائس خانقة، وكان المرء فيه يتنفس هواء موبوءا) وكان بلزاك يجلس على سريره وعلى رأسه قبعة من القطن. «مرحبا بك يا صديقى فى ذلك المسكن الذى لم أبرحه غير مرة واحدة طوال الشهرين الأخيرين فأنا طول هذه الفترة لم أنهض من سريرى الذى لا أبرحه وأنا أعد الأثر الأدبى الرائع» وكانت على النضد تمثيلية قد تمت لتوها هى (الأثر الأدبى الرائع) الذى من أجله كان المؤلف يحس النعيم وسط كل هذه القاذورات.

وأخذ بلزاك يوما هذا الأثر ليُقرئه أسرته فلم يسمع استجابة استحسان وجاء به ثقة من ثقات المسرح فى الأكاديمية الفرنسية وقال له:

هل تتفضل ياسيدى بقراءة ذلك المؤلف وترشدنى ماذا أفعل فى المستقبل فقرأ السيد المخطوط وأجاب.

افعل أى شىء فى المستقبل غير الكتابة الأدبية. فلم يزد أونورى عن هز كتفيه وهو يقول: يخيل إلىّ أنى لا أحسن المأساة

ولكنه أقام على الكتابة فى عليته. فهو قد عجز عن أحزان العالم فقرر أن يمتعه. لقد فشل فى تأليف مآس ملهمة فليجد فى الكتابة ليصيب رزقا فحسب. فكتب قصصا مثيرة للمجلات الخفيفة. إن رأسه لمحتشد بالخطط.. لكن قلبه وجيبه خاويان.

فانطلق يعمل فى اندفاع متوهج ويصوغ القصص على غرار ثابت فهو يكتب ستين صفحة كل يوم. وما هى إلا ثلاث سنوات حتى أكمل واحدا وثلاثين كتابا من كتب المغامرات نشرها بأسماء مستعارة، ولكن اسمه ظل غير مشهور ولا حبيب.. وكان دائما يتقاضى حقوق التأليف صكوكا مؤجلة الدفع. وكانت ديونه أيضاً وعودا مؤجلة السداد. فهو على نحو ما عاجز تماما على أن يسيطر على الحاضر. ولما استمرت ديونه متفوقة على دخله أبدا، شعر أن عليه إتمام قصصه الحالمة اسرع فأسرع.

ولكن وضح أخيرا للحالم أن عليه أن يجد عملا آخر، لأن الأحلام الممتعة إنما توافى الأحشاء المليئة المدثرة فى دافيئ الثياب. كان بحاجة إلى دخل آخر غير الكتابة فأراد أن يصيب مرتبا أسبوعيا. لكن كيف؟ نعم إن لديه رأسا مليئا بالخطط، وهو يستطيع الشروع فى خطط باللسان تفتن ألباب الناس. من هذه الخطط أن يجعل من نفسه ناشرا.

كان يتحدث عما يعتزمه من مغامرات بإيماءات شديدة العنف، وحماسة باللغة الشغف، حتى لقد اشترى له أحد الأثرياء دارا من دور النشر، واندثرت الدار كأنها فقاعة من فقاعات الصابون. لكن الممول الذى خسر سبعين ألفا من الفرنكات فى هذه الصفقة كان لايزال مسحورا بفصاحة بلزاك وذلاقته، وقدم بلزاك إلى أخيه وكان غنيا أيضا فأحال الناشر طابعاً.

وأصاب مشروع الطباعة ما أصاب مشروع النشر من انهيار، بفضل توجيه بلزاك. فقد أغرى أصدقاءه بأن يشتروا له مسبكا للحروف. وسرعان ما قاده إلى الدمار، وأقبل عليه أقرباؤه يقدمون له من المال ما يكفى لإنقاذه من الإفلاس وإنقاذ أسرته من العار.

وأنشأ جريدة ذهبت بددا مع أحلامه. ثم عاد إلى الكتابة يقهقه مرحا. كلا انه فى الواقع لا يحمل ضغنا لأحد، والحق أنه سوء حظه وخيانة معاونيه - كما شعر مقتنعا - هو ما أسقطه، فالمؤكد أنه لم يكن قط خائنا فى أى شىء. لكن لماذا يهم نفسه بهذه المسائل؟ إنه ليبلغ بأحلامه أقصى السعادة.

وكذلك كان يصوم ويلوك ويزدرد أغرب الأطعمة التى استطاع عقله ان يحيل رموزها إلى حقائق. وإن اللعاب ليوافى فمه ودموع السعادة لتثب إلى عينيه. لكن هناك لحظات كان اليأس فيها يمسك بتلابيب قلبه. فى هذه اللحظات لم ينقذه من الانتحار غير حب امرأة وذكائها، كانت تزيد عليه كثيرا من السن. لقد أقبل عليها فى لحظة من أحلك لحظاته «لا تعزينى لا فائدة من العزاء..! إنى لمنتحر» وما هى إلا كلمة ترفيه وتعجب حتى قال «يا لله إنك لعلى خلق! إن عبقريتى ستكفل لى الحياة».

وفى تلك الأثناء كانت عناية الله تهديه وترأمه. وكان يسير فى طريق التوفيق فهو على الرغم من كل ما يعتور حياته من اضطراب وتشويش سيصل إلى مآربه. وإن الكمية السخيفة من قصصه لتصوغ عقله على نحو خاص. فهو فى ألمه وديونه التى تخزه وخز أطراف السنان، يحصل على علم عميق بالعالم ورحمة كبري بالألم والعذاب، فقد تمخض طموحه الدفاق وكفاحه المستعر، عن إلهام الفنان، حلم قصير قصر الحياة والموت، عميق كالهاوية، عظيم كاصطخاب البحر.. دعاه إلى العمل، والأفران كلها موقدة ونشوة التفكير تخفى ما يستقبل من متاعب، ذلك هو وحى الفنان الذى هو أداة متواضعة فى يد إرادة تبدو أوفر الأشياء نصيبا من الحرية، وإن كانت فى الواقع لا نصيب لها من الحرية على الإطلاق.

هذه روايات وقصص أصدرتها المطبعة باسمه الحقيقى الآن، قصص عن الطبقة الوسطى الناهضة من أصحاب المتاجر والصيرفيين والنشالين، وعن الحضارة التى تعبد المال وتسير بالبخار. وضحك يلزاك ملء شدقيه مرحا من تلك الضجة التى أحدثها.

وأتت خياله فكرة هائلة حينما كان شابا حالما قد سلخ من حياته الشاذة الأطوار ثلاثين عاما، هى أن يؤلف سلسلة من القصص، تكون فى مجموعها مسلاة إنسانية كاملة من نوع ملهاة النماذج الاجتماعية.

ولكن ما كتبه بلزاك كان أكثر من كتابة «معارضة» لملحمة دانتى. فهو فنان يحيا فى بيئة يسودها العلم الحديث ولا يحكمها إيمان القرون الوسطى. فدبر أمره على أن يدرس مملكة الإنسان كما درس بوفون مملكة الحيوان. فيكتب بحثا شاملا فى التشريح الخلقى المقارن للجنس البشرى، وَلِمَ لا يفعل وقد صنفت الحيوانات أصنافا. ورتبت فى أجناس وأنواع، وما الجنود والعمال والأساتذة والساسة والتجار والبحارة والشعراء والمتسولون والقساوسة إلا نماذج يتميز بعضها من بعض تميز الذئاب والأسود والنسور والغربان والقروش بعضها من بعض. فالإنسان تحكمه النوازع ذاتها التى تحكم الحيوان، وعلى الأخص دافع المصلحة الشخصية. والأدب إنما يجمل الإنسان، والنفاق يزوره فالحيوان باق فى الإنسان وإنما يختلفان فى أن عقل الإنسان أرحب من عقل الحيوان، لذا كبرت حاجاته وعظمت مخاطره.

وهكذا أقام فى متحف التاريخ الطبيعى البشرى صوره للبشر كاملة، تنتظم آماله ورغائبه ومطامحه وكفاحه ومنافساته وغرامه وضعفه وملقه ومخاوفه، هى صورة شاملة لوحشية الإنسان كلها فى حكم نابليون الأول وليس فيليب. وكان بلزاك شديد الإعجاب بالكورسيكى الضئيل. وكثيرا ما طاب له أن يقارن نفسه بنابليون فذلك الرجل جندى يناضل بالسيف وأنا جندى يناضل بالقلم. «ولكنى سأنجح حيث فشل نابليون. فلسوف أغزو العالم».

وغزت «المسلاة الإنسانية» العالم فعلا. فهى تقدم عالما جديداً يشتمل على طبقة جديدة.. هي الطبقة الوسطى. إنهم رجال جدد لهم مهام جديدة، وآمال جديدة ودين جديد. دين الديمقراطية الذى يؤمن بالرجل العادى، فالكادح فى المنجم وقد اتخذ على وجهه قناعا، والعامل وقد ارتدى سرواله الثقيل والتاجر وقد وقف وراء خزانته، هم أبطال الأدب الجديد، والطبقة الجديدة، والحياة الجديدة. لقد كتب اسكلس وشكسبير وكورنى تمثيليات تدور حول النبلاء والملوك، فيعلن بلزاك تحديه لقراء هذه القصص بقوله «إن قصص البرجوازية لتحمل من الأسى ما لا تحمله مآسيكم التمثيلية».

كانت الأعوام العشرة الممتدة بين ١٨٣٠ و١٨٤٠، أى حين كان الكاتب بين الثلاثين والأربعين من عمره، أخصب فترة فى حياته الأدبية من حيث الجودة، ففيها

أنتج رواياته «جلد مشغول» و«يوجين جرانديه» و«البحث عن المطلق» و«الأب جوريو» وغيرها، وقد أطلق على هذه المجموعة من قصصه «الملهاة البشرية» لأن «بلزاك» أراد أن يصنف قصصه فى مجموعات تضم كل منها المتشابهات، وهذه الرغبة منه فى التبويب هى فى الحقيقة فرع عن رغبة أعم وأشمل فى أن يجعل من أدبه سجلا شاملا لشتى نواحى الحياة الاجتماعية فى عصره: الحكومة والكنيسة والجيش والقضاء والطبقات الاجتماعية العليا منها والوسطى والدنيا على السواء، وأهل الريف وأصحاب الفن ورجال الصحافة والأدباء والممثلون والتجار على اختلاف طبقاتهم والمجرمون، إلى آخر ما يمكن أن يُعَد هيئة بذاتها من هيئات المجتمع وطبقاته، ثم أراد «بلزاك» أن يحرك هؤلاء الأشخاص والجماعات فى مناظر مختلف ألوانها. وقد نجح بلا شك.

بو، إدجار آلن

(١٨٠٩ - ١٨٤٩م)
من ابرز كتّاب القصة القصيرة فى العالم

يُعد إدجار آلان بو من الرواد الأمريكيين الأوائل فى مجال الشعر والنقد والقصة القصيرة. ولم يكن يمارس التأليف الأدبى بنفس العفوية والتلقائية التى اشتهر بها الرواد الآخرون من أمثال هيرمان ميلفيل ونثانيل هوثورن بل كان واعيا تماما بالتقاليد الفنية التى تفرق بين ما هو أدب وما هو ليس بذلك. ولهذا يُعد بو أيضا من أوائل المنظِّرين الأمريكيين فى مجال النقد الأدبى، وكانت نظراته النقدية من النضج والعمق بحيث استمر أثرها إلى مدرسة فى اللفظ والمعنى ـ معنى آخر غير مباشر ويمكن إدراكه تلميحا لا تصريحا. هذه إحدى أساسات النقد الحديث التى تقول: إن الأدب يعتمد على التلميح غير المباشر الذى يشير إلى الموجودات دون أن يقرر ويحدد ماهيتها كما يفعل العلم. ولذلك فالتحديد والتصريح والتقرير المباشر، كلها أدوات لا تمت الى المجال الفنى للأدب بصلة. ولم يقف بو بأفكاره النقدية عند حدود النظرية بل انتقل بها إلى حيز التطبيق فى قصصه وأشعاره. هنا يكمن إنجازه الحقيقى ككل، فنحن لا يمكننا الفصل بين نقده وفنه. فإذا أخذنا قصصه القصيرة على سبيل المثال سنجد أنها تشكل عالما مستقلا لذاته لا ينهض على التصوير المباشر للواقع التقليدى المعاش، بل يعتمد على التجسيد الرمزى الذى يبلور لنا صراع الجوهر الشعرى الكامن داخل الأديب للتخلص من رواسب هذا العالم المتحلل والمتفتت والمتغير دوما. وليس الأدب فى نظر بو سوى محاولة الإنسان لاستعادة قدرته على إدراك هذا العالم من خلال الرؤى والأحلام والأطياف التى تصل به إلى كنه الجمال الأزلى والأبدى الذى لايخضع لمعايير الحياة اليومية المتقلبة.

ولد إدجار آلان بو فى مدينة بوسطن من أبوين كانا يشتغلان بالتمثيل المسرحى. وفى طفولته المبكرة هجر أبوه أمه تاركا إياها لتموت فى مدينة ريتشموند بفرجينيا ولم يتعد إدجار الثانية من عمره، فأخذه إدجار آلان أحد تجار ريتشموند إلى منزله لتربيته ورعايته عمده باسم إدجار آلان بو على الرغم من أنه لم يتبنه رسميا. وكانت زوجة آلان – التى لم ترزق بأطفال – فى منتهى العطف والحنو على بو الذى أفرغت فيه كل عواطف الأمومة المكبوتة داخلها. ولم تترك الأسرة سبيلا لمساعدة بو إلا وسلكته، فمكنته من الحصول على التعليم الراقى فى ريتشموند ثم فى إنجلترا. وقد أثبت بو جدارته الدراسية عندما التحق بجامعة فرجينيا التى أحرز فيها تقديرات عالية. ولكنه لم يستمر فيها أكثر من عام لانكبابه على الخمر والميسر مما جعل آلان يضطر إلى التوقف عن دفع مصاريف الجامعة، وإلحاقه بعمل لكى يرتزق منه ويتعلم الجدية فى الحياة بأسلوب عملى، ولكن طبيعة بو الثورية القلقة جعلته يهرب فى عام ١٨٢٧ إلى بوسطن حيث تمكن من نشر أول ديوان شعرى له بعنوان «تامرلين وقصائد أخرى» ولكنه لم يكتب اسمه على الديوان بل نشره «بقلم بوسطونى».

تقلبت الأحوال بعد ذلك ببو فخدم لمدة سنتين فى جيش الولايات المتحدة وذلك قبل أن يساعده آلان مرة أخرى فى الالتحاق بكلية ويست بوينت العسكرية. ولكن سرعان ما طرد منها بسبب طبيعته القلقة المتقلبة التى لا يمكن أن تخضع لأى نظام رتيب. وكان غضب آلان من بو هذه المرة صارما وخاصة أن زوجته التى كانت تحنو على بو ماتت، وتزوج بثانية لم يكن لبو أى مكان فى حياتها. كان هذا بمثابة القطيعة النهائية بين آلان وبو مما اضطره الى الاعتماد على نفسه تماما فى شق طريقه فى الحياة بالأسلوب الذى يلائم شخصيته غير التقليدية. وقد بدأ انكبابه على قرض الشعر عندما نشر تباعا فى عام ١٩٢٩ كتيبات تحتوى على قصائد، ثم أصدر قصائده كلها التى يكتبها فى تلك الفترة المبكرة فى طبعة ثانية عام ١٨٣١. ولم تأت له أشعاره هذه بالشهرة الى أن نشر أول قصة له بعنوان «مخطوط وجد فى زجاجة» وحصل بها على جائزة القصة التى سلطت عليه أضواء الشهرة، وأحاطته بلفيف من أصدقاء الأدب، وفتحت له الطريق للنشر بصفة شبه منتظمة فى مجلة «الرسول

الأدبى الجنوبية»، وفى عام واحد وصل الى منصب رئيس التحرير.

وفى عام ١٨٣٦ تزوج من ابنة عمه البالغة من العمر أربعة عشر عاما، وكعادتة القلقة هجر رئاسة تحرير المجلة التى تركها إلى نيويورك. ظل بقية سنوات حياته متنقلا ما بين نيويورك وفيلادلفيا، وعاملا كصحفى أو رئيس تحرير، أو كمحرر أدبى، أو مراجع.

فى عام ١٨٤٠ جمع الكثير من قصصه فى مجلدين بعنوان «قصص الخيال الجامح» وذاعت شهرته فى كل الآفاق الأدبية فى أمريكا عندما نشر قصة قصيرة بعنوان «البقة الذهبية» ١٨٤٣، وقصيدة بعنوان «الغراب وقصائد أخرى». ولكن أحواله الاقتصادية لم تتحسن وماتت زوجته عام ١٨٤٧ بعد مرض طال عليها بفضل تحالفه مع الفقر المدقع الذى عانت منه. وقد مات بو بعدها عام١٨٤٩.

ولم يكن الإنتاج الشعرى لبو وفيرا، ولكن نوعيته كانت متميزة من حيث الإغراب والتكثيف والرمز كما نرى فى قصائده من أمثال «إلى هيلين»و«الغراب» و«أنابل لى» و«اليانورا» و«أولالوم». وقد برزت قدرته الفائقة على استخدام الصوت والإيقاع الموحى بالمعنى. كان إحساسه بجماليات الشكل الفنى حادا .

كان بو يعتقد أن للشعر مقدرة على تخليص روح الإنسان من براثن هذه الأرض والتحليق بها فى عالم علوى من الجمال النقى الخالص. فهذه هى الوظيفة الأخلاقية الوحيدة التى يمكن أن يقوم بها الشاعر. أما التركيز على الوعظ الأخلاقى فليس من مهمة الشاعر والفنان، بل إن بو يربأ بالشاعر أن يصور تجارب الحياة اليومية للناس، لأن معنى هذا أنه لن يرتفع فوق مستوى الواقع المحدود، وسيظل أسيره وبذلك تتحول قصائده إلى نسخ مكررة أو صور مشوهة للواقع نفسه. وبدلا من أن ينتشل القراء منه ــ أى من الواقع المحدود ــ فإنه سيغرقهم فيه أكثر. لا يقصد بو بهذا أن الشعر عبارة عن هروب سلبى من قيود الحياة، بل يرى فيه سموا إيجابيا يستطيع أن يجعل من الإنسان كائنا أفضل. فالعاطفة التى نشعر بها فى أثناء قراءة القصيدة أسمى بمراحل من العاطفة التى تثيرها فينا حياتنا المادية.

بو وقصص الرعب

وفى مجال القصص تأثر بو بالرواية القوطية التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر كثورة مضادة للعقلانية التى سيطرت على القرن الثامن عشر. وهى الرواية المليئة بالأشباح والأصوات الصادرة من عوالم لا تنتمى إلى عالمنا بصلة، والقصور المسكونة، والقلاع المهجورة، والنوافذ التى تومض بضوء لا نعرف مصدره. وهى رواية ترفض بطبيعة الأمر كيانه من الداخل، وينطلق به من قيود الحياة اليومية المحدودة. لذلك نجد فى رواياته كل دوافع الرعب والإثارة ممثلة فى القصور الغامضة التى يلفها الظلام، وتنطوى على أضواء غريبة داخلها، وغُرف ذات ألوان مبهرة،ومقابر وأجساد مسجاة، وصليل سلاسل وغير ذلك من إيحاءات عالم ما فوق الطبيعة المادية. كان بو مؤمنا بأن الإنسان يكون أكثر صدقا وصفاء ونقاء فى حالة الخوف الذى يصل إلى حدود الرعب. ويمكن أن يكون الخوف من وسائل تطهير روح الإنسان من أدران الأرض. فلم يكتب قصص الرعب لأسباب ميلودرامية بحتة بهدف إثارة الفزع فقط. ففى قصته «الحفرة والبندول» يجسد لنا الآلام التى يقاسيها أحد ضحايا محاكم التفتيش فى انتظار عذاب شيطانى سوف يمارس على جسده.

لم تقتصر كتابات بو على الشعر أو النثر بل كتب ما أسماه النقاد بالشعر المنثور كما نجد فى قصائد «السكون» و«الظل» و«اليانورا» على سبيل المثال.

وهذا يعنى أن بو كان شاعرا عندما كتب القصة، وقصصيا عندما ألف القصيدة. ومن السهل تتبع الصور الشعرية والإيقاعات المتميزة فى قصصه، واقتفاء أثر السرد الروائى فى قصائده، ويبدو أنه كان ينظر إلى إنتاجه الأدبى كوحدة متكاملة تستغل إمكانيات الشعر أو النثر طالما أن رؤيا الكاتب فى حاجة إلى إحديهما أو إلى كلتيهما.

هذه الرؤيا تتجلى فى قصص مثل «دن أمونتيلادو» و«قصة من صيم الفؤاد» و«القط الأسود» التى ينهض مضمونها على جرائم القتل فى شكل فنى قوى ومتدفق ولاهث، ويدل على قدرة بو على التوغل فى أعماق الطبيعة الإنسانية عندما يتقمصها الشذوذ والإغراب.

لم يقتصر بو على كتابة الرواية البوليسية بل كتب أيضاً القصص التى تمزج روح الدعابة والتهكم بالخيال والأحلام، فقد نجحت قصصه شبه الكوميدية مثل «المغامرة التى لا مثيل لها» و«وقائع قضية السيد فالديمار» لأن معرفته بالعلوم الحديثة والمعاصرة ساعدته على بناء قصتيه على منهج علمى سليم. لذلك يعتبره النقاد رائداً أيضاً فى مجال الرواية العلمية التى تعتمد فى مضمونها على العلوم التجريبية الحديثة، وخاصة أن بو استطاع الجمع بين الخيال والعلم وروح الدعابة والتهكم فى وحدة فنية لا افتعال فيها.

أكد النقاد المتحمسون لبو أن إنجازه الحقيقى يكمن فى أعماله التى كان يترك فيها العنان لعقله الباطن لكى تقوم موهبته العفوية التلقائية بواجبها خير قيام. بناء على هذا المنهج النفسى فى النقد توصلوا إلى تفسيرات وتحليلات لم تكن تخطر على بال بو إطلاقاً. لكن ما زالت هذه القضية لم تحسم حتى الآن ولم نعرف هل كتب بو أعماله من وحى خياله المحض الذى لا يخضع لأى منطق عقلى تقليدى. أو أنه كان مدركاً تماماً لأسرار صنعته الأدبية كما أكد هو مراراً. ومع ذلك فالواقع الفنى لأعماله يوضح أنه استغل كل حيل الخيال وألاعيب المنطق وأحكام العقل فى وقت واحد. ويوجد الدليل على هذا فى مهارته الحرفية الفنية وبصيرته النافذة إلى كل أغوار النفس البشرية المظلمة.

* * *

بوب. الكسندر

١٦٨٨ - ١٧٤٤م
من أشهر الشخصيات الأدبية فى القرن الـ ١٨

جون درايدن (John Dryden) عملاق الشعر فى عهد العودة - عودة الملكية بإنجلترا - استوى على عرش إمارة القريض طيلة عشرين عاما بدأت من عام ١٦٦٨. وذات يوم أدخلوا على الشاعر الكبير صبيا قالوا له انه فى الثانية عشرة من عمره، وتتسع عينا الشاعر المثقلتان المهمومتان،فقد كان أمامه شبه قزم لا يزيد طوله على أقدام ثلاثة محدودب الظهر قمىء الجسم وكان ثلاثة أرباع هذا الجسم ملابس وأربطة.

ويطلبون من درايدن تقييم شاعرية الفتى الصبى فالفتى شاعر مجيد كما زعموا، وينطق الفتى بشعره فإذا بأبيات تحاكى أبيات أمير الشعر أو تكاد، وإذا بالطفل يقلب فى الفضاء عينين جميلتين ويردد الأشعار بصوت كالبلبل الصغير..

ويظل جون درايدن ما بين مصدق ومكذب، ويفتح فاه ليقول: أوَ قال الطفل هذا الشعر فى هذه السن؟

ويجيبونه: «وقاله قبل هذه السن، إن الأطفال يفسرون - أى تبين منهم الحروف والكلمات - على أسماء ذويهم، أما فتانا الصغير فقد كأن يلثغ ويفسر على أوزان الشعر والقوافى».

وضع درايدن يده على رأس الصبى - ولم يكن قد تحلى الرأس بباروكة الشعر المستعار بعد - وسأله عن اسمه.

وأجاب الصوت الرخيم فى مشقة:

- الكسندر.. الكسندر بوب..

معظم الشعراء فى عالمنا يفتحون عيونهم على مجالى الطبيعة فى بلادهم ما بين جبال ووهاد يدرجون فيها منذ بواكير الصبا فترتوى هذه العيون بمشاهدة الطبيعة وتشنف آذانهم الحساسة بموسيقاها الغامضة المقدسة ويعيشون فى أحضانها يشمون رحيق الزهر، بل رائحة الحياة فى الأخضر النضير.. وتجيش منهم الصدور وتخرج زفراتهم شعرا وجمالا. أما شاعرنا الكسندر بوب ابن السيد الكسندر بوب والسيدة اديث تيرنر فقد كان ميلاده بالمدينة.. فى لندن وفى شارع لومبارد بالذات. وكان الوالد قد اتخذ فى هذا الشارع وكالة يبيع فيها أقمشة التيل، وورث الطفل عن أبويه - كما يرث كل طفل - مذهبا دينيا هو الكاثوليكية كان كفيلا بأن يجعله طيلة حياته بعيدا، أو مبعدا على الأصح، عن خضم الحياة العامة والجانب السياسى والدينى منها على وجه التحديد.

وكان قدر الكسندر رفيقا به فلم يشأ أن يحرمه من طبيعة الريف الإنجليزى ذى التراث المشهور فى كل ما كتب أدباء الإنجليزية - فكان أن انتقل السيد الكسندر بوب - الكبير - إلى ضيعة صغيرة فى بنفيلد على مسيرة أميال تسعة من مدينة وندسور. وكم كان ألم السيد بوب حين كان يقلب النظر إلى فتاه الصغير فإذا به قمىء محدودب مما تضطر معه الخادمات إلى تدعيم هذا الجسد الهش بأربطة محكمة يلفونها حوله، ثم يضعن فى قدمى هذا الجسد ثلاثة أزواج أو أكثر من جوارب الصوف السميك لتتخذ شكل أقدام بقية خلق الله.

وهنا يلجأ المستر الكسندر بوب إلى عقيدة الكاثوليكية وإيمانها المطلق فيترك الفتى وشأنه دون تقييده بمدرسة بعينها أو فرع برأسه من فروع التعليم.. ولم يكن السيد بوب يعلم أنه بهذا يسدى إلى الأدب الإنجليزى أجل الخدمات.. فلقد كان الصبى الكسندر يترك وشأنه يلهو فى غابة وندسور على ملقف حجر من عزبة الوالد، ثم ليكتب أبياتا يحاكى بها أمير بيان عصره جون درايدن، ويقضى فترة من

الزمان فى مدارس لندن ثم يعود إلى ذويه بعد أن تجمعت فى صدره مشاعر ومشاعر أثر كلمة طرقت سمعه قالها الأستاذ العجوز الجليل حين التقى به فى أحد صالونات لندن.

وعكف على القراءة وعقدة النقص الجسمى - عقدة العاهات بالجملة - تطارده فيهرع إلى المكتبة وما كان أغناها فى بيت أبيه، ويتنقل من هوميروس إلى فرجيل ويشيل من حكايات تشوسر ليحط على مسرحيات شكسبير.. وهو إذ تمضى به رحلة الحياة يضع كتابا فى يده ويرنو عبر نافذة بنيت على طراز الملكة آن ويسرح بعين الخيال راحلا إلى مستقبل حياته، ماذا سيكون؟

أيسير حذو الكسندر بوب الكبير يقايض على التيل ويجمع الحسابات آخر النهار فى شارع (لومبارد)، وما أحطها من مهنة لقارئ هومر وشكسبير - أم يقتحم معمعة السياسة كما كان يشهد ويقرأ عن معاصريه ومن سبقوه من أضراب دانيل ديفو وجون درايدن، وهنا يطل شبح العزلة التى فرضها عليه مذهبه الكاثوليكى فيصرف النظر فى الحال.

أيكون فنانا... رساما مثلا؟.. وفعلا بدأت محاولاته مع الفرشاة واللوحة وغابة وندسور، ولم يتحمل بدنه الهش الخروج لتصوير السحر أو الغسق، وهو الذى كان يلبس تحت القميص صدارا من الفراء. ولكن ماله يتردد وفى سمعه ما زالت تدوى كلمات تشجيع حياه بها شيخ الشعراء درايدن.. فليكن من رجال البيان.. وقرر الكسندر بوب أن يكون شاعرا.. وقد كان.

ومن هنا صح ما قيل عن بوب إن تاريخ حياته فى الأدب هو تاريخ حياته كلها، ويمكن أن نعزو تكريسه العمر كله للشعر لتشجيع درايدن وللظروف العملية التى أشرنا إليها، ثم نضيف إلى ذلك كله عاملا هاما آخر هو نصيحة أولاه بها الناقد ولش (Walsh) بأن يكون شاعرا وعليه فقط «أن يهدف إلى أسلوب سليم» وكان بوب من حسن الإدراك وسلامة الحاسة النقدية أنه حذف كثيرا من إرهاصات الشعر التى دبجها فى بدايات حياته على اعتبار أنها من سقط المتاع، ولم يبق منها سوى

مجموعة «الرعائيات» أو الشعر الريفى (Pastorals) لتبين عن طول باعه فى اتباع الأسلوب السليم السهل الممتنع منذ أن وهب نفسه لملكة القريض.

ويمكن أن نقسم حياة بوب الشعرية إلى ثلاثة أقسامم مع اعتبار أن هذا التقسيم ليس من قبيل التعسف فى استقراء أعمال شاعر فنان، بل هو على سبيل تجميع بعض الخصائص العامة المتشابهة التى تميزت بها أعمال كتبها فى مرحلة بعينها من حياته.

المرحلة الأولى

إن ما توفر له من سلامة الإدراك النقدى دفعه إلى استبعاد ما كتبه في مطلع صباه مع استبقاء الريفيات Pastorals التى لم ينشرها إلا عام ١٧٠٩، وهى قصائد أربع تتناول كل منها فصلا بعينه من فصول السنة، ويبدو أن الشاعر كان يقتفى فيها أثر فرجيل وكان إذ ذاك يعيش مرحلة القراءة الدائبة المستمرة لآثار اللاتين واليونان فى ضيعة أبيه قرب وندسور. وكلها تعكس روحا مدرسية أو شبه مدرسية، برغم ما فيها من حلاوة نغم ومرونة صقل.

المرحلة الثانية

نقلة غريبة اجتازها بوب من مرحلة النقد والسخرية إلى هذه المرحلة التى نحن بصددها حيث توفر على ترجمة هوميروس إلى الإنجليزية فى شكل قافيته المزدوجة المشهورة وظهرت ترجمة الإلياذة سنة ١٧١٥ و ١٧٢٠ أما الأوديسة فظهرت سنة ١٧٢٣ و ١٧٢٥ وقد عاونه فى ترجمتها أستاذان من كامبردج هما فنتون (Fen-ton) وبروم (Broome) وقد كان الفضل لأصدقاء بوب وعلى رأسهم جوناثان سويفت (Swift) صاحب أسفار جلفر الشهيرة.

ولم تقتصر هذه المرحلة على ترجمة هوميروس بل أعد بوب طبعة لمسرحيات شكسبير لم تكن ذات قيمة كبيرة. وفى هذه المرحلة كذلك كتب قصيدتين تعدان من عيون شعره أولهما «رسالة الويزا إلى ايلارد».

وفى القصيدة الثانية «رثاء سيدة بائسة» يرهص بوب - عن غير وعى طبعا -

ببذور التفكير الرومانسى التى حبتها أشعار من تبعوه - جراى وتومبسون وكوبر حتى أثمرت عند ورد سورث وكولبردج لتستوى على عودها فى أشعار شيللى وبيرون وكيتس.

المرحلة الثالثة

فى هذه المرحلة حق للشاهر أن يستمتع بمجد أدبى كلل به معاصروه هامته وربح مادى أتاه من أعماله المنشورة طيلة المرحلتين السابقتين. وكان آل بوب قد انتقلوا بعد وفاة أبيه الى توكنهام، وكان ذلك فى عام ١٧١٨ حيث قضى بوب نصف حياته تقريبا.

وهنا كان الشاعر يعيش ويستقبل التلاميذ والمريدين والمعجبين ويستقبل معهم أعضاء النادى.

وكان النادى قد أنشئ قبل ذلك العهد بسنوات برياسة سويفت، الذى سماه زملاؤه على سبيل التورية (Martinus Seribblerus) وكان النادى يضم أدباءً كبارًا مثل (أديسون) كاتب المقالات الشهير و (جاى) صاحب أوبرا الشحاذين الشهيرة.

وقد وصف إنتاج المرحلة الثالثة من حياة الكسندر بوب، والتى بدأت عام ١٧٢٧ بأنه كان ثمرة مباشرة من ثمرات علاقاته بالنادى وأعضائه .

عاش الشاعر فى هذه المرحلة فترة خصام مع العالم أنتجت هجائية تعد من عيون الشعر الإنجليزى.

وبعد الهجائية اتجه الشاعر - ربما بتقدم العمر ونضوج الثقافة والمدارك. إلى الشعر الفلسفى فظهرت مقالته عن الانسان (Essay on man) بين عامى ١٧٣٢ و١٧٣٤، وليس معنى الشعر الفلسفى أن الشاعر كان يبشر بنظرية جديدة من ابتكاره فى الكون أو الحياة، ولكنه كان يقدم فى قصيدته ثمار قراءاته فى أفكار اللورد بولنجبروك الفيلسوف المتصوف وفلسفته المتأثرة بدورها بالفيلسوف الألمانى (ليبنز).

الخصائص العامة لشعر بوب

يتفوق الكسندر بوب على أستاذه (درايدن) فى غنى حصيلته من الألفاظ، وذلك لكثرة بضاعته من ثقافات الأقدمين، كما يمتاز عليه أنه طوع القافية المزدوجة لكل غرض من أغراض الشعر كتب فيه من هجاء ورثاء إلى تعليم وترجمة بما جبل عليه من سهولة وعفوية فى الصياغة وذكاء فى الاختيار، وينقص شعره نزعة العاطفة الجياشة المضطرمة، إذا استثنينا مع شىء من التحفظ قصيدته فى رثاء السيدة البائسة - كما يحمد له تلك الجزالة والإيجاز التى كانت مدعاة لأن تعلق أبياته بالألسنة والصدور لسهولة ترديدها ولصيغتها الحكيمة.

ولو كان ثمة إحصاء ظريف جرى عن مدى استشهاد الناطقين بالإنجليزية بما أنتج أدباؤها ومفكروها على مر العصور فسوف يتصدر القائمة اثنان أولهما ويليام شكسبير، يتلوه شاعرنا الكسندر بوب.

* * *

بودلير. شارل

(١٨٢١ - ١٨٦٧م)

أعظم شعراء فرنسا

لو قيس الشاعر بما ناله من قوة الابتكار وماله من أثر على غيره من الشعراء، كان «بودلير» بغير شك أعظم الشعراء الفرنسيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر؛ تلقى «بودلير» قسطاً لا بأس به من التعليم، على الرغم من أنه كان تحت رعاية رجل تزوج من أمه بعد موت أبيه؛ لكنه لم يكد يشبّ عن طوقه حتى أرسل إلى الهند ليكسب قوته بعمله، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى بلاده وكانت سنه قد بلغت الحادية والعشرين فتزوج واستقل بنفسه وحياته ليكون بعدئذ أديباً مذكوراً؛ وقد لبث مقيما فى باريس حتى جاوز الأربعين، ثم سافر إلى بلجيكا ليحاضر فى الأدب هنالك وليخرج أدبه فى مجموعة كاملة، وكان أمله أن يدر عليه العملان: محاضراته وكتبه ثروة، ولكن خاب رجاؤه، إذ لم يكد يستقر فى بلجيكا حتى أخذت عافيته فى الانحلال، وأعيد إلى باريس مشلولا، ليموت وهو فى عامه السادس بعد الأربعين.

وجد «بودلير» فى الأدب الإنجليزى مثاله الذى يحتذيه، فقد أنفق من مجهوده شطراً عظيماً فى ترجمة «إدْجَرْ يو» حتى كاد يترجم كل ما أنتجه «يو» بحيث كان «بودلير» يُعرف فى حياته بأنه مترجم «يو» أكثر مما يعرف بإنتاجه الأصيل؛ وإنتاجه الأصيل لم يكن غزيراً بالقياس إلى خمسة وعشرين عاما أنتجه خلالها، لكنك توشك ألا تجد بين سائر الآداب ما يفوقه فى الأصالة التى جعلت ذلك الإنتاج مطبوعا بطابع لا تخطئه العين.

عاد «بودلير» من رحلته إلى الهند ومعه بعض القصائد التى كان قد أنشأها،

فأخذ ينشرها - وينشر ما ينشئه وهو فى فرنسا - فى الصحف، ولم يصدر له ديوان يجمع قصائده تلك إلا وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، إذ صدر له ديوان «زهرات السوء» وكان يحتوى على قطع أثارت غضب الحكومة إذ ذاك فاستدعت إلى القضاء صاحب الديوان وناشر الديوان معا، وقضت عليهما أن يدفعا غرامة معينة وأن يصادر الديوان حتى تحذف منه القصائد التى عدت خارجة على القانون؛ ومضت سنوات أربع بعد ذلك ثم صدرت طبعة ثانية للديوان حذفت منها تلك القصائد المحرمة، وأضيفت إليها مجموعة جديدة؛ وللشاعر غير هذا الديوان الذى لا يزيد على كتاب متوسط الحجم، والذى يحتوى على كل شعره، «قصائد قصيرة نثرية» تبهرك بما فيها من أصالة وابتكار؛ أضيفت إليها فيما بعد طائفة من القصص والمقالات المختلفة فى النقد الأدبى وغيره كلها تنهض دليلا على ما امتاز به «بودلير» من خَلْق وإبداع.

ليس ما يفتنك من شعر «بودلير» حلاوة صياغته التى تروقك باختبار ألفاظها أكثر مما تروقك بأنغام أوزانها، بقدر ما يفتنك من شعره أنه يعبر لك عن حالة نفسية عرفتها كل العصور التى اهتزت بروعة الخيال ولم تَسُدْ فيها عبادة العقل للحقائق الواقعة؛ شعر «بودلير» يعبر لك عن حالة نفسية سادت العصور التى اهتزت بشىء من روعة الخيال، كالعصر الذى سبق المسيحية مباشرة، والعصر الذى تلا المسيحية فوراً، وكالعصر الذى نهضت فيه أوربا بعد رقدة العصور الوسطى، وأخيراً كالقرن التاسع عشر الذى عاش فيه الشاعر؛ هذه الحالة النفسية التى تختلط فيها اللذائذ الحسية عند الانسان بميْل قوى مُلح عند هذا الإنسان نفسه أن يحلل عواطفه وخواطره تحليلا نقديا يشيع فيه شىء من اللفتة الصوفية؛ وأقرب الشعراء فى التعبير عن هذه الحالة النفسية إلى «بودلير» هما «لوكريشس» قديما ودَنّ» الشاعر الإنجيليزى فى القرن السابع عشر.

كان «بودلير» لمن جاء بعده من الشعراء الناشئين فى فرنسا إماما فى الروح والنزعة كما كان «هيجو» إمامهم فى الصورة والقالب.

بـوشكـين

١٧٩٩ - ١٨٣٧م
أعظم الشعراء الروس

إسكندر بوشكين هـو أعظم الشعراء الروسيين غير مدافع، وهو شـاعر روسيا القومى المعبر عن عواطفها وخوالجها وسماتها النفسية ولون مزاجها وتطلعاتها الروحية.

ومكانته فى الأدب الروسى مكانة شيكسبير فى الأدب البريطانى وجيتى فى الأدب الألمانى ودانتى فى الأدب الإيطالى.

وقد يكون مستواه فى الادب العالمى دون مستوى هؤلاء الثلاثة. ولكن المرجح أنه أقرب إلى نفوس الروسيين من جيتى إلى نفوس الألمان وأحب اليهم وأعز عليهم من شيكسبير فى نفوس البريطانيين ودانتى فى نفوس الإيطاليين.

وهو فى الوقت نفسه أشد الشعراء الروسيين استعصاء على الترجمة، وأقلهم قابلية لها، وليس ذلك لصعوبة أسلوبه ووعورة مصطلحاته وخفاء معانيه، وإنما سبب ذلك بلوغ أسلوبه فى اللغة الروسية حد الكمال وغاية الإتقان، مما يجعل المتصدى لترجمته إلى أية لغة أخرى مقصرا فى أدائه مهما أوتى من القدرة والتمكن.

وبوشكين مثل سائر الشعراء العظام الصادقى العبقرية لا يمتاز بما يصح أن نسميه بالاكتفاء الذاتى فى الإنتاج الأدبى، فقد اطلع على الأدب الفرنسى وتزود منه، وعرف الأدب الإنجليزى معرفة جيدة والأدب الإيطالى والأدب الألمانى، وأفاد من اطلاعه على الأدب الأوروبى بوجه عام وظل مثابرا على هذا الاطلاع حتى أيامه

الأخيرة، ولكنه ظل مع ذلك روسيّاً خالصا فى صميمه، وقد استطاع أن يطبع هذه المؤثرات جميعها بالطابع الروسى، ويفيض عليها صبغته الشخصية، أى أن يهضمها جميعها ويحولها إلى أجزاء من كيانه ويمزجها بطبيعته ويجعلها جزءا من تقاليد الأدب الروسى.

ولم يكن مجىء بوشكين كذلك فلتة من الفلتات أو نتيجة ليس لها مقدمات، فقد تقدمه رجال أعلام مهدوا له السبيل، وأزالوا من طريقه بعض العقبات، ومجىء العبقريين الأفذاذ يسبقه فى العادة إرهاصات وطوالع تدل على تهيؤ الجو لقبول رسالتهم، وتلقى وحيهم، وبوشكين هو رائد الأدب الروسى الحديث، ولكنه مع ذلك ثمرة عصره، وقد جاء محمولا على تيار النهضة التى بدأها المصلح الكبير والعاهل الخطير بطرس الاكبر.

ويمتاز شعر بوشكين بالبساطة المعجزة، والإحكام غير المتكلف. ومع شدة عنايته بتثقيف شعره وتجويد أدبه فقد كان يبدو لقرائه كأنه جاء عفوا بغير تعب ولا استكراه، وكان بوشكين نفسه رجلا مشبوب الحماسة قوى العاطفة كريم النفس، وكانت أشعاره المحكمة السبك الجيدة الرصف تنم على ما وراءها من عاطفة متأججة وحوافز قوية.

وقد ولد بوشكين فى ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ بمدينة موسكو من أسرة نبيلة قديمة، ولكنها لم تكن فى وقت ميلاده واسعة الثراء، وكانت والدته حفيدة هانيبال وهو أحد أبناء الأمراء الأحباش، وكان القراصنة فى أواخر القرن السابع عشر قد هاجموا شواطىء الحبشة وأسروا جماعة من الأطفال من بينهم طفل فى الثامنة من عمره، وأبحروا بهم إلى الأستانة، وهناك عرضوهم للبيع فى سوق الرقيق، وكان هذا الغلام الحبشى من نصيب سفير روسيا فى الأستانة، وقد رأى هذا السفير أن يقدم هذا الغلام هدية للقيصر بطرس الأكبر، وقد أعجب به القيصر ومنحه ظل رعياته وأسماه إبراهيم هانيبال، وأشرف بنفسه على تعليمه وتنشئته.

وقد وصف بوشكين نفسه فى قصته المشهورة التى لم يتم فصولها قصة «زنجى بطرس الأكبر» كيف تولى بطرس الأكبر بنفسه زواج هانيبال من سليلة إحدى

الأسرات الروسية العريقة، وقبول الأسرة هذا الزواج وهى مرغمة مرضاة للقيصر واستجابة لأمره.

وواضح من ذلك أن الدم الأفريقى الحار كان يجرى بحكم الوراثة فى عروق هذا الشاعر الكبير، وقد اتخذ بعض العلماء من ذلك دليلا من إدانة بعض نظرية التفوق الجنسى التى كان يتشدق بها فريق من علماء الأجناس والسلالات، والمتأمل فى صورة بوشكين يلمح أنه كان جعد الشعر غليظ الشفتين بارز الصدغين فوراثته الأفريقية ظاهرة فى معارف وجهه كما هى ظاهرة فى أخلاقه وسماته النفسية وآثارة الأدبية.

ولم تظهر بوادر سرعة نضجه الفكرى إلا حينما بلغ التاسعة من عمره، فقد استولى عليه حينذاك نهم شديد إلى القراءة والاطلاع، فقرأ كتاب فوطارخس عن أعيان الرومان واليونان والإليادة والاوديسة والكتب الفرنسية التى وجدها فى مكتبة والده، وقد وهب ذاكرة قوية واعية.

ومن المراحل الحاسمة فى حياته التحاقه فى سنة ١٨١٢ بمعهد «تسارسكويه سيلو» الذى أنشأه القيصر الإسكندر الأول فى سنة ١٨١١ لتخريج الشبان الممتازين من أبناء الأسر الروسية القديمة ليعهد إليهم بعد ذلك فى تولى المناصب الكبرى فى الحكومة القيصرية، وكانت مدة الدراسة فى هذا المعهد ست سنوات يستكمل فيها الطالب إعداده ويستوفى ثقافته وكان هذا المعهد على مسيرة عشرة أميال من بطرسبرج.

وقد ظل بوشكين فى أثناء دراسته مثابرا على الاطلاع، وكان فولتير هو الشاعر الحبيب إلى نفسه فى تلك الفترة، وبدأ يقرض الشعر، وكانت أولى محاولاته الشعرية باللغة الفرنسية ثم باللغة الروسية بعد ذلك، وقد احتذى نماذج الشعراء الفرنسيين، كما ترسم خطوات معاصرية من الشعراء الروسيين أمثال زوكوفسكى وكارامازين وغيرهما من أدباء عصره البارزين، وسرعان ما ظهر تفوقه فى النظم وامتياز أسلوبه حتى اجتذب التفات مشاهير شعراء عصره وأثار حماستهم، فأبدوا إعجابهم به وتقديرهم له، فكان الشاعر زوكوفسكى الذى يكبره فى السن والذى سبقه إلى الشهرج يزوره فى معهده ويقرأ عليه أشعاره، وواضح من ذلك أن الشهرة

جاءته مبكرة ودون ان يبذل فى سبيلها جهدا كبيرا.

وبرغم انغماسه فى هذه الحياة العابثة اللاهية كان مع ذلك غير مقصر فى موالاة الاطلاع، والاستزادة من المعرفة والعمل على إنماء مواهبه، وصقل ملكاته الفنية وتوسيع آفاقه الفكرية.

ونظم فى هذه الفترة قصيدته الضافية «رسلان ولوميلا» وهى طليعة آثاره الأدبية الكبيرة.

وكان ضمن ما نظمه بوشكين فى هذه الفترة قصيدة عن الحرية أشاد فيها بقتل الطغاة المستبدين، كما نظم المقطعات المتضمنة هجاء اركشيف والسخرية به، وهو أحد مستشارى القيصر المكروهين، وكان الرقيب بطبيعة الحال لا يسمح بنشر هذا النوع من الشعر، ولكن جرت العادة فى ذلك العصر أن تنتقل النسخة الخطية لمثل هذا الشعر من يد إلى يد، وتكاثرت الإشاعات حول اسم بوشكين من جراء ذلك حتى بلغت مسامع القيصر فأمر بنفيه إلى جنوب روسيا فى سنة ١٨٢٠.

والواقع أن هذا النفى كان لبوشكين نعمة فى طى نقمه، فقد ازدهرت طبيعته الحارة فى مناظر بلاد القوقاز الرائعة وبين كروم شبه جزيرة القرم وما بها من أشجار السرو وأشجار الغار، وانتقل بعد ذلك إلى كيتسينيف عاصمة بسارابيا التى انتزعت من الأتراك سنة ١٨١٢، وفى أثناء إقامته فى كيتسينيف عنى بمتابعة التيارات السياسية فى داخل روسيا واتصل ببعض جماعة الديسمبريين.

ونقل من كيتسنييف إلى اودسا، وكان رئيسه بها حاكم مقاطعة بسرابيا الكونت فورنتسوف وكان رجلا شديد الكبرياء كثير الاعتداد بنفسه، ويعامل من هم دونه فى ترفع وازدراء، ولم يستثن من هذه المعاملة الشاعر العبقرى الطموح المعتز بأدبه وحسبه ونسبه، وساءت العلاقات بينهما، ومما زاد الخصومة بينمهما اشتعالا أن صاحبنا الشاعر الذى كان فؤاده على الدوام رمية للغوانى الحسان وقع فى غرام زوجة الحاكم الحسناء، ويروى أنها كانت الأنموذج الذى صاغ على مثاله شخصية تاتيانا فى روايته الشعرية المشهورة «موجين اوينجن» وقد انتهت إقامته فى الجنوب بإبعاده بموجب أمر قيصرى إلى ضيعة والده فى ميخابلوفسك.

وفى اثناء إقامته فى الجنوب نظم من قصائده الطوال قصيدة أسير القوفاز، وقصيدة نافورة باغشى سراى وقصيدة النور.

وفى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٨٢٥ سمع بوشيكن نبأ وفاة القيصر الإسكندر الأول فجأة وهو فى طريقه من شبه جزيرة القرم إلى تاجزوج على بحر ازوف، وأن أخاه قسطنطين قد اعتلى بعده عرش القياصرة، ولم يلبث قسطنطين أن تخلى عن العرش لأخيه نيقولا.

ويطرق بوشكين ميدان البحث التاريخى ويعنى بتاريخ الثائر بوجاتشيف الذى تزعم ثورة الفلاحين فى عهد الملكة كاترين الثانية، ويزور المناطق التى حدثت فيها الثورة مثل مدينة أورنبرج ومدينة قازان، وقابل بعض الأحياء المتقدمين فى السن الذين عاصروا هذه الحركة الثورية، وقد كان يوجاتشيف ادعى أنه بطرس الثالث زوج الملكة كاترين الثانية المختفى.

وقد وصف بوشكين أحداث هذه الثورة فى روايته «ابنة القائد» وقد جرى فيها على طريقة السير ولتر سكوت فى رواياته التاريخية وكتب قصصا أخرى مثل قصة بيروفسكى وملكة البستونى والليالى المصرية والعاصفة الثلجية وغير ذلك من القصص والأقصوصات التى تمتاز جميعها بإحكام السبك وبراعة التصوير.

* * *

بـوفـون

(١٧٠٧ - ١٧٨٨م)

العالم والأديب صاحب التاريخ الطبيعى

ما أعجب أمور الحياة، وما أغرب حوادثها!!

يولد العبقرى العظيم، فيجهل الناس أمره، ولا يشعر بمولده أحد، ويبقى هكذا نكرة لا فرق بينه وبين غيره من الناس إلى أن يأمر القدر.

حينئذ فقط تكشف العبقرية عن نفسها وتزيح الأستار الكثاف عن جوهرها الخفى، وكنهها المستور. فيسود مجدها. ويخلد ذكرها. وهنا يبحث من يعنيهم أمر العبقريات فى ظروف تفتحها. ومواجهتها للحياة، وتأثرها بها. ثم عن الرياح العاتية، والأعاصير المجنونة المعربدة التى واجهتها، فاستطاعت الصمود أمامها، والوقوف فى وجهها حتى تعبد لنفسها الطريق الذى يوصلها الى المستقبل المجهول!

ولد جورج لويس لكلارك كونت دى بوفون عام ١٧٠٧ والجو ساكن والطبيعة هادئة نائمة، فلم يقدم بعض الأمارات التى تدل الناس على قدوم رجل عظيم.

كان أبوه عضوا فى برلمان «بورجونى» له صولات وجولات فى ذلك الحرم المقدس الذى تحرق فيه البخور من أجل الحريات والخير العام.

فنشأ ابنه على غراره يحب الحرية ويقدسها: يحب الحرية فى القول، والعمل، والبحث. ومن المعروف أن حب الحرية، والشغف بها يحبب إلى الإنسان الأسفار والتنقل ويجعله ينفر من الاستقرار والجمود فى المكان!

ولهذا السبب نرى بوفون يؤمن إيمانا صحيحا بتلك الحكمة القائلة: «الكون سِفْر لم يقرأ منه غير صفحته الأولى ذلك الذى لم ير إلا وطنه فليسافر إذن، توجه

بوفون إلى إنجلترا، تنقل فى أرجاء الجزيرة، وبذلك درس عن كثب حياة الإنجليز، وطابعهم الفكرى والعملى. لقد كان ينظر إلى مايمر أمامه من حياة وجماد، بعين العالم المدقق. لا بعين السائح الغنى الذى يمر أمامه شريط الحياة فلا يرى فيه إلا الزخرف واللمعان، ثم غادر إنجلترا ! وسافر فى صحبة أحد النبلاء الإنجليز إلى بلد الفن والجمال.. إلى إيطاليا مهد الرسم والنحت والشعر. وهناك ملأ روحه الخصبة وقلبه المتعطش بصور الفن الخالد المتدفق من منبعه الأصيل. ايطاليا اسم ساحره جذاب، لبلاد ظلت مدى أجيال طويلة مقر حضارة سامية. هناك فى ذلك البلد الساحر اختلط بوفون بأبناء الطبيعة... اختلط بأبناء إيطاليا الذين زودتهم الطبيعة الفتانة بالحب والشعر والولع بصنوف الجمال.

شغف بوفون — أول ما شغف - بالرياضيات، فاستهوته معضلاتها، وأحب فيها ذلك النظام الدقيق الذى يشيع فى كل أبحاثها فأخذ يقرأ فيها المؤلفات الطويلة، ويعالج بنفسه الكثير من فروعها ولكنه سرعان ما انصرف عنها أو كاد، وانكب على العلوم الزراعية، وعلم الطبيعة. وهكذا استمر بوفون يتعمق ويتبحر فى دراسة هذه العلوم ومعالجة مسائلها، وأخذ يضع فيها البحوث الطويلة القيمة، حتى شعر أعضاء الأكاديمية العلمية بقوة هذه الأبحاث، وسداد الآراء والأفكار التى يشيع فيها فضموه إلى أسرتهم، وبذلك أصبح من علماء فرنسا المبرزين.

ولكن بوفون الطموح، لم يقنع بما كسب من نجاح، وما نال من شهرة وعظمة، فاستمر فى نضاله الفكرى، وثوراته العلمية حتى فتحت أمامه أبواب الأكاديمية الفرنسية عام ١٧٥٣. وهنا بلغ بوفون قمة مجده، فبقى متربعا عليها إلى أن مات عام ١٧٨٨.

* * *

حينما يقرأ المرء «رسائل» بوفون، تتملكه وتسيطر عليه عاطفة بشوشة صحوة -إن صح هذا التعبير - عاطفة لا يشوبها الاضطراب أو القلق. ومبعث هذه العاطفة الهادئة، هو ما يصادف القارئ فى هذا الرسائل من الانسجام التام، والاتساق الذى لا يشوبه نشاز. وما تتضمنه من عواطف شائعة يحسها المرء فى

حياته اليومية ولكن لا يقدر على ترجمتها إلا المفكر الأريب. وكذلك يحس القارئ أنه قد تقمص روح الكاتب.. تلك الروح التى تخضع للنظام وتقدسه. وتلك الخاصية الأخيرة - الخضوع للنظام وتقديسه - هى التى مكنت بوفون وساعدته فى الوصول بأبحاثه إلى نهاية طيبة، ولذلك نراه دائما يتمسك بأهدابها ويعتز بها، بل يتعذب فى الخضوع لها.

لقد كان بوفون نبيلا فى تقاطيع وجهه، نبيلا فى حركاته الحسية، من التفاتات وإشارات.. نبيلا فى أسلوب كتابته، وكذلك كان نبيلا فى شخصيته: فالنبالة قد انحدرت بحق فى أعراقه وتسلطت على روحه وفكره. ولذلك نراه قد امتاز بالصلابة الخلقية وتقديس الشرف، ومن ناحية أخرى نجد نصيبه من الاختيال والغرور قد تقلص وكاد يتلاشى. كانت نفسه مسرحا لعواطفه النبيلة السامية فلم تستطع العواطف الضعيفة أو المنحطة أن تتسلل وتلعب أى دور على خشبة ذلك المسرح الفاضل.

ابتدأ نجم بوفون يظهر ويتألق فى سماء فرنسا عام ١٧٣٩ وذلك حينما وقع عليه اختيار الملك ليكون مديرا عاما لحدائق القصر، فى تلك الحقبة من حياته فرضت عليه طبيعة عمله الاتجاه نحو التاريخ الطبيعى ففتح نفسه للطبيعة، واتصل بها اتصالا مباشرا وأخذ يستوحيها أسرارها ويدرس مادتها الخالدة التى أتعبت عقول الفلاسفة منذ أن أتيح للإنسان أن يفكر. وأخرج للناس مؤلفه الأول عام ١٧٤٩. إن أعداد الأجزاء الاخرى الباقية من هذا الكتاب سيكون شغله الشاغل وعمله الوحيد خلال التسع والثلاثين سنة الباقية له فى الحياة. ولكن باريس بمباهجها وملاهيها ليست بالمكان المناسب لإتمام مثل هذا العمل الجبار والوصول به إلى بر السلام.

فليتركها بوفون إذن، بل ليهرب منها فهذا هو اللفظ الصحيح فى هذا المقام وليذهب إلى «مونتبار» فهناك يستطيع أن يستيقظ فى الخامسة صباحا، ويغلق على نفسه أبواب مكتبه. فى صومعته تلك، كان بوفون يقضى الساعات الطوال فى العمل

الفكرى المتواصل يقرأ ويملى ليتناول أفطاره، ويحلق ذقنه أو يشذب شعر رأسه. وفى التاسعة والنصف يعود إليها مرة ثانية فيبقى فيها حتى الثانية بعد الظهر، فيتركها لتناول طعام الغذاء. وهكذا سارت حياته فى «مونتبار» حتى النهاية.

عقل بوفون هو عقل العالم المفكر. فهو يتمتع بتلك الخاصية اللازمة للتفكير العلمى وهى الدقة والأمانة. فهو ينفر.. بل يبغض المجردات، والأسباب الغائية، والترتيب الجامد ويقول عنها: «إنها ثلاث منابع لا تفرز إلا الخطأ». وهو إذ ينظر إلى الطبيعة لا يرى التفكك والتجزء بل يرى الكليات والمواد غير القابلة للتجزئة. إن الطبيعة هى مرآته الوحيدة التى تنعكس على صفحتها الناصعة البراقة حقائق الكون، والتى يرفض بوفون بإصرار أن تشع له غير تلك الحقائق الكلية الصحيحة. إنه دائم النظر إلى الطبيعة ولكنه ينظر إليها عن قرب يلاحظ، ويجرب بطرق دقيقة بل متناهية الدقة. ولذلك نجده إذا تكلم عن مظاهر الطبيعة تكلم عنها كما يجدها فى الطبيعة. فيصفها لك فى حالة اضطرابها الشديد، وقدرتها المجنونة العاتية أو انفرادها وانعزالها. ولذلك تجد وصفه دقيقا كل الدقة يؤثر فى نفسك، ويأخذ عليك مشاعرك لأنه يطابق الواقع، ويمثل ما وصف أحسن تمثيل.

ثم ينتقل بوفون إلى الكلام على الظواهر الحيوانية، فيقسمها إلى مجموعات ويتكلم على كل مجموعة منها بتفصيل دقيق كما تعود فى كل كتاباته.

يجب أن نشير هنا إلى أن العلم فى عصر بوفون - أى أوائل القرن الثامن عشر - كان مازال فى دور طفولته عاطلا من صولته، ومجردا من قوته. إذا عرفنا ذلك استطعنا أن نقدر عبقرية بوفون العلمية حينما نقرأ أبحاثه بعين العلم الحديث.

إن كل العناصر الوصفية للتاريخ الطبيعى قد ضايقت بوفون أشد المضايقة لأنه لم يكن يؤمن بالكثير منها وبالتالى لم يكن يطمئن إليها كمقدمات لأبحاثه.

كان بوفون فيلسوفا قبل أى شىء آخر. ولذلك نراه لا يهتم بالأفعال والظواهر الطبيعية على أنها مجرد أفعال أو ظواهر. بل نجد نسبة اهتمامه بها تقدر بنسبة

ما تحمله فى جوفها من معان، فهو يعتقد أن هذه المعانى، والأضواء التى تشفها الظواهر والأفعال تقدم لنا شرحا عاما لقوانين الوجود.

إن بوفون لا يهدأ ولا يستقر إلا إذا اعتقد بصحة الفروض التى تتناول كيفية وجود العالم، والتغييرات البطيئة المتتابعة التى يخضع لها عالم الجماد والحياة. ولذلك نراه، يحشد حشدا زاخرا من الظواهر والأفعال، ويحاول تكملة النقص فيها بأن يضع لها الفروض التى يطمئن إليها ويؤمن بها. ثم يقدم لنا صورة دقيقة واضحة.. صورة علمية عن تاريخ العالم. فقد أوقفنا على تلك الاضطرابات الجيولوجية العظيمة التى انتابت العالم فى العصور المختلفة قديمها وحديثها، وعن مقدار تقدم الحياة، وكيفية ذلك التقدم. فرسم لنا بريشته صورا رائعة عن الحياة البدائية المتواضعة ولوحات أخرى عن مقدار تقدم الإنسان!! إن بحثه هذا قد حوى الكثير من الأغلاط، كما ينقصه الكثير من الشروح والتفاصيل. كما أنه غص بالتأكيدات القاطعة الجازمة التى إن دلت على شىء فهى تدل على الجرأة المتناهية.. تلك التأكيدات التى قد تبعد العالم أحيانا عن الحقيقة. ولكن ذلك كله لا يمكن أن يحجب عن أعيننا قيمة الحقائق الكثيرة والآراء الجديدة العميقة التى تدل على خصوبة عقله وطيب خياله.

إن نظريات بوفون العميقة الواسعة - سواء أكانت مغلوطة أو صحيحة - قد أثرت فيمن أتى بعده من أفذاذ العلماء، لأنهم قد اتخذوها مقدمة لأبحاثهم، وبنوا على دعامتها نظرياتهم وفلسفتهم أما الأغلاط التى تورط فيها بوفون فترجع إلى تصرفه فى الحقائق، وبذلك كان حتما أن تنحرف النتائج التى يصل إليها عن الصواب. ولكن ذلك - لحسن الحظ - لم يلازمه فى معظم ابحاثه فنحن نراه مثلا فى نظريته التى أسماها «تتابع العصور الجيولوجية» قد بلغ القمة فى دقة البحث، ومتانة المنهج الذى سار عليه، لقد تمخض عقله عن هذه النظرية نتيجة لمشاهداته العينية فى حالة الأرض الطبيعية. فهذه المشاهدات قد أوصلته إلى معرفه طبقات الارض الداخلية، معرفة علمية صحيحة.

لقد قدم بوفون خدمات جليلة الشأن، عظيمة القيمة للعلم والأدب. أما خدماته للعلم فتتلخص فيما يلى: حرر بوفون العلم من العناصر الخارجية الغريبة. فنراه قد خلصه، وفك أسره، من أغلال الدين وأعاصيره، ولكنه فى نفس الوقت صدعته التيارات «اللا دينية» و «اللاأخلاقية». تلك التيارات التى شغف بها الفلاسفة، وملكت عليهم مشاعرهم، فجعلوها شغلهم الشاغل، وأطنبوا فيها القول وأسهبوا والتى تسربت من دائرتهم الى دائرة العلم، فامتزجت بجدوله العظيم وجرفت أمامها عقول العلماء المعاصرين لبوفون.

اما خدمته الكبرى للأدب: فهى فتحه ميدانا جديدا، واستكشافه أرضا خصبة عذراء تصلح لفأس الاديب ومعول الفنان. لقد قدم للأدب (مادة خام)، غنية بعناصرها، ووضعها أمام عين الأديب، وتركها له ليشكلها فى قوالب أدبه وفنه، ويأخذ منها ما يرتضيه ذوقه ومزاجه.. قدم للأدب «التاريخ الطبيعى» فتقبله شاكرا لأنه كان فى أَمَسِّ الحاجة إليه من قديم الزمان.

* * *

بوكاشيو

١٣١٣ - ١٣٧٥م
أعظم من كتب القصة القصيرة فى العالم

بوكاشيو كان أول من نبغ بين الكتاب الإيطاليين فى النثر القصصى، بل إن كثيرا من النقاد يذهبون إلى أنه لا يزال حتى يومنا هذا رب القصة القصيرة وسيدها.

* * *

ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣ لأب كان يشغل منصبا على كثير من الوجاهة واليسار، فقد كان فى مقدمة رجال التجارة فى مدينة فلورنسا، فى وقت كانت تسود المدينة فيه جماعة من الطبقة الوسطى أثرت فأزاحت الطبقة العليا عن عرشها، وقضت أعمال التجارة أن يذهب الوالد إلى باريس فى رحلة قصيرة فاتصلت الأسباب بينه وبين امرأة فرنسية وكان جيوفانى ثمرة ذلك الاتصال ثم عاد الوالد مع وليده إلى بلده فلورنسا.

ولما شب الغلام أراد أبوه أن يعلمه التجارة وشؤون المال فأرسله إلى نابولى، ليمارس تلك الأعمال فى أحد أفرع تجارته الممتدة الأطراف، غير أن بوكاشيو الصغير لم يتعلم شيئا عن البيع والشراء، إذ لم تصادف التجارة من نفسه إلا نفورا؛ لكنه وجد الحياة هنالك زاخرة فعب منها عبا وقد قال بوكاشيو فى نابولى إذ ذاك: «انها مدينة بهيجة غنية فاخرة تفوق سائر المدن الإيطالية جميعا يملؤها اللهو اللعب وأسباب المرح معبودة الناس» فقد بلغت الأخلاق فيها غايتها من الانحلال وانغمس الناس فى المجون، حيث جاز أن ينازع الملك «روبرت الحكيم» رجلا من أهل نابولى فى أبوة طفلة ولدتها زوجة ذلك الرجل!!

وشاء القدر أن تكون هذه الطفلة أشد المثيرات الوجدانية فى حياة بوكاشيو، فقد شهدها فى الكنيسة لأول مرة وكانت عندئذ فى عامها السابع عشر تصغره بعام واحد وكانت قد تزوجت قبل ذلك بعامين، فأحبها للنظرة الأولى وأخذ يحدق فيها حتى اضطرت الفتاة إلى أن تسدل على وجهها قناعها، على أنه لم تمض أيام حتى توثقت بينهما الصلات وهى التى أشار اليها بوكاشيو في حكاياته باسم «فيامتا»، وما مضت على حبها عشر سنوات حتى قضى عليها «وباء الطاعون»، ثم لم يلبث أن ألمت به ملمة أخرى وهى أن أباه أضاع كل ماله فهوت الأسرة كلها فى مسغبة، ردت عنها الأصدقاء فلما أثقل الهم قلب بوكاشيو، حج إلى قبر فيرجيل وهنالك قطع على نفسه عهدا أن يهب حياته للأدب.

وأول ثمراته فى الأدب قصيدة «فيلوستراتو» التى تتكون كل مقطوعة فيها من ثمانية أشطر وقد نسج على منوالها «تشوسر» قصته «ترويلس وكرسدا»، وكذلك أثمر حبه للأدب أثرا أدبيا آخر هو قطعة نثرية عنوانها «فيلوكولو» كتبها ليدخل السرور على قلب حبيبته ثم قصة «فيامتا» التى قيل عنها إنها أول قصة تحليلية عرفتها الآداب الأوروبية. وبعدئذ أنشد قصيدة «ننفيل فيسولو» التى قال عنها إنها خير ما أنشد من شعر.

ولم يمض طويل زمن بعد موت حبيبته «فيامتا» حتى عاد بوكاشيو إلى فلورنسا، وأخذ فى إنشاء آيته الكبرى وهى كتاب «ديكاميرون».

وبعد أن فرغ بوكاشيو من كتابه ديكاميرون بلهجته التسكانية، حدث أن ذهب إلى «بادوا» مبعوثا من جمهورية فلورنسا ليعيد بترارك من منفاه، وكان بوكاشيو قد حفظ أغانى بترارك عن ظهر قلب وأعجب به منذ الصبا فلما التقى ببترارك وجده مشتغلا بإحياء اللاتينية واليونانية القديمتين، إحياءً جعله أبا للنهضة الأدبية غير مدافع وقد تأثر به بوكاشيو فأمسك عن الكتابة باللهجة التسكانية ليكتب باللاتينية كتابة العلماء. ومما نذكره عن بوكاشيو أنه هو الذى أضاف إلى عنوان ملحمة دانتى لفظة «الإلهية» فأصبحت «الكوميديا الإلهية» كما هى اليوم.

ومات بوكاشيو فى ديسمبر من سنة ١٣٧٥ وهو فى عامه الثانى والستين بعد

أن أنفق أواخر أعوامه فى فاقة مريرة، وحزن أليم، لكنه كان قد شق طريق الخلاق من العصور الوسطى وقد كان فى أوله طريقا ضيقا وعرا، فهو ضيق لأن الرائد الأول كان لابد له أن يحصر انتباهه فى البقعة التى أمامه؛ ولذلك جاء كتاب بوكاشيو صورة لمكان بعينه وزمان بعينه حتى ليصح أن يقال عنه إنه يصور إيطاليا فى القرن السابع عشر وهو وعر لأن تفتيت الصخر عمل مجهد شاق؛ لكن الطريق الجديد سلك بالنزعة الجديدة عبر جبال الألب إلى مسالك فسيحة طيعة هى آفاق الأدب الأوروبى الحديث.

* * *

والحق أن قصص الديكاميرون ممتعة تشتمل على كثير من مواقف الجد والهزل: فيها سخرية بالقساوسة والرهبان الذين غصت بهم العصور الوسطى، وفيها أصول لكثير جدا من الملاهى التى جرت بها أقلام الكتاب المسرحيين، وفيها بهجة ومرح ومجون. ولعل خير ما يوصف به هذا الكتاب هذه العبارة الموجزة الجامعة التى اختارها له مترجمه إلى الإنجليزية قبل القرن السابع عشر وهى «نموذج للمرح والبديهة الحاضرة والفصاحة وحسن الحديث» فموضوعات هذه القصص من التنوع والتباين بحيث لا تجد لها فى ذلك ضريبا، فمنها ما يخوض فى مهاترات الحمقى ومنها ما يستدر أدق العواطف وأرقها، وبعضها يخرج على حدود العرف الاجتماعى، بحيث لا يصلح أن ينشر اليوم فى مجلة تطالعها عامة الناس؛ ولكنك لن تجد فى هذه القصص المائة واحدة قد زلت فيما يزل فيه الكثير من الآثار الأدبية وهو جمود العاطفة وبرودها.

إن من الآثار الأدبية ما يصور للإنسان مثله الأعلى ليجتذبه نحوه، ومنها ما يصور له عيوبه ليضحكه من نفسه فالكوميديا الإلهية لدانتى من الضرب الأول والديكاميرون لبوكاشيو من الضرب الثانى، إن الإنسان حيوانى طموح تراه دائما يزخرف حقائق طبيعته بأوهام، ليتوهم أنه كامل أو مقرب من الكمال، ولذا تراه أحيانا يبذل مجهودا محمودا محاولا أن يحيا وفق أوهامه لعله يدنو فعلا مما رسمه لنفسه من مثل أعلى، لكنه كثيرا ما يفشل ضعفا وعجزا، فيجد العزاء والسلوى حين يقرأ كتابا كالديكاميرون يذكره بأن فى الناس آلافا يماثلونه ضعفا ونقصا.

إن الكوميديا الإلهية تمثل ذروة ما بلغه الأدب فى العصور الوسطى وإن الديكاميرون يمثل البادرة التى بشرت بالنهوض والإحياء فمن أين أتى هذا الخلاف؟ هو فى أن الكوميديا الإلهية تهيئ القارئ لحياة الآخرة بينما أريد بالديكاميرون أن يعد الإنسان نفسه للحياة على هذه الأرض. وها هنا يقع الفارق بين روح العصور الوسطى وروح العصر الحديث.

إن الديكاميرون من أكثر الآثار الأدبية ميلا إلى تصوير الواقع من غير تأثر بالميل والهوى، فأدبه موضوعى متطرف إذ لا تلمس شخصية المؤلف فى أى موضع من الكتاب ولا هو يلون القصة بميوله الخلقية فالحكايات تروى من وجهة نظر إنسان متفرج، يقص علينا أن شيئا معينا وقع على نحو معين، دون أن يضيف الكاتب عاطفته من إشفاق أو تأنيب؛ لذلك ترى بعض ما يثير الأسى والحزن فى شخصيات القصة يثير فينا الضحك، وهذا تصوير دقيق لما يحدث فى الحياة الواقعية.

كان بوكاشيو مبتكرا لبعض حكاياته، لكنه لم يصنع فى بعضها الآخر غير الصياغة والتعبير، إذ كان منها ما هو شائع يحكيه الناس بعضهم لبعض ومنها ما ترجمه عن الخرافات الفرنسية القديمة. ومهما يكن من أمر مصادر الكتاب، فقد أصبح الديكاميرون جزءا من الأدب العالمى ولا يزال الشعراء الإنجليز من أقدمهم إلى أحدثهم يردون حوضه الغزير ويستقون منه، وقد ترجم إلى اللغات الأوروبية وظهرت أول ترجمة إنجليزية له فى سنة ١٦٢٠ وقد تم نقله إلى الإنجليزية حديثا، كما نقلته الكاتبة القصصية «فرانسز وِنوور».

ذلك هو كتاب ديكاميرون الذى قال عنه أحد النقاد إن الأدب قد انتقل به «من منطقة ما وراء الطبيعة والقصة الرمزية واللاهوت وأخذ يحيا حياة جديدة وفق الأصول الكلاسيكية القديمة التى تعمل على تقليد الطبيعة تقليدا مباشرا».

* * *

بيراندللو، لويجى

١٨٦٧ - ١٩٣٦م
من أعظم المفكرين الايطالين

فى عام ١٩٣٤ منح الكاتب الإيطإلى لويجى بيراندللو جائزة نوبل.. للآداب.. فجاء ذلك القرار برهانا جديدا قويا على خطر الدور التجديدى الذى أداه بيراندللو فى تطور المسرح الإيطإلى المعاصر..

فقد كان المسرح الإيطإلى منذ عام ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية الأولى يعانى تدهورا شديدا حتى اعتبره كثير من النقاد خارجا عن دائرة الأدب الصحيح فى أثناء هذه الفترة الطويلة.. والواقع أنه من العسير أن يشعر المرء بوجود فن مسرحى فى إيطاليا خلال نصف القرن الذى سبق الحرب العالمية الأولى إلا بأعمال الكاتب جبرييل دانونزيو وبعض أعمال عدد من الكتاب مثل جياكوزا وبراجا وبراكو وسمبنللى.

لم يكن التأليف المسرحى ضعيفا وحسب.. بل إن محاولات الكتاب الخائرة كانت تعيش كَـلاّ على الآداب الأجنبية.. وتمعن فى تقليد الكتاب الفرنسيين.. وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه، ثم الكتاب الروس والكاتب النرويجى أبسن فيما بعد.

ولقد كان المسرح الإيطإلى فى هذه الفترة على درجة شديدة من التبعية بحيث كان يتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه. فعندما قوى المسرح الطبيعى فى فرنسا، لقى ذلك التغيير صداه السريع فى المسرح الإيطإلى فسادت روح الواقعية أعمال المؤلفين.. وكانت هذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الإيطإلى بطابعهما حتى ذلك الوقت.

على أن التحرر من سيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن إلا بنقل السيادة من يد

إلى أخرى، وكانت هذه اليد هى فن أبسن الذى ظل يغذى المسرح الواقعى الإيطإلى بمشاكله التى يعالجها وبموقف أبطاله حتى الحرب العالمية الأولى.

وجاء بعد ذلك بيراندللو فاستطاع بعبقريته أن يبنى على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هى وليدة تجاربه فى الحياة، وآلامه النفسية وقراءاته الواسعة وأن يركز هذه الفلسفة فى مذهب فنى عرف باسم مذهب الدعابة أو باسم (مذهب بيراندللو) الذى رفع به مسرح بلاده بعد انحطاط نيف على نصف قرن كامل.

لقد مات بيراندللو فى أواخر عام ١٩٣٦ فى السبعين من عمره، وابتدأ الكتابة وهو فى العشرين وكان إنتاجه من الغزارة بحيث أنه كتب حوإلى أربعمائة أقصوصة وعشر قصص.. وثلاثين رواية مسرحية.. ومع ذلك كان اسمه حتى عشرة أعوام قبل فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٣٤ يكاد يكون مجهولا فى عالم الآداب.. بيد أن بيراندللو قد استطاع فى الأعوام القليلة التى سبقت موته - بفنه المسرحى على الخصوص - أن يشق طريقه إلى المجد.. ويكون له أتباعا فى أوروبا بأسرها.. وأن ينال أخيرا أعظم الجوائز الأدبية فى العالم أجمع.

ولد بيراندللو فى بلدة أجريجنتى بجزيرة صقلية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٦٧ وعندما شب درس الأدب فى روما.. ثم سافر إلى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة بون.. ولما عاد إلى بلاده عين أستاذا فى (المدرسة العليا للبنات) بروما.. وبقى فيها أربعة وعشرين عاما، من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١.

ابتدأ بيراندللو حياته الأدبية قصصيا يكتب القصص الطويلة والقصيرة ولكنه تحول فيما بعد إلى الكتابة المسرحية.. فلقى عن طريقها سبيله إلى الشهرة العالمية.. وقد كتب بيراندللو من القصص الطويلة قصة (المرحوم ماتياس باسكال) و(زوجها) وغيرهما.

أما قصصه القصيرة فكانت تظهر تدريجيا مجموعة تحت عنوان رئيسى ثابت هو (حكايات لعام) وأشهر هذه المجموعات (البريئات) و(صقلية القديمة) وغير ذلك.

أما الروايات المسرحية فقد ابتدأ براندللو الكتابة فيها عام ١٩١٢ فكتب (واجب الطبيب) و (ليمون صقلية) و (عقل الآخرين) و (طاقية المجنون) على أن هذه الروايات كانت فى الواقع بمثابة الخطوات الأولى لفنه الذى لم يزدهر إلا ابتداء من عام ١٩١٧ حين كتب روايته (لكل حقيقته) فلقد توالت بعد هذه القصة قصصه المسرحية الرائعة التى أشهرها (لذة الشرف) و (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) و (كسو العرايا) و (هنرى الرابع) و (صديقة النساء) وغيرها.

وفن بيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعة الإنسانية تلك هى مشكلة (الشخصية) فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب.. وكم يعانى الإنسان فى علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض فى العادات والطباع.. فيرى المرء نفسه مرغما أن يلبس مع كل فرد ولكل حادث ولكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحياة فى هذا العالم.. فبيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية نراه يقارن بين طبيعة الإنسان وما تمليه عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين ما يتبع ذلك من صراع وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الإنسانية وصغائرها.

يرى بيراندللو أن لكل إنسان شخصيتين كامنتين فيه، هما أبدا فى تناقض مستمر وحرب دائمة.

(الأولى) حيوانيته.. أى شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها.

(الثانية) إنسانيته.. أى شخصيته الاجتماعية التى تحتم عليه أن يخضع للتقاليد والأوضاع والمبادئ الجامدة وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه.

ويرى بيراندللو أيضا أن الفرد يعتبر فى حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و(حيوانيته) فإن خالف ذلك وحاول أن يكون (إنسانا) يتقيد بأنظمة مخصوصة.. وتخضع تصرفاته لقواعد مرعية، فهو فى نظره قد خرج على طبيعته وأوقف سير (حياته الحقيقية) ليدخل (حياته الوهمية) التى يتصور أنها الحياة الحقيقية.

وهنا يجب أن نتساءل.. ما الذى يرغم الإنسان على أن ينتقل من (حياته الحقيقية) إلى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) إلى (إنسانيته)؟

إنه الضمير.. فالضمير فى نظر بيراندللو هو الذى يفرق بين الإنسان والحيوان.. وبين الإنسان والنبات.. الضمير الذى يولد معنا يوم ميلادنا، ويصاحبنا حتى الموت.. هو الذى يفسر حياتنا.. هو الذى يقيدها بالأوضاع.. ويخضعها لناموس الخطأ والصواب. ولكن هل استطاع الضمير أن يكبح غرائز الإنسان وشهواته وبمنعها من الظهور والانفجار بين يوم وآخر؟ لا .. لم يستطع الضمير ذلك، فحيوانية الإنسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة وكثيرا ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره فى الطريق الذى تشاء.. ولذا يرى بيراندللو أن كل شقاء الإنسان النفسى إنما هو وليد وجود الضمير.. فقد أراد الضمير أن يكبل الطبيعة الإنسانية بسلاسل التقاليد والأوضاع الاجتماعية فى حين أن الطبيعة لا تعرف التقاليد.. ولا تخضع للأوضاع.. فلا الضمير إذن استطاع أن يميت (حيوانية) الفرد فتسود (إنسانيته) على الدوام. ولا سمح لهذه الحيوانية أن تتحقق وفق هواها ليحيا الانسان (حياته الحقيقية) وكانت نتيجة ذلك نشوء ذلك الكفاح الدائم بين شخصية الإنسان الطبيعية وشخصيته الإنسانية أى بين حيوانيته وإنسانيته.

* * *

بيف. سانت

١٨٠٤ - ١٨٦٩م
أعظم نقاد الأدب فى عصره

سانت بيف ليس بالشخصية البسيطة التحليل، السهلة التشريح. لأن شخصيته هذه لم تكن متماسكة فى عناصرها أو متساندة.

لقد انضم عام ١٨٢٦ إلى أسرة تحرير الجريدة الحرة التى تسمى «الجلوب» وذلك بمساعدة أستاذه القديم لعلم المعانى والبيان مسيو «ديبوا». ولقد استفاد الكثير وهو فى مضمار هؤلاء الأساتذة العلماء. ولكن عقله امتاز على عقولهم جميعا بمرونته ولينه، وبالعمق الشديد فيما يفرزه من أفكار وآراء وبجوهره الأدبى الرائق الصافي، وذوقه الحالم الذى ينجذب دائما إلى الألم والحزن. وهذا الحزن شىء أزلى قديم، يمازج دائما صبح حياة الشاعر أو الشعراء جميعا، ففى حياتهم تلك، توجد فترة معينة تتكون فى خلالها عناصر أزمة لا تخلو من الكوارث النفسية الأليمة. لقد كان جوهر هذا القرن الذى عاصره سانت بيف بئيسا يائسا. ولكنه كان يتحلى بإطار جذاب خلاب.. كان يتحلى بآلاف الألوان القزحية التى تشعها الأحلام الشاعرية. فأى شىء أحلى وأمتع من كراهية الحياة وبغضها؟ وما ضر المرء أن يقتبس – وهو فى العشرين من عمره – مذاهب بعض الكتب الجميلة مثل «فرتر» أو «رينيه»؟ لقد عرف الشعراء أن يزخرفوا أمزجتهم التى تميل قليلا إلى الهوس والجنون، ويجعلوها جميلة مقبولة، وغير مضرة لغيرهم.

لقد كان سانت بيف يشعر بإخلاص هذا الشعور نفسه ولذلك نراه يبحث فى ظروف مولده البعيدة عن سبب هذه الحالة النفسية فيقول:

«لقد فقدت والدتى أبى فى السنة الأولى من زواجها وكانت تحملنى آنذاك فى

بطنها.. وهكذا كان حملها لى فى فترة الحداد والحزن. وهكذا ارتويت بل استحممت بالحزن وأنا لا أزال نطفة فى الغشاء الجنينى. وأنا الآن أرجع ذلك اللون من الهوس الذى أصابنى فى أيام شبابى الأولى، وكذلك استعدادى الطبيعى للحزن إلى حزن والدتى وحدادها..»

هكذا شرح سانت بيف حالته النفسية هذه، وأبان لنا منبعها، بكتابه هذا الذى بعثه إلى صديقه مسيو دى «فايبر» فى ٢٥ يونيه عام ١٨٦٢.

وهكذا كان الرجل يتألم ويقاسى من الشك ولكنه مع ذلك يشك. ويحاول أن يمسك من جديد بأهداب اعتقاداته التى كانت تذوب بين يديه.. هذه هى طبيعة الظروف التى أحاطت سانت بيف الصحفى، الواسع الأفق فى العلم والفلسفة والفن حينما ألف شعره الذى طبعه للقراء عام ١٨٢٨.

لقد كانت هذه المقطوعات الشعرية عبارة عن لون خاص من الشعر الحزين الهادئ. ولا يمكن أن يكون غير ذلك، لكى يتمشى مع حالة الشاعر النفسية. ولقد مزج شعره الحزين هذا ببعض المقطوعات الأخرى التى تتجلى فيها الصناعة الشعرية بكل عناصرها، وذلك حينما سمح للشاعر الشاب بالانضمام إلى أسرة «نادى الشعراء».

والآن نقدم للقارئ بعض نماذج من شعره الذى نبع من البحيرة الإنجليزية الهادئة. ولكننا ننصح له أن يرجع إلى الأصل ليقرأ المقطوعات كاملة. انظر إلى هذا الوصف الحبيب:

أرى شجرة الكرم تنساب على سقفى الاردوازى.

.. ..

ومن نفس هذا المنبع الطبيعى، منبع البحيرة الجميلة، تبرز لنا هذه الصورة الطبيعية الرمزية:

لقد غسلت الشجرة أرض الأزهار التى لم تكد تتفتح

.. ..

وأيضا هذا التشبيه الغريب غير المنتظر، الذى يفتح فجأة فى جوف اللوحة المرسومة بريشة الشاعر عالما مثاليا جذابا وهو خاص بأمرأة جميلة قد مال رأسها إلى الأمام.

وفى خلال هذا الشعر الأشقر، تاهت هذه الأيدى البيضاء.

كما سبح البجع على سطح الماء الشفاف

.. .. ..

وهكذا يجد المرء لذة فى استظهار هذا الشعر الحنون المعجز كمثل قصائده التى ترجمنا بعض أبيات منها، كمثل المقطوعة التى تبدأ بقوله:

لقد عرفته دائما مفكرا رزينا

.. .. ..

أما مالم يتأثر كثيرا بالعنصر الإنجليزى عند سانت بيف فهو ذوقه وفنه فى رسم وتخطيط رغبات النساء الخالية من المغالاة والحدة الثائرة وبطريقته الطريفة فى المداعبة الماجنة، ورفاهية أسلوبه التى تبلغ الذروة. وتلك المميزات جميعها تتجلى فى قصيدته التى تغنى فيها «بروز» ذات الشعر «المنفوش» الطليق.

لم يكن كل شىء رائعا صافيا فى جدول سانت بيف الذى ينبع من البحيرة الهادئة السطح الجميلة المنظر. فهو بعيد عن نهير «لوس» حيث كان كوبر يتنزه فى صحبة أحلامه الطفولية الزاهية البريئة، وعن غرفة العمل القائمة فى طريق «السيد الامير» حيث كان الكثير من المتفائلين يضطربون ويتحركون. إن جوهر سانت بيف الحقيقى هو جوهر عاص مضطرب... ومعذب!

يوجد فى مجموعة أشعار سانت بيف الأولى قطعة مقفاة «من نوع اللزوميات فى شعر أبى العلاء» إن جاز لنا أن نشبه الشعر الأوربى بالشعر العربى. ومقطوعة أخرى من وزن جديد، يتجلى فيهما العنصر «الابتداعى». ومن أجل هاتين القطعتين هاجم فيكتور هيجو المحرر الشاب لجريدة الجلوب حوالى ١٨٢٧.

وقد نشر سانت بيف فى أعداد الجلوب الصادرة فى ٢، ٩ يناير عدة مقالات

عن نظريات وأشعار فيكتور هيجو . وقد خلا نقده تماما من اللين والمجاملة فيما يختص بفلسفة الجمال فى المذهب «الرومانتيكى».لقد اعترف لفيكتور هيجو «بموهبة عالية»، ولكن هذه الموهبة قد أتلفها التفخيم والزخرفة. ولقد لامه على «مغالاته فى التشبيه»، والشطط المبالغ فيه، والمجازات العقيمة، والخروج على جوهر الاصطلاحات... الخ وهنا يشكر هيجو الناقد ويقول: يجب أن يصعد المرء عدة درجات أخرى لكى يستطيع أن يشغل منصب «البابا»!!

بعد أن نشر سانت بيف «أشعار جوزيف ديلورم» استطاع أن يحتل مكانا فى «ثوى الشعراء»، وكان يجلس خلف فينى والرسام، «بولانجيبه». وإليك ما قاله فيكتور هيجو فى هذا الصدد منقولا عن أحد معاصريه:

«من بين الأصدقاء الذين كانوا لا ينقطعون عن الحضور، كان اثنان يأتيان كل يوم تقريبا: مسيو لويس بولانجيه ومسيو سانت بيف الذى كان محدثا لبقا ساحرا، كما كان كاتبا ممتازا... وكان يحدث بعد قضاء السهرة فى منزل شارع «نوتردام دى شان» أن يطلب كل منهما من فيكتور هيجو تلاوة الأشعار التى نظمها فى يومه أو يحدث أن يطلب فيكتور هيجو من سانت بيف هذا الطلب، فيضطر إلى القبول وهو خجل. وكان هيجو فى نفس الوقت يحرض ليوبولدين الصغيرة وشارلوت على إحداث بعض الضجيج عندما يكون سانت بيف ماضيا فى القراءة. فترفض ليوبولدين كما ترفض شارلوت. وهكذا كانت تسمع الأشعار الطريفة «لجوزيف ديلورم».

لم يكد عام واحد يمر على ظهور جوزيف ديلورم، حتى أخرج المؤلف فى ديسمبر عام ١٨٢٩، وتحت اسمه الحقيقى هذه المرة مجموعة جديدة من الأشعار ونفى بها «التعزيات». وكل الكتاب ينشر عبق البر الصادق القوى لشخص فيكتور هيجو.

كان سانت بيف فى تلك الحقبة من حياته يقاسى آلام رغبة شديدة.. رغبة التناول والزواج. ولهذا فإن إهداء ديوانه هذا هو نوع من التوسل الخفى، الذى لا يمكن أن نفهم معناه الحقيقى اليوم ونستطيع أن نقول كذلك إنه كان فى تلك الآونة متصلا اتصالا روحيا متينا بمؤلف «كرومويل»، ولكنه لم يقلده أو يتوخى طريقته. فهو لم يتأثر أبدا بذلك الأسلوب الوهاج، وكان ينظر إلى تراث العصور الوسطى

الرومانتيكى على أنه من ألوان الوباء أو الطاعون الذى يجب اتقاؤه والبعد عنه. وديوانه هذا عبارة عن نوع من المراثى الحنونة. هى محادثات واستعراضات، ومطالعات، أو حوادث أخرى أليفة، تكون جوهر هذه المقطوعات التى أملتها يد الوحى الخفيفة اللطيفة، والصافية الرائقة ولكن هذا الكتاب لا يخلو من مواضع تعرض فيها الرغبات والشهوات عرضا مكشوفا. وكذلك مواضع أخرى، يتجلى فيها الذوق الذى يميل إلى البر والتقوى، ولكنها ألوان أخرى من البر والتقوى غير التى نعرفها ونمارسها!

إن الدين بالنسبة لسانت بيف يمكن أن يشبه بعملية «التتبيل» التى تعطى شعره الطعم اللائق المناسب.

وكم من مرة أغلق سانت بيف حجرته على نفسه وانغمس فى قراءة «اعترافات سانت أوجستيت»! لقد كان يفعل ذلك ليسبح فى أجواء الخيال، ويرسم لنفسه صورة غريبة.. صورة الحبيب الذى قاسى الأهوال من قبل حبيبه، وتردى فى هوة الهلاك! تحت هذا التلوين التصوفى الحسى - إن صح هذا التعبير - أخرج كتاب Les consolations لينا ومؤثرا إلى درجة كبيرة. أما العنصر الأول من هذا التلوين فيختص بمدام «ف. هـ.» التى يصفها بقوله:

هى أكثر نضوجا من شجرة الكرم التى تنمو على مدخل الغار

والآن لابد أن تذكر أيها القارئ هذه المرأة السعيدة التى كان صدرها يعلو ويهبط وهى تتنهد عن قلب من نار! وذلك الشاعر الذى يظن أن:

هذه السماء ستبقى زرقاء، بعد أن نختفى نحن من هذا الوجود

والذى يبحث عن فكرة تعزيه وهو فى غمرة سعادته:

نولد، ونعيش، ونموت، وفى نفس المنزل

مضت عدة سنوات على نجاح كتاب سانت بيف وهو نجاح هادئ سعيد. ثم ظهر الشاعر بهيئة جديدة، فقد طبع فى عام ١٨٣٧كتابه «أفكار أغسطس». وكان ذلك عقب عودته من جنيف وقد تقاسم قلبه الحب الأرضى والحب السماوى، وظلا

فى صراع دائم حتى استنزف كل منهما قوى صاحبه، ونضب معينهما فى قلب الشاعر. وكان الربيع قد ولى ومضى، وماتت فى نفسه أشياء كثيرة، ولكنه كان لا يزال يتمتع بمقدرته العجيبة على الفهم. ولقد قال يصف نفسه فى هذه الفترة من حياته: «كان الذكاء يطل على هذه المقبرة، كأنه القمر الميت الشاحب!» وكذلك جف جدول تمنياته وثقته، فخلا كتابه الجديد «أفكار أغسطس» من عنصر الحب.

ولنرجع إلى شخصية سانت بيف. لقد وصل صاحبها إلى قصده لأنه كان يجب عليه أن يخرج من بين السحب، ويجول فى مكان ما! ولقد كان الشعر يطفو تارة على وجه هذه الأمواج الفكرية ويغوص أخرى ولكن الحقيقة أن سانت بيف وجد ميدانا جديدا فى مجموعة أشعاره الأخيرة. ولذلك أخذ يتساءل عما إذا كان «رويار كولار»، و «بوالو» يمكنهما معا أن ينتجا شيئاً من الشعر الحديث.

وسانت بيف يظهر لنا فى أحواله الثلاثة - التى تشرحها لنا كتبه الثلاثة، كذلك الرجل المتفجر العواطف، السوداوى المزاج، والرجل الذكى الحاذق، وأخيرا الرجل المتألم الشاكى. أما أحوال الرجل الأخرى فهى بنت المصادفة، ووليدة الظروف. فلقد رأيناه فى «جوزيف ديلورم» تثور فى نفسه الرغبات الجامحة، وتنعكس على صفحة حياته الآلام التى أورثتها له أيام طفولته الأولى. وهذه الناحية الأخيرة ناحية الألم والتعاسة، هى التى يحاول المرء أن يتخلص منها. فالمرء يعتقد طويلا أنه تعيس، وأنه صاحب ألم عظيم. ولكنه بعد ذلك، يعلم فى يوم ما، أنه كان مخدوعا وأنه حتى فى فترات الألم الشديد كان يعيش الحياة العادية.

وكتاب سانت بيف الثانى Les consolation يعبر تماما عن هذه الفترة من الحياة. فقد أظهر الكتاب سانت بيف فى حالة تقرب من الهدوء والرضا. وذلك لأن عواطفه كانت قد انصهرت وفصلت عن العناصر الغريبة الضارة. ولهذا السبب نرى أسلوبه قد عَذُبَ، ولانت طريقة صياغته وتعبيره.

ولكن الرغبة - التى تستطيع بمفردها أن تطعم الأشياء بعنصر الجمال - أخذت تخبو شيئا فشيئا مع تقدم السن حتى خمدت فى نهاية الأمر.

لا شىء اذن سيضحك ويبتسم بعد ذلك، والوداع لتلك الأسرار الساحرة

العظيمة التى تملأ لنا الطبيعة، وتجعلنا نتسلى بالحياة فى عالم باسم! هنا يتعب المرء ويجهد بعد السير الطويل. هو فى مرحلته هذه لا يعطى شيئا للحياة، بل يتقاعد، ويجد نفسه قد خُدع فيفكر هو الآخر فى الخيانة والخداع!! وهنا يشعر المرء ببغضاء كريهة تتسلط عليه وتجعله يكره نفسه، كما يكره غيره من الناس. ولكن الذكاء سرعان ما يقف على قدميه ويتسلط ويحكم على أطلال هذه العواطف والشهوات الخطرة. ولا يهم المرء حينئذ إلا الفهم والشرح، ولا يقيم وزنا للقول إلا إذا كان يطفئ شهوة حب الاستطلاع.

فى هذه المرحلة من مراحل الحياة يقدم لنا سانت بيف «أفكار أغسطس».

وهنا يلاحظ القارئ أننا بتتبعنا آثار هذا الشاعر قد تتبعنا فى نفس الوقت حياة (الرجل).

والآن لا يجب أن نطرح جانبا، أو ننبذ شيئا من هذا الشعر فلقد رسم لنا لوحة رائعة للنفس الإنسانية المتشوقة، التى تتربع على قمة الفطنة والذكاء، والتى تتشابك فيها العناصر وتتعقد. وهى نفس فريدة لم تنتج مثلها الحضارات القديمة!

* * *

بيكون

١٥٦١ ــ ١٦٢٦ م
مؤسس منهج البحث فى العلوم الطبيعية

فرنسيس بيكون أحد أعلام الثورة على الفلسفة اليونانية القديمة والمنطق الصورى وفلسفة العصور الوسطى ويعتبر أيضا مؤسس المنهج الاستقرائى ــ منهج البحث فى العلوم الطبيعية. نعم استخدم هذا المنهج قبل بيكون علماء سابقون ومعاصرون ولكن لبيكون الفضل فى إعلان هذا المنهج وبيان قيمته وتفصيل مراحله..

ولد بيكون فى الثانى والعشرين من شهر يناير ١٥٦١ فى مدينة لندن من أسرة كريمة أبوه السير نكولاس بيكون يتربع فى منصب من أسمى مناصب الدولة وكان نابغا نابها ذائع الصيت واسع الشهرة قد خفت اسمه فما ذاك إلا لأن ذكر ابنه قد طغى عليه فبدده فى ظلاله فكأنما كانت أسرة بيكون تسير نحو العبقرية صاعدة جيلا بعد جيل حتى بلغت الذروة فى فرانسيس بيكون وكانت أمه سليلة بيت عريق حصلت من العلم وأصول الدين قدرا محمودا فأخذت ترضع ابنها من علمها الواسع ولم تدخر وسعا فى تنشئته وتكوينه منذ نعومة أظفاره لتخرج منه رجلا قويا، ولما بلغت سنه الثانية عشرة أرسل إلى جامعة كيمبردج، حيث لبث أعواما ثلاثة ترك الجامعة بعدها ساخطا ناقما على مادة التدريس وطريقته على السواء فقد كره ذلك الجدل الفارغ العقيم الذى لا ينتهى فى أغلب الحالات إلى شىء ذى غناء.

وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى انخرط فى سلك الوظائف السياسية فعين فى السفارة الإنجليزية فى فرنسا ولبث هناك عامين ثم باغته القدر بموت أبيه فعاد مسرعا إلى لندن وما هو إلا أن أخذت مواهبه الأدبية فى الظهور والذيوع فانتخب عضوا فى مجلس النواب وسرعان ما جذب إليه الأنظار لبلاعته الساحرة

وبيانه الخلاب.

ولما كان عام ١٥٩٥ أهداه صديق له معجب بنبوغه هو الايرل اسكس ضيعة درت عليه ثروة طائلة عريضة هيأت له أسباب الترف والنعيم وكانت هذه الهبة العظيمة من ذلك المحسن الكريم جديرة أن تأسر بيكون، ولكن حدث لهذا الصديق أن فترت بينه وبين الملكة اليصابات ما كان بينهما من روابط وصلات واستحكمت بينهما الخصومة واشتد النفور فدبر أسكس هذا مؤامرة خفية يريد بها أن يزج الملكة فى ظلمات السجن ثم يرفع إلى العرش ولى عهدها وكاشف بيكون بما صحت عليه عزيمته وهو لا يشك فى أنه إنما يكاشف صديقا مخلصا، ولكنه لشد ما دهش حين أجابه بيكون باحتجاج صارخ على هذه الخيانة الشائنة ضد مليكة البلاد وبإنذاره أنه سيؤثر ولاءه للملكة على عرفانه للجميل، ومضى أسكس فى مؤامرته وحشد جيوشا سار بها إلى لندن لكنه هزم وقبض عليه وكان بيكون عندئذ فى أكبر مناصب القضاء فلم يتردد فى اتهام الرجل الذى أكرمه وأحسن إليه حتى حكم عليه بالإعدام.

ويرى الكثيرون فى ذلك نقطة سوداء فى حياة بيكون ويعدونها من أوضح مظاهرانتهازيته ورغبته فى تملق الملوك ولو على حساب أخلص أصدقائه، على حين أن كُتابا آخرين يرون أن بيكون لم يفعل إلا ما يحتمه عليه الواجب وأن تهمة الخيانة ثابتة على أسكس فلم يكن مفر من الاشتراك فى إدانته، وعلى أية حال فقد أكد بيكون نفسه أنه آثر مصلحة الوطن ـ ممثلا فى شخص الملكة ـ على علاقته الشخصية بصديقه وكان يرى فى ذلك مبررا كافيا لسلوكه.

وبعد عامين من إعدام اسكس توفيت الملكة إليزابيث واعتلى جيمس الأول عرش إنجلترا وانتعشت آمال بيكون فى الحصول على منصب حكومى كبير يدر عليه دخلا يضمن له حيتة مستقرة ذلك لأنه كان قد بذل محاولات متعددة للحصول على منصب كبير فى عهد إليزابيث ولكنه لم يتلق إلا وعودا ولم يصل إلى شىء مما كان يطمع فيه. وفى سنة ١٦٠٧ تولى بيكون أول منصب عام يصبو اليه وهو منصب المدعى العام. وفى سنة ١٦١٣ أصبح حامل الأختام الملكية وفى سنة ١٦١٨ عين كبيرا للمستشارين ومنح لقب «لورد فيرولام» ثم منح لقب «الفيكونت» سنة ١٦٢١.

وعندما بلغ نجاح بيكون فى ميدان المناصب العامة هذه القمة. بدأ يتدهور بسرعة فقد اتهم بالرشوة وبأنه يتقاضى هدايا من المتهمين قبل محاكمتهم وأثناءها وحاول الإنكار فى البداية ولكنه اضطر إلى الاعتراف بتقاضى الرشوة وإن كان قد أكد مع اعترافه هذا أمرين: أحدهما أن هذه الهدايا لم تؤثر فى الأحكام القضائية التى أصدرها والآخر أن تقاضى الهدايا كان أمرا شائعا فى بلاده فى ذلك الحين حتى بالنسبة إلى مناصب القضاة وقد كان بالفعل صادقا فى المسألة الثانية على الأقل ويبدو أن حاجته إلى المال وديونه التى ظلت تتراكم طوال حياته وتعوده حياة البذخ والمتعة كل ذلك جعله يغض الطرف عن المصدر الذى يحصل منه على المال أو الوسيلة التى يأتيه بها يهذا المال وعلى أية حال، فقد أدانه مجلس اللوردات وحكم عليه بغرامة مقدارها ٤٠ ألف جنيه والحبس فى البرج طوال الوقت الذى يشاؤه الملك وعدم تولى أى مناصب فى الدولة أو الاقتراب من البرلمان أو المحاكم ومع ذلك، فقد أعفاه الملك من الغرامة ولم يدم حبسه إلا أيام قلائل، وأن يكن قد حرم بالفعل من تولى المناصب العامة بعد ذلك ومن الواضح أن تخفيف العقوبة على هذا النحو دليل على أن جريمته لم تكن شيئا خارجا عن المألوف فى ذلك الحين.

ورغم أن بيكون قد تفرغ بعد نكبته هذه لحياته الخاصة ولمشروعاته العلمية الواسعة فإن صحته التى لم تكن قوية فى وقت من الأوقات ـ قد بدأت تتدهور بسرعة وكان موته مرتبطا ارتباطا وثيقا بالهدف الرئيسى لحياته الفكرية وهو تحويل العلم إلى ميدان التجربة العلمية. ففى أثناء تجربة بدا له أن يجريها فى يوم مثلج شديد البرودة لكى يختبر تأثير التبريد فى منع التعفن، أصيب ببرد قاتل، وتفاقم المرض بسرعة فتوفى فى التاسع من أبريل سنة ١٦٢٦، وكان عندئذ فى الخامسة والستين من عمره.

مؤلفات بيكون

كان «تقدم العلوم» فى طليعة الإنتاج الأدبى لبيكون وهو كتاب فيه جانب من فلسفته ثم هو فى الوقت نفسه يذكر لوضوح عبارته وجودة بنائها.

ولكن آيته الأدبية التى استحق من أجلها أن يذكر علما من أعلام الأدب هى مجموعة «مقالاته» فإليه يرجع الفضل فى إدخال «المقالة» فى الأدب الانجليزى.

ومما يميز أسلوب بيكون فى «مقالاته» التركيز الشديد فمعنى ضخم فى لفظ قليل. على أن بيكون لم ينته بكتابة «المقالة» كما بدأها فقد نشر من المقالات أول ما نشر عشرا وكان ذلك سنة ١٥٩٧ وكانت المقالة فى هذه البداية قصيرة مركزة حتى لكأنها مجموعة من الحكم فلما كان عام ١٦١٢ أعاد كتابة هذه المقالات الأولى ووسع فيها ثم أضاف إليها مقتسبات وحكايات ونشر معها إحدى وعشرين مقالة جديدة.

عندما تولى جيمس الحكم (جيمس السادس ملك اسكتلندا وقتئذ باسم جيمس الأول أول ملوك اسكتلندا على بريطانيا) أراد بيكون أن يتقرب إليه ويلفت نظره إلى مشروعاته فنشر فى عام ١٦٠٥ كتاب «النهوض بالعلم» باللغة الانجليزية وأهداه إلى الملك وقد حمل بيكون فى هذا الكتاب على تعاليم المدرسين ونبه إلى الطريقة التى يراها كفيلة بالنهوض بالعلوم (وقد أعاد بيكون نشر هذا الكتاب فيما بعد، بعد ترجمته إلى اللاتينية وإدخال إضافات كثيرة عليه بعنوان: «قيمة العلم والنهوض به» فى عام ١٦٢٣). وعمل بيكون بعد ذلك على نشر آرائه فى مجموعة كبيرة من المؤلفات اللاتينية التى لم تنشر خلال حياته والتى تضمنت أفكارا تكرر معظمها فى كتبه الرئيسية وقد بلغ عدد هذه المؤلفات اثنى عشر كتابا وفى عام ١٦٠٩ نشر بيكون كتاب «حكمة الأقدمين» وبدأ فى وضع خطة كتابه الأكبر « الأحياء العظيم»، وكان بيكن يتوقع أن يكون هذا الكتاب أعظم ما كتب بحيث يعبر فيه عن نفسه بحق ويبلغ رسالته إلى العالم.

وكانت خطة الكتاب «الاحياء العظيم» كما رسمها بيكن فى البداية تقضى بأن يتألف الكتاب من ستة أجزاء لم يستطع بيكن أن يتم إلا واحدا منها، وحتى فى هذه الحالة ظهر الكتاب ولما يكتمل بناؤه بعد ولنتأمل عناوين هذه الأجزاء كما أراد بيكون أن تكون:

١ـ أقسام العلوم: وهو تصنيف للعلوم لم يكتبه بيكن فعلا ولكنه استعاض عنه مؤقتا بالجزء الثانى من كتاب «النهوض بالعلم» ورأى أن هذا الجزء يفى بالغرض حتى

يتم هو تأليف كتاب خاص فى الموضوع وهو ما لم يفعله قط.

٢ـ الأورجانون الجديد، وعنوانه الفرعى هو: « إرشادات فى تفسير الطبيعة».

٣ـ ظواهر الكون، أو تاريخ طبيعى وتجريبى تبنى على أساسه الفلسفة.

٤ـ سلم العقل: ويوضح الطريقة التدريجية فى تطبيق المنطق على تفسير الوقائع التى جمعت فى المرحلة السابقة.

٥ ـ التمهيدات أو استباقات الفلسفة الجديدة: وهذا الجزء يقدم صورة تمهيدية للمعرفة الجديدة وللقوة التى يكتسبها الإنسان عندما يتم «الاحياء».

٦ـ الفلسفة الجديدة أو العلم الإيجابى: وقد صرح بيكون بأن قدراته لن تمكنه من كتابة هذا الجزء الأخير الذى سيكتبه العلماء أنفسهم بأبحاثهم والمفكرون بآرائهم المبنية على دراسة سليمة للواقع وكان يكفيه أنه بدأ السير فى الطريق، وعلى البشرية أن تكمل ما بدأ.

* * *

تايلور. فردريك

١٨٥٦ - ١٩١٥م
أبو الإدارة العلمية الحديثة

إن الدولة التى تسبق إلى اكتشاف طرق أفضل لتدريب طبقة الإداريين والاحتفاظ بالروح المعنوية للعمال، لابد أن تسبق الدول الأخرى فى مضمار الاستقرار والأمن والتقدم.

ومشكلة اكتشاف الأفراد الذين يصلحون للقيادة الإدارية، مشكلة أكثر أهمية بالنسبة للدول النامية عنها فى الدول المتقدمة صناعيا، ذلك لأن المؤسسات الصناعية أو التجارية خصوصا ليست مجرد منظمات تهدف إلى الوصول إلى غاية اقتصادية فحسب، ولكنها تشكيل يجمع جهود مجموعة من الناس للوصول إلى غاية مثمرة فى المجتمع ومن هؤلاء الناس العمال ورجال الإدارة والعملاء والمستهلكون او بمعنى آخر المجتمع بأكمله.

تدل الأبحاث العلمية الحديثة دلالة قاطعة على أهمية الدور الذى يقوم به المدير أو المشرف، بل ربما كان هو أهم عامل فى البيئة الاجتماعية النفسية للعمل، إذ أن المدير يمثل الإدارة فى أعين مرؤوسيه أو عماله، كما أن درجة تكيفه النفسى ومدى مرونة شخصيته وأسلوب سلوكه، يؤثر فى سلوك وإنتاج من يشرف عليه ويحدد مستوى الروح المعنوية بينهم.

القيادة الإدارية الناجحة في الواقع خليط بين أسس الإدارة العلمية والعلاقات الإنسانية، مع الاستيثاق من أن أهداف التنظيم وأغراضه تستهدف المصلحة المشتركة لكل من يعمل فيه، وهى فى الوقت نفسه إدارة متحركة تتصف بالمرونة

وتتكيف مع الظروف المتغيرة.

وقد لمس فردريك تايلور واحدة من أهم مشكلات عصر الثورة الصناعية والتفوق الآلى محرزا بذلك انتصارا فى ميدان من أهم ميادين العمل الصناعى.

وفى ذلك الوقت كانت هناك مشكلة هامة تنحصر فى الشك الذى بدأ يتسرب إلى النفوس فى أن الثورة الصناعية الهائلة، أخذت تعجزعن تحقيق وعودها.

فالثورة الصناعية التى أحدثت تغييرات جذرية فى أساليب الإنتاج وساعدت - بإتباع سياسة الإنتاج على نطاق واسع - على زيادة نزوة الأمم التى اتبعت أساليبها.. هذه الثورة سرعان ما اصطدمت صداما مباشرا مع نقيضين هما:

١- الحاجة المستمرة إلى تحقيق المزيد من الربح للمؤسسة الصناعية الرأسمالية.

٢- حاجة العاملين فى تلك المؤسسات إلى زيادة دخولهم.

وبدأ تايلور دراساته التى ما لبثت أن اتخذت شكلا علميا وتبلورت فيما يعرف الآن بالإدارة العلمية.

ولد «فردريك وينسلو تايلور» عام ١٨٥٦ من أبوين أمريكيين ميسورى الحال. وقد كانت أسرته تعده لأن يصبح محاميا ولكنه - من كثرة ما قرأ - أصيب وهو فى سن التاسعة عشرة بمرض فى عينيه، أرغمه على التخلي عن الدراسة. وفى عام ١٨٧٥ بدأ فترة من التلمذة الصناعية استمرت ثلاث سنوات التحق بعدها بمصنع «ميدفيل» للصلب، حيث استطاع خلال السنوات الست الأولى من التحاقه بذلك المصنع التدرج من وظيفة خراط إلى منصب كبير المهندسين.. وهذه طفرة تصور لنا معدن هذا الرجل ومدى كفايته ومقدرته فقد كان مخترعا ذكيا وصاحب اكتشافات هامة فى صناعة الصلب. وقد دفعه طموحه إلى الاستزادة من العلم ولم يلبث أن حصل فى وقت فراغه على درجة ماجستير في الهندسة.

وقد كان يضطر خلاله سنواته الأولى كعامل عادى إلى مسايرة زملائه فى تعمد الحد من كمية الإنتاج. ولكنه بعد أن رقى إلى منصب رئيس عمال آلى على نفسه أن يحمل رجاله على القيام بنصيب عادل معقول من الإنتاج وساعدته خبرته

السابقة على أن يحدد ذلك النصيب المعقول. ولم تكن محاولته تلك بالمهمة اليسيرة، فقد كان تحديا لما يعتبره العمال حقا من حقوقهم التى لا تقبل الجدل أو المناقشة، إذ كانوا هم الذين يحددون كمية الإنتاج والوقت اللازم له.

وقد أدرك «تايلور» منذ البداية أن مشكلة الإنتاج فى الصناعة الأمريكية أساسها الجهل: جهل رجال الإدارة بما يستطيع العمال إنتاجه بل وبما يجب عليهم إنتاجه وجهل العمال بالطرق التى تؤدى إلى زيادة إنتاجهم لو قامت الإدارة بمعاونتهم فى هذا السبيل وأن زيادة الإنتاج إنما تعود عليهم بالفائدة والجزاء.

كذلك رأى «تايلور» أن العمل فى الصناعة الأمريكية يقوم على وسائل ارتجالية مبنية على تقاليد بالية، إذ كان الصانع يتعلم الحرفة فى أثناء تلمذته عن طريق تقليد زملائه فى المصنع دون تفكير أو تدريب. وما أن يتمكن من إتقان تلك الحرفة، حتى يبدأ فى مسايرة زملائه فى طريقة العمل. ويقبل - دون احتجاج او معارضة - ما قد يعطل إنتاجه من تأخير فى ورود الخامات أو المهمات أو استعمال العدد التالفة.

وكانت الإدارة لا تتدخل فى تحديد الإنتاج بل تترك ذلك للعمال. فإذا رغبت فى زيادته لجأت إلى وضع مكافآت مالية، حتى تشحذ من همتهم. رأى «تايلور» كل هذه العوامل فبعث فى نفسه الرغبة فى القيام ببحث علمى اختار له أحد الخراطين ودأب على ملاحظته أثناء قيامه بالعمل محاولا بذلك تحليل عمله خطوة خطوة، باحثا عن العوامل التى تؤدى إلى بطء العملية. ثم انتهى من بحثه هذا إلى تقرير مبادئه المعروفة بمبادئ «الإدارة العلمية»، وهى تتلخص فى أن الإدارة يجب أن تنظر إلى العمل على أنه مركب منطقى محدد بأسباب ومسببات.

ترك «تايلور» مصنع «ميدفيل» عام ١٨٩٠ وأخذ يقوم بأبحاث مستقلة فى الصناعة لعدة سنوات ثم التحق بشركة «بتلهيم» للصلب عام ١٨٩٨، وكانت من أكبر الشركات فى صناعة الصلب بأمريكا وقام فيها بتجربة جديدة لاختبار مبادئه. وقد أدت هذه التجربة إلى نتائج باهرة، ذلك أنه تمكن من أن يجعل عاملا واحدا يقوم بتحميل سبعة وأربعين طنا ونصف طن من الصلب فى عربات السكة الحديد فى يوم عمل واحد فى حين كان خمسة وعشرون عاملا - قبل القيام بهذه التجربة -

يحملون اثنى عشرا طنا ونصف طن فقط فى اليوم. وتمكن بذلك من أن يوفر للشركة ٧٥ ألف دولار فى هذه العملية بالذات وأمكنه فى الوقت نفسه أن يزيد دخل العمال بنسبة ٦٠٪، وأثبت لأصحاب الأعمال عظم الفائدة التى تعود عليهم إذا ما عالجوا مشكلات الإنتاج فى مؤسساتهم على أساس علمى سليم وذلك بدراسة طرق العمل دراسة ذكية مفصلة.

أخذ «تايلور» بعد ذلك يبشر بمبادئه. وقد ظهرت مدرسة تؤمن بتلك المبادئ ولم يحدث فى حياته العملية أن أضرب العمال احتجاجا على ما كان يقوم به من دراسات، مع أن هدفه كان أن يتم العمل بأقل عدد من العمال وبأقل قدر من التكاليف.

ولكن بعض تلاميذه بلغت بهم الحماسة فى تطبيق مبادئه حدا أثار العمال، فجعلوا يقاومونها خوفا من تنتهى إلى الاستغناء عن خدماتهم، وحدث فعلا أن قام إضراب كبير فى إحدى الترسانات التابعة للحكومة، وطلب «تايلور» شاهدا أمام لجنة تحقيق تألفت فى الكونجرس الأمريكى لبحث التهمة التى وجهها العمال إلى المشرفين من أنهم كانوا يدينون بمبدأ «التايلورية» ويحاولون تطبيقها عليهم. وكان مما قاله تايلور أمام هذه اللجنة:

«ليست الإدارة العلمية هى ايجاد طريقة لإنقاص التكاليف ولا هى صياغة قواعد لتنظيم العمل الإشرافى ولا هى دراسة الوقت أو الحركة.. ولكنها ثورة عقلية شاملة من العامل وصاحب العمل نحو مشكلة الإنتاج. وهذه الثورة تتطلب من كلا الطرفين إلا يعطيا الاعتبار الاول من تفكيرهما لمقدار الربح الذى يمكن أن يناله كل من الآخر، بل يجب على الطرفين أن يعملا على زيادة الإنتاج قبل كل شىء حتى يزيدا الأرباح ويزيد نصيب كل منهما منه. كما يجب على الطرفين أن يعملا على القضاء على الأساليب التقليدية البالية التى كانت تتحكم فى سير العمل، وأن يستبدلا بها الأساليب العلمية الصحيحة التى تعتمد على الأبحاث المنسقة».

ولقد لقيت آراء تايلور فى انجلترا نفس المصير الذى لقيته فى أمريكا على يد اتحادات العمال.

وقد سجل لتايلور فى حياته ما يربو على مائة فكرة فى ميدان الإدارة العلمية، وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين (١٩٠٦)، وساهم فى تنظيم جمعية تقدم علم الإدارة (١٩١١)، التى أطلق عليها اسم «جمعية تايلور» بعد وفاته. وابتكر «تايلور» قواعد علمية لاختبار عمال مختلف الصناعات وعمال البيع. كما ابتكر أسسا إدارية أشرف بنفسه على تطبيقها حتى آتت ثمارها. وقد شرح ما وفق إليه من ابتكارات فى كتابين هما: «مبادىء الإدارة العلمية» و«إدارة المصنع».

* * *

تشوسر

١٣٤٠ - ١٤٠٠م
أبو الشعر الإنجليزى فى عصره

يمتاز الشعر دائما على النثر ويسبقه فى هذا التفوق فى تاريخ آداب العالم كلها، ويتصدر كبار الأدباء الإنجليز الذين تتبادر أسماؤهم إلى الأذهان، اسم الشاعر الإنجليزى «جيوفرى تشوسر».

وإلى جانب عظمة ومقدرة تشوسر الشعرية فإنه يمثل حقبة طويلة بميزاتها وخصائصها فى الأدب الإنجليزى.. تلك الحقبة هى القرن الرابع عشر الذى انتهى بانتهاء حياة تشوسر. ويعد تشوسر شاعر إنجلترا الأول ولذلك يسمى «أبو الشعر الانجليزى».

حياة الشاعر

تتردد آراء كثيرة حول التاريخ الصحيح لمولد تشوسر، ولكن يمكننا القول بأنه ولد حوإلى عام ١٣٤٠ ومات عام ١٤٠٠.

وقد أمضى تشوسر جانبا كبيرا من حياته فى السفر والترحال خارج إنجلترا، فقضى الكثير من حياته متنقلا بين فرنسا وإيطاليا وهولندا، هذا إلى جانب رحلاته العديدة داخل إنجلترا نفسها، ولذلك نستطيع أن نتبين أثر هذه الزيارات للبلدان الأجنبية على شعره، وخصوصا زياراته لإيطاليا وفرنسا اللتين يدين تشوسر لأدبائهما بالكثير أمثال «بوكاشيو» كما ساعدته هذه الرحلات على اتساع دائرة معارفه فى مجالات الأدب والثقافة.

وكان الشعر فى فرنسا وإيطاليا في القرن الرابع عشر قد وصل إلى مرحلة النمو والكمال، بينما كان الشعر الإنجليزى لا يزال فى محاولاته الأولى للوقوف على

قدميه.. وقد أفاد تشوسر كثيرا من خبرات شعراء فرنسا وإيطاليا واستمد منهم الدافع والمثال لكى يصبح بعد ذلك شاعر إنجلترا الأول، متخذا لنفسه بذلك مكانا بين شعراء العالم. وقد كان هؤلاء الشعراء - شعراء فرنسا وإيطاليا - بالنسبة لتشوسر كشعراء اليونان والرومان بالنسبة لعصر النهضة فى إنجلترا بعد موت تشوسر بقرنين من الزمان، وبواسطة هؤلاء الشعراء الفرنسيين والإيطاليين، استطاع تشوسر أن يسيطر على الشعر الإنجليزى فى عصره حتى لقبه شعراء عصره بأنه «الزعيم».

ولقد كانت حياة تشوسر حافلة ومتعددة الجوانب. فقد ولد لأب يعمل فى تجارة النبيذ، ولذلك فهو بورجوازى المولد، ثم عمل فى عدة وظائف، فعمل تابعا وسيدا ودبلوماسيا وموظفا فى عدة وظائف.. وقد انعكس هذا كله فى شعره الذى يعد بحق ترجمة صادقة لإنجلترا فى القرن الرابع عشر.. واستطاع من خلال وصف تجاربه وخبراته العديدة أن يصور المجتمع الإنجليزى فى تلك الحقبة، ويساعده على ذلك أيضا أسفاره العديدة إلى إيطاليا حيث التقى هناك ببوكاشيو وإلى فرنسا وهولندا وغيرها من بلدان العالم. وساعده كذلك فى هذا المضمار اتقانه لعدة لغات، وقراءاته الكثيرة للآداب العالمية التى أمدته بذخيرة وفيرة من التجارب والخبرات والثقافات تتجلى فى أشعاره بوضوح.

وقد قضى تشوسر شبابه وأيامه الأولى من رجولته فى فرنسا، وأمضى جزءا ليس باليسير من حياته المتوسطة فى إيطاليا، وأيامه الأخيرة بإنجلترا.

ونستطيع تبعا لتقسيم حياة الشاعر بهذا الشكل أن نقسم أعماله إلى ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى تتكون من ترجمات أو محاكاة الشاعر الإنجليزى للأدب الفرنسى فى أشكاله الفرنسية الأصيلة مثل «قصة الوردة» و«الشكاوى الثلاثة» و«كتاب الدوقة» وكذلك الأشعار الغنائية الصغيرة.

ونستطيع أن نتتبع فى المجموعة الثانية آثار أصولها الإيطالية مثل «ترويلوس وكريسيدا» و«قصص النساء الطيبات» و«قصة الفارس».

وتشمل المجموعة الثالثة أفضل قصص تشوسر التى تظهر فى «قصص

كانتربرى» والتى تعد إنجليزية مائة فى المائة.

وهذا التقسيم يوضح تطور فن تشوسر حتى وصل إلى التقدم العظيم الذى جعله رائدا للشعر فى عصره.

أعمال تشوسر النثرية

من أعمال تشوسر النثرية ترجمتان.. ترجمته لبوثيون وترجمته القصيرة التى لم تكتمل (لمقالة الاصطرلاب) وهو آله ملاحظة أوضاع النجوم ومراقبتها.

وهاتان الترجمتان تظهران مقدرة تشوسر على معالجة مواضيع تختلف عن بعضها تمام الاختلاف كما أنها تظهر لنا اهتمام تشوسر بعلم الفلك والتنجيم، هذا الاهتمام الذى استولى على رجال الأدب الإنجليزى وامتد حتى عصر (دريدن).

من مجموع أعمال تشوسر نستطيع أن نصل إلى حقيقة هامة بشأنه وهى أنه «شاعر قصصى» ممتاز، كما نستطيع القول أيضا أنه من أعظم شعراء إنجلترا الغنائيين.

ومن خصائص شعره أنه يعطينا الإحساس بأنه يراقب ويلاحظ، ولذلك فهو «دقيق الملاحظة».. أكثر منه شاعرا يكتب بوحى من مشاعره وخلجات نفسه. وحتى الأفكار التى يعبر عنها فى أشعاره نجد أنها أفكار ومشاعر الناس العاديين الذين يعرفون العالم حق المعرفة، وهو فى ذلك يتشابه مع شاعر البلاط (هوراس).

وإذا تحدثنا عن دور تشوسر فى تكوين الشعر الإنجليزى وإثراء اللغة الإنجليزية، نقول: إن تشوسر كان ينفرد بين معاصريه بأنه كان يضع الفن نصب عينيه.. كان الشعر عنده هو الشعر.. فلم يكن يهدف إلى الإرشاد والوعظ أو إصدار الأحكام على الناس والأحداث، وكذلك لم يكن فى مخططه أن يصلح الاخلاق أو يعرض فلسفة معينة يقصدها، بل كان الشعر هو هدفه الوحيد، وحتى آخر أيامه، كان جل همه هو أن ينشئ شعرا ينبض بالحياة، ويصطبغ بالسحر.

تولستوى

١٨٢٨ـ ١٩١٠م
من أكبر كتاب العالم

الأدب الروسى إذا لم يكن (نسيج وحده) فى آداب العالم القديمة والحديثة فإنه من الطراز الأول. واذا كان فى العالم من الآداب ما كتب له الخلود فإن قصص تولستوى وجوركى ودستويفسكى وغيرهم هى من خوالد الدهر التى لم تمت. بل هى أحرى بأن تكون مقياسا تقاس عليه آداب الأمم الأخرى فينسب إليها الفضل أو النقص بنسبة قربها أو بعدها عن الطريقة الروسية.

الكونت ليو بيكولايفيتش تولستوى روائى روسى وفيلسوف خلقى. ولد فى ٢٨ أغسطس (وقيل ٩ سبتمبر) سنة ١٨٢٨ بالقصر الريفى لوالديه فى ضيعة «ياسانيا بوليانا» فى إقليم «تولا» وكان آل «تولستوى» من الأسرات الروسية العريقة الحسب والجاه التى يرجع أصلها إلى القرن السادس عشر ولم تكن تمت إلى أصل ألمانى كما قيل فى كثير من الأحيان، كما كان تولستوى نفسه يعتقد. وقد كان جده الأكبر «بطرس اندرييفيتش» سليل وصيف فى بلاط القياصرة ولكنه استطاع بطموحه أن يصبح سياسيا لامعا وعين أول سفير لروسيا لدى الباب العإلى (تركيا) سنة ١٧٠١ حيث خاض مغامرات ديبلوماسية أدت إلى سجنه هناك وكادت تفضى إلى حرب بين تركيا وروسيا، وعندما أفرج عنه فى سنة ١٧١٤ عاد إلى وطنه حيث ساهم بنشاط كبير فى الأحداث السياسية وأنعم عليه القيصر بطرس بلقب «كونت». أما والد «ليو» فكان نيكولاس «نيقولا» إيليتش الذى تزوج من الأميرة مارى فولكونسكى، فحملت إليه ثروة دسمة وأنجبت له خمسة أبناء كان يحيط عليه القوم من أرقى مصاف الطبقة الوسطى ـ فى روسيا فى أواخر عهد الاستعباد والرقيق

مما جعل نظرته إلى الحياة تجمع بين آراء علية القوم وآراء الفلاحين المستضعفين.

ماتت أمه فى سنة ١٨٣١ ولحق بها أبوه فى سنة ١٨٣٧، فتولت تربيته بعض قريباته المسنات وكان يضطلع بتعليمه مدرسون فرنسيون خاصون ـ على ما كان شائعا فى الأوساط الراقية فى روسيا ـ إذ ذاك ـ فكانت المصادر الأولى لتكوينه الفكرى والثقافى مستمدة من النظم الفرنسية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر فلم يقدر له أن يتصل بالثقافة الروسية فى عصره إلا فيما بعد، وفى ظروف لم تكن لتشجعه على الميل إليها. وفى سنة ١٨٤٢ التحق «تولستوى» بجامعة «قازان» ولعلها كانت ـ إذ ذاك ـ أعظم مركز للعلم شرقى برلين ولكنه انصرف عن الجد فى دراسته، بل خامره ـ منذ البداية ـ نفور من الدراسات العلمية وأصبح يقضى معظم وقته فى الأوساط الاجتماعية فقد كانت «قازان» مركزا اجتماعيا للطبقة العليا فى روسيا، يلى «سانت بطرسبورج» و «موسكو» مباشرة. وقد كانت ذكرى هذه السنوات الحافلة بالسعادة النزقة مبعث اغتباط له فى كهولته. غير أن حب الجدل والتحرى والنقد كان قد بدأ يرسخ فى فكره وقد عزا التأثير «الهائل» الذى خلفته مؤلفات «روسو»على تفكيره إلى تلك الحقبة. ثم لم يلبث أن هجر الجامعة فى سنة ١٨٤٧ واستقر فى «ياسنايا بوليانا» معتزما أن ينصرف إلى الزراعة والإشراف على المزارعين ورقيق الضيعة. لكن المحاولة أسفرت عن فشل إذ وجد انه لم يؤت استعدادا لهذا العمل.

وقضى الشطر الأكبر من الأعوام التالية فى «موسكو» حيث استسلم للفساد والفوضى اللذين كان معظم شباب طبقته يعيشان فيهما اذ ذاك.

بيد ان ما سجله فى يومياته ـ التى بدأها فى سنة ١٨٤٧ ـ عن دراسته لنفسه ونقده إياها يشهد بأن الحياة العاطلة لم تكن ترضيه فلم يلبث أن بدأ ـ فى سنة ١٨٥١ ـ صفحة جديدة فى حياته إذ رحل إلى «القوقاز» وانضم إلى إحدى وحدات المدفعية كمتطوع من علية القوم، وأخذ يقضى أوقاته فى هدوء ودعه فى حاميات قرى إقليم «القوزاق» التى لم يكن يخفف من رتابتها سوى الخروج للصيد أو الاشتراك فى بعض الحملات ضد العصاة من أهل الجبال.

وفى سنة ١٨٥٢ فرغ من أول قصصه: «الطفولة»، وأرسلها إلى «نيكراسوف» - وكان رئيسا لتحرير أكبر مجلة أدبية - فتقبلها هذا متحمسا لها وبادر إلى نشرها وما لبث «تولستوى» أن رقى إلى مرتبة ضابط عامل.

وفى سنة ١٨٥٧ اعتزل الخدمة فى الجيش وقام فى السنة ذاتها كما قام فى سنة ١٨٦٠ بجولة فى الخارج لم يعد منها بغير استهجان حضارة الغرب المادية ثم استقر - بعد رحلته الثانية - فى «ياسنايا بوليانا» وقبل منصبا قضائيا أنشىء بمقتضى قانون تحرير الرقيق الذى صدر فى سنة ١٨٦١ للبت فى المنازعات المتعلقة بالأراضى بين السادة الإقطاعيين ورقيقهم السابقين. كما أنشأ مدرسة لأبناء الفلاحين على نظم جديدة مبتكرة مستمدة من إيمانه بأن مواهبهم الفطرية أرقى قيمة من المقاييس المصطنعة الزائفة التى خلقتها الحضارة المادية - وأصدر كذلك - صحيفة يومية لترويج آرائه التربوية.

أعماله الأدبية (١٨٥٢ - ١٨٧٦)

نبعت أعمال «تولستوى» الأدبية من مذكراته اليومية فقد كانت أصلا - محاولة للكشف عن تركيب وتفاعلات الحياة الداخلية للانسان لتحديد وإيضاح تفاعلات الوعى على حقيقتها. وكانت أولى محاولاته الأدبية هى «قصة الأمس» التى كتبها فى سنة ١٨٥١ ولم يقدر لها أن تنشر إلا فى سنة ١٩٢٦. وكان أول كتاب كامل نشر له - وهو (الطفولة) (سنة ١٨٥٢) أقل إسهابا فى التحليل وأكثر تمشيا مع القواعد المألوفة للأعمال الأدبية. وقد كشف عن إلمام بادق تفاعلات الوجدان وأكثرها خداعا فى مظهره فاق كل ما ظهر فى الأدب من قبل.

وفى تلك الأثناء برز صراع قدر له أن يظل مسيطرا على «تولستوى طيلة حياته.. الصراع بين الحياة الطبيعية المسترسلة من تلقاء ذاتها دون ما تفكير وبين مطالب العقل والقانون الخلقى.

ففى قصة «القوزاق» - التى كتبها فى سنة ١٨٥٤ ونشرت فى قالب لم يرض عنه فى سنة ١٨٦٢ - تنتصر للحياة الطبيعية.

ويجد تفاهة الإنسان المتمدين وخسته وحقارته معروضة بصورة واضحة فى «ضابطان من الفرسان» (التى كتبها فى سنة ١٨٥٦) و «لوسيرن» (١٨٥٧) و «ثلاث ميتات» (١٨٥٩) ثم فى «خولستومر» (١٨٦١) وهى صورة ساخرة فذة لحياة الطبقات الراقية فى روسيا.

ولقد كانت كل أعماله الأدبية الأولى موضوعية، تمثل الشخصية المبتكرة، المتأملة المحللة لما يدور داخل النفس.. شخصية «تولستوى» نفسه اما الشخصيات التى كان يعالج تحليل مشاعرها فكانت مجرد نماذج من الناس عامة.. مجرد صور للتفاعلات النفسية بين السبب والنتيجة خالية من كل طابع. ومن الأمثلة على ذلك الضباط الذين صورهم فى قصص «سيباستوبول» - فى سنة ١٨٥٥ - والذين حلل فيهم عنصرى الخوف والشجاعة.

وقد تجلت فلسفته - فى أكمل صورة - فى أولى رواياته الكبرى القليلة.. فى «الحرب والسلام» ثم عاد بعدها - لفترة من الزمن - إلى الكتابة فى الفلسفة التربوية كما قام بعدة محاولات فى ميدان الروايات التاريخية فكان مما كتبه رواية عن «بطرس الأكبر» لم يتمها إذ غشيه نفور طاغ نحو البطل الذى صاغه لها. وفى سنة ١٨٧٣ بدأ رواية «آنا كارنينا» التى ظهرت فى حلقات من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٧٧ وحوالي نهاية هذه الرواية بدأ يعانى الأزمة الطويلة الأمد التي أدت إلى انقلابه وقد بدت نذرها واضحة فى الجزء الأخير من الرواية.

وهاتان الروايتان هما أعظم تحفه الأدبية وهما تمثلان - إلى حد ما - ذروة ما بلغه فن كتابة الرواية الواقعية الحديثة من تقدم، بل إن الواقعية الأدبية تبلغ فيهما غايتها: دقة فى تصوير الواقعية الحية حتى ينتهى إلى أن يولد فى نفس القارئ الشعور - الذى يعهده قراء تولستوى - بأن أبطال قصصه يمكن أن يدرجوا بين الآدميين المخلوقين من دم ولحم، وليس بين الشخصيات الخيالية .

ولابد من أن نميز بين مرحلتين فى تحول تولستوى: الشعور الأول اللاذع بالقنوط والنفور من الحياة الجسدية الجائرة ثم الجهود التى راح تولسوى يبذلها - من جراء ذلك - لكى يصوغ هذه التجربة التصوفية الاعتزالية - فى جوهرها - إلى

مذهب منطقى متسلسل وقد روى «تولستوى» قصة تحوله كاملة فى كتاب «اعتراف» الذى كتبة سنة ١٨٧٩ ونقحه سنة ١٨٨٢ ونشر فى سنة ١٨٨٤ والذى اتسم بخيال تصويرى صادق وبلاغة هائلة يجعلانه فى مصاف «اعترافات» القديس أوغسطين. على أن مرحلة القنوط التى مهدت للتحول سجلت بأسلوب أعظم وأقوى فى كتيب وئد بمجرد نشره هو «مذكرات مجنون» (١٨٨٤). كما تجد التجربة ذاتها فى صميم أعظم قصتين كتبهما فى شيخوخته وهما: «وفاة ايفان ايلييتش» (١٨٨٤) و«الرب والإنسان» (١٨٩٥).

ولم يقدم «تولستوى» - فى البداية - على الترويج لعقيدته فلم تتخذ هذه العقيدة لونا اجتماعيا إلا بعد أن تجلى له البؤس الاجتماعى فى الأحياء الشعبية الدنيا فى «موسكو».

تعاليم تولستوى

وتقوم عقيدة «تولستوى» - كما عرضها فى «هذا ما أومن به» و «عرض سريع للأناجيل» - على الضوء الكامل فى الوجدان الإنسانى والذى يكشف لنا الله بوصفه الخير والعقل الأسمى وأن الله لا يتمثل فى شخص، فلا خلود للأشخاص وأن المسيح كان إنسانا عظيما ذا تعاليم صادقة.. لا لأنه كان ابن الله بل لأن هذه التعاليم تتمشى مع نور الوجدان البشرى وقد كان بوذا وغيره عظماء مثل المسيح فهو لا يحتكر الحقيقة والصدق.. ولقد كانت عقيدة «تولستوى» تتخذ الإنسان محورا لها فالله ومملكة الله «فى داخلنا» أى فى نفوسنا.. وهدف الإنسان هو أن يحقق السعادة الأمر الذى لا يتسنى إلا بفعل الصواب والخير وحب البشر أجمعين وتحرير النفس من شهوات الجشع واللذة والغضب.. وكل صور العنف إثم على السواء وليست الحرب وحدها بل كل أشكال الغضب الغريزية - فى الدولة - أساليب إجرامية فعلى المسيحى الصادق أن يحجم عن الاشتراك فيها فيرفض أن يجند ويأبى كل عمل تحت سلطان الدولة ولا يقبل أن يكون من المحلفين ومقاومة الحكومة بالعنف إثم كذلك ولا يمكن أن يؤدى إلى أى تحسين فى الحياة فالنشاط الثورى - ولو قام على شعور الحب للمظلومين - إثم.. لأنه يولد البغضاء والعنف

ولن يتحسن النظام الاجتماعى إلا إذا تعلم الناس جميعا أن يحب بعضهم بعضا.

أما المسرحيات التى كتبها «تولستوى» فترجع كلها إلى ما قبل تحوله الدينى عدا مسرحية فكاهية كتبها فى سنة ١٨٦٣ ونشرت سنة ١٩٢٦. ومن هذه المسرحيات: «سلطان الظلام» - وهى «دراما» قوية عن حياة الفلاح كتبها سنة ١٨٨٩ و«ثمار التنور» - وهى مسرحية فكاهية خفيفة لنقد نزوات المجتمع نشرت سنة ١٨٩١. و«الجثة الحية» التى نشرت سنة ١٩١١ والتى تجلى فيها وهن الشيخوخة.

* * *

توين، مارك

١٨٣٥ - ١٩١٠م
من أعظم كتاب أمريكا الساخرين

هو أعظم الأدباء الثائرين فى أمريكا فى القرن التاسع عشر، تجمعت فيه كل خصائص النثر الأمريكى التى ظهرت فى أسلافه من الأدباء، خصوصا روح الفكاهة، اسمه الحقيقى هو «صموئيل لانجهورن كلمنز» لكنه حين كان فى عامه السابع عشر اشتغل ربانا لسفينة تجارية فى نهر المسسبى، ومن عادة الربان أن يقيس عمق الماء بين آونة وأخرى، ويصيح لأحد البحارة قائلا - مثلا - «علِّم على واحد» «علم على اثنين» «علم على ثلاثة» وهكذا، ومن هذه الصيحات اشتق اسمه الذى اشتهر به، فـ «مارك توين» معناها الحرفى «علِّم على اثنين».

نقول إن «مارك توين» أبرز فى أدبه صفة التفكه التى عرف بها الأدباء الأمريكيون، التفكه الجاف، يقوله رجل خبر الدنيا ولم ينعزل عن الحياة فى برج من العاج، رجل خبر الحياة كما يحياها الناس فيلمح فيها ما يثير الابتسام، فلا يمتنع عن الضحك من غفلة الناس وغفلته معهم، وقد استعاد بذاكرته كل تجاربه فى صدر حياته، فاستمدها كثيراً من مادة أدبه، وأضاف إليها ما خلقه خياله.

لم ينل مارك توين بعد حظه الكامل من الاعتراف، فلقد توج عمله بكل ألوان التكريم عدا واحدا، هو الفهم الواعى. فسمحنا لسمعته أن ترتكز على عمله الذى يأتى فى المرحلة الثانية من الجودة. فنحن نعجب به بوصفه أعظم أصحاب الفكاهة الأمريكيين، ونتجاهله بوصفه من أعمق فلاسفة أمريكا. فإذا ضحكنا من فكاهاته، نسينا ما ينطوى عليه كثير منها من إيجاع. فلقد ركزنا عنايتنا فى قلنسوته ونواقيسه بحيث لم نر القديس بعد إذ تنكر فى ثوب المهرج.

ولا مراء فى أن مارك توين كان صاحب دعابة. بيد أن المازحين الذين على شاكلته هم رجال يعلو وجوههم الابتسام ويعمر قلوبهم الألم. فإنهم ليضحكون كما قال ذلك المتشائم الفكه الآخر فولتير، تفاديا للانتحار فلقد تعمقوا النظر فى كنه الأشياء فغلبهم الغباء المؤسف (للجنس البشرى اللعين) لذا اتخذوا لأنفسهم أقنعة هازلة إخفاء لما يحتجب وراءها من عبرات.

إن من عانى أعظم الألم، تعلم كيف يضحك أبلغ الضحك. فأصحاب الدعابة وأصحاب التهكم وأصحاب السخرية القاسية.. أطفال الأدب المشاكسون، هم الثائرون بالحياة الذين غُلبوا على أمرهم. فهم يثغرون أنوفهم بأصابعهم فى وجه القدر، لأنهم فى عجزهم يدركون أنه لم يعد لديهم إيماءة أخرى.

وكان مارك توين من أولئك الثائرين المغلوبين على أمرهم. كان يعتقد أن كل الجهاد البشرى مهزلة لا تهدف إلى شىء «قصة يرويها معتوه مليئة بالضجيج والصخب وليس لها من معنى».

فنحن نحاول أن نتخطف قوس قزح، فنغرق فى الحمأة. نلتمس الوصول إلى القمر فتتهشم عظامنا. وإن الآلهة لتطرب آمالنا العنيدة فى وجه هزيمتنا الدائمة. ولكننا أيضا فيما يعتقد مارك توين يمكننا أن نطرب إذا خففنا آلام هزيمتنا بمخدر الضحك. فإننا نستطيع النظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية بحيث ننعم بشهود آلامنا.

(تعلم كيف تألم كما يألم ممثل فى مسرحية الحياة. ولكن تعلم أيضا بوصفك أحد النظارة أن تبتسم لألمك الشخصى).

كان صمويل كلمنس ثمرة زمانه ومكانه. فهو ابن الحدود. لذلك واجه الحياة فى فكاهة عابسة كما واجهها جميع السابقين إلى سكنى هذه البقاع. وهذا الطراز من الدعابة كما يقول كاتب سيرته ألبرت بجلويين قد نما من ظُرف متميز، هو مغالبة الحدود، وكانت الحرب ميئوسا منها بحيث كان أخذها مأخذ الجد معناه الهزيمة. وكانت النساء يضحكن اتقاء للبكاء. وكان الرجال يضحكون حين لا يعودون قادرين على السباب. ونبتت من ذلك فكاهة الغرب. وهى أعذب الفكاهات وأبعدها عن التتميق، ولكن الأسى يكمن من خلفها. ولقد عرف صمويل كليمنس كثيرا من

مآسى الحياة وهو لم يزل طفلا. فلقد تربى فى قرية فى منتصف الغرب من فقراء البيض. فرأى الأرقاء يجلدون، والرجال يقتلون رميا بالرصاص فى الشوارع، وكان أبواه يعيشان عيشة الرحل، عيشة الحرمان خالية من الأمل والحب، وكانا دائما فى (الجناح الغربى) يسافران من شاطىء البحر إلى كنتوكى ومن كنتوكى إلى تنسى ومن تنسى إلى مسورى وفى مسورى ولد لهما صمويل (فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٣٥).

وكان أبوه رجلا تخلى عنه الناس، متوعك المزاج، فاتر الهمة، فكان قلما يلاعب أطفاله أو يبدى لهم أى حب، فوجد صمويل، ذلك الصبى الخشن الشكس الرث الضئيل الضعيف البنية العصبى المزاج أنه قد وقع تحت رحمة العالم التى لا ترحم وكانت سنه حينذاك أحد عشر عاما فأخرج من المدرسة وعمل صبيا لأحد الطابعين. وقد وصفه الطابع بأنه حدث ضخم الرأس، متطلخ الوجه بالحبر ذو قدرة متناهية على الكسل. وقد وقع فى زمرة متسكعى القرية، وعلم كل جوانب الشذوذ البشرى والأسى البشرى. وبعد سن الثانية والعشرين شاب رأسه حين مات أحد أخوته محروقا من أثر انفجار باخرة فى المسسبى. وفى سن الثلاثين بلغ من برمه بالحياة أنه «صوب غدارة مليئة إلى رأسه لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة على شد الزناد». فقرر أن يعيش وأن يترجم أساه ضحكا. بيد أن ما صادفه فى الحياة بعدئذ لم يتح له إلا فرص قليلة للضحك وإن جاءته بكثير من أسباب التعظيم فقد مات ابنه الأول بعد ولادته وأصيب ثان بالتهاب رئوى نتيجة لإهمال مارك توين بسبب شرود عقله. فلقد كان يركب مع الطفل ذات صباح ثلجى وكان متدثرا بأحلامه الشخصية فنسى أن يدبر الطفل على نحو يقيه البرد. ونجا طفل آخر بأعجوبة حين ترك مارك توين عربة الطفل بلا اكتراث عند قمة تل شديد الانحدار.

وبعد سنوات كثيرة، عاد من جولة محاضرات ناجحة حول العالم. فعلم أن (سوسى) أذكى أطفاله قد ماتت أثناء غيابه.

ثم كانت أقتم مآسيه جميعا. ففى الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٩ كانت ابنته جين قد أرهقت نفسها طوال اليوم استعدادا لحفلة عيد الميلاد. فأعدت الشجرة ولفت الهدايا بأناقة وكتبت عليها العناوين وصار كل شىء معدا للحفلة. وقبلت جين أباها على عادتها وآوت إلى مخدعها، وفى الصباح نعيت جين إلى

مارك توين. فلقد أصيبت بنوبة صرعية بينما هى تستحم. ما أندر من تطامنت له شهرة تفوق شهرة مارك توين وما أندر من فاقوه تعاسة. لقد تعلم كيف يضحك فى صخب، لكن صخبه كان ينطوى على مرارة.

وقضى مارك توين الشطر الأكبر من حياته وجل عنايته منصرف إلى التسلق فلم يكن ينشط لتأليف كتاب (ما لم يكن وراءه مال، ومال كثير) إذا استخدمنا قوله. لذلك كان يحذف – أو يدع أصدقاءه يحذفون – كثيرا من مرارة الكتب التى كان يؤلفها فى فترة (التسلق) فإن قراءه لن يفهموا، ولن يحسنوا جزاء التفكير الجدى. كتب بودنهد ولسن يقول: «ليست السخرية مما يلائم هؤلاء الناس. فإن بصرهم العقلى ليس مهيئا لإدراكها» لذلك قدم للناس سلسلة من الكتب وطائفة من القصص الصغيرة. يوجد فيها أقل ما يمكن من المرارة ممزوجا بأكثر ما يمكن من الحلاوة. وكان ذوقه الشخصى أسمى كثيرا من ذوق كثير من قرائه. وكان يدهش للعقلية الساذجة التى تستطيع الضحك من قصة باردة مثل The Jumping Frog بل ولم يكن فخورا بشكل خاص بقصة Huckleberry Finn أحسن قصصه التى تنتمى إلى هذه المجموعة. وكان يتفق مع هنرى جيمس على أن هذه القصص إنما تستميل العقول الأولية. وكان يكتب لجمهور كبير لأنه كان أكثر اهتماما بماله منه بفنه. وكان يخجل لجمهوره الضخم. (أن لديكم إدراكا للفكاهة كما تدركها الخيول لا أكثر، وجمهرتكم لديها هذا الإدراك، وتلك الجمهرة ترى الجانب المضحك من آلاف الأشياء التافهة الرخيصة. مثل المفارقات البعيدة، وخاصة تلك الغرائب والسخافات التى تثير ضحك الخيل).

ويعترف بأن بريق الذهب قد استهواه وكان بلوغه نباهة الذكر والثراء على غير انتظار أشبه بقصة خيالية من ألف ليلة، ولم يستطع قط أن يبرأ من العجب لها. لقد اشتغل صبى طابع فريان قارب بخارى فى المسيسبى فمنقبا فاشلا عن الذهب فى نفادا فمراسلا مغمورا فى سان فرنسسكو. ثم يجد نفسه على حين فجأة مؤلفا غنيا لكتاب شهير فقد ربح ٣٠٠,٠٠٠ دولار من قصة «الأبرياء فى الخارج» وصهرا لأحد أصحاب الملايين من ملوك الفحم فأسكره النجاح وأدار رأسه دوارا كليا. فأخذت آماله تشرئب إلى بعيد الأهداف. شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من

معاصريه. لقد أصبح الأدب فى نظره صناعة. وكان حريصا على أن يثبت لصهره مستر روجرز أن تأليف الكتب يدر من المال مثلما تدر تجارة الفحم وما عليك إلا أن تقدم للجمهور ما يريد.

وهكذا باع الضحك بالذهب، واستحال الذهب فى يده رمادا، لأنه كان شخصية مزدوجة: جسم صمويل كليمنز المنقب عن المال وروح مارك توين المحبة للحرية. وكان من عادته دائما أن يكتب فى الأمور التى يخاطب فيها الناس كتابين أحدهما يعبر فيه عن آرائه الشخصية فلا ينشره. والثانى يعبر فيه عن آراء الناس، وهذا هو الذى يبعث به إلى الناشر. وكان يفسر ذلك بقوله: إن علىَّ أن أكفل رزق عائلة، ولا يسعنى أن أصرح بالحقيقة كاملة. ولكنه كان على تردده رائدا من الناحية العقلية إن لم يكن من الناحية الخلقية. وقد تجلت روحه الخلاقة على استحياء فى Tom Sawyer وفى The Prince وفى Captain Stormfield,s Visit to Heaven وفى Pud- don head Wilson وفى A Connecticut Yankee وفى The Man That Corrupted Hadleyberg وفى Huckleberry.

* * *

توينبى، أرنولد

١٨٨٩ - ١٩٧٥م
المؤرخ والفيلسوف العالمى

التاريخ ليس سطوراً جامدة تكتب، ولا وقائع وأحداث تسرد وفق تسلسلها الزمنى.. ولكنه تفاعل عوامل كثيرة تنصهر معاً فى بوتقة الزمن لتصنع أحداثه وترسم مساره.. ومهمة المؤرخ أن يتصدى لهذه العوامل بالتحليل والتقييم والدراسة.. حتى يربط التاريخ بجذوره الحقيقية الأصيلة، ويرد الأحداث إلى أسبابها وعللها، وبذلك يقدم لنا البعد الإنسانى لحركة التاريخ.. مثلما فعل المؤرخ البريطانى الكبير آرنولد توينبى، عميد مؤرخى العصر، بمنهجه العلمى المتفرد.

إن أرنولد توينبى قد أدرك منذ البداية أن مهمته ليست تجميع أحداث بذاتها سواء كانت على نطاق إقليمى أو نطاق عالمى وأدرك أن مهمته الرئيسية هى تفسير هذه الأحداث فى سياق تاريخى شامل فأفرد عشرة مجلدات كاملة لأهم أعماله والذى اشتهر به واقترن اسمه به وهو (دراسة التاريخ) وأصدر له بعد ذلك مختصرة تقع فى ثلاثة مجلدات وانتهى إلى أن يركزه فى مجلد واحد باسم «مختصر التاريخ» وفى مجلدات (دراسة التاريخ) تتضح الفلسفة التى تقف خلف توينبى، تلك الفلسفة التى جعلته يقتطع من عمره أكثر من ثلاثين عاما لهذا العمل الذى يتميز على ما عداه من الأعمال التاريخية المعروفة، إن توينبى قد أفاد من أعمال المؤرخين الآخرين، فحرص أشد الحرص على أمرين:

أولا: ألا يشتت ذهن القارئ بتعدد الأحداث.. وإنما يسير فى روايته على سياق واحد.

ثانيا: أن يراعى فئات قرائه سواء الدارسون الجادون أو أرباب السياسة أو طلاب المتعة الذهنية.

وتوينبى فى حرصه على هذين العنصرين يدرك إدراكا جيدا أن الفلسفة التى تقف وراء أعماله لابد وأن تعنى بالناس وحياتهم اليومية وتقدم حلولا لمشاكلهم ويؤمن إيمانا عميقا أن النظرية يجب ألا تنفصل عن التطبيق.

وليس أفضل عنده من دراسة التاريخ القديم حتى يفيد الإنسان من خبرات أسلافه وحتى لا يكون مضطرا إلى أن يقوم بتجارب جديدة تحتمل النجاح أو الفشل.

والمؤرخ الحديث الذى يؤمن بفلسفة تهدف لإسعاد الناس عليه أن يجمع أحداث التاريخ فى خيط واحد وبمنهج واحد يضىء الطريق للإنسان أمام المستقبل المجهول.. وذلك كله على ضوء خبرات الماضى.. ولا يقلل من شأن هذه النظرة تلك المكانة التى أفردها توينبى للحضارة الاغريقية فأفرد لها (الحضارة الاغريقية وطابعها) و(الهيلينية - تاريخ الحضارة) و(الفكر التاريخى عند الاغريق) إلى جانب الإشادة بها كثيرا فى مؤلفاته الأخرى. إذ أن توينبى يؤمن فى أعماق نفسه بأن الحضارة الاغريقية هى السلف الحقيقى للحضارة الأوروبية الحديثة وهذا تطبيقا لنظريته بأن الحضارة لا تموت بالمعنى العضوى، وإنما تختفى، وقد يكون هذا الاختفاء لمدة قرون ثم تعود للظهور وهو يرى أن الحضارة الاغريقية قد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور فى الحضارة الأوروبية الحديثة.

وفى مكان آخر يرى القارئ نظرية توينبى القائلة بأن الحضارة تنشأ عن ظروف شاذة نتيجة لمواجهة تحدى المجتمع لهذه الظروف الشاذة فتولد لدية الطاقة التى تدفعه إلى الابتكار.. وهى نظرية تتعرض لجدل ونقاش طويلين.. كذلك فإنه يرى على هذا القياس أن التفكير عند الإنسان تولده ظروف قاسية يمر بها الإنسان ولا يلجأ إلى التفكير فى ظروف الرخاء: وأيا كان الموقف فى هذا الرأى أيضا، فهاك ما قاله المؤرخ الكبير بهذا الشأن.

«أن الجنس البشرى لا يفكر كثيرا فى أزمنة يسودها الرخاء. ففى مثل هذه الأوقات، فإننا نقنع عادة بأن نعيش الحياة من خلال التاريخ دون أن نتحقق أننا

ماضون معه فى التيار».

ويعود توينبى فيؤكد أهمية دراسة الحضارة الهيلينية فيقول:

«هذه الأفكار التى أنقلها هنا بالإنجليزية، إنما هى صدى تردده عقول البشر حول الحرب العالمية التى كثيرا ما تتكرر وحول الصراع الطبقى وما ينطوى عليه من شرور، وحول الصراع الثقافى.

ولا يغرب عن البال أن العالم فى هذا العام وفى كل عام بعده يفيد من الاطلاع على هذه الثقافة التى لا يجف نبعها».

وإذا كان توينبى فى كتاباته التاريخية قد اهتم بالغرب وتاريخه إلا أنه كان من المحتم عليه أن يعرض لكثير من ألوان النشاط الانسانى بروح الانصاف إلى حد كبير: ولا سيما أنه يتخذ لنفسه شعارا: بأن تاريخ الإنسان يتمثل فى (ماض - حاضر - مستقبل) فلا تقف أمامه حواجز مكانية، فليس يصيب المؤرخ أن يتناول حضارة بذاتها يركز عليها أو تقف خلفه فلسفة معينة تحرك أحداثه، انما يصيبه تحريف الوقائع وتزييف الأحداث. وهذا ما لم يصنعه أرنولد توينبى، بل قد سجل الأحداث صحيحة وفسرها حسب الفلسفة التى يعتنقها فجمع فى ذلك بين المهمة القديمة والحديثة للمؤرخ أى أنه جمع بين التسجيل والتفسير.

تعتبر المجلدات التى تحمل اسم (دراسة التاريخ) مرجعا وافيا لمن يريد أن يقف على وجهة نظر «أرنولد توينبى» فى الحضارة.

وتوينبى يضمن هذه الدراسة جميع الحضارات المعروفة، وهو يميز من بينها ثلاثين حضارة ومن هذه الحضارات الثلاثين، إحدى وعشرين حضارة أتمت نموها، وخمس حضارات يطلق عليها اسم (حضارات متجمدة)، أى حضارات وصل نموها إلى نقطه ما، وتوقفت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج، أما الأربع حضارات الباقية فقد ولدت ميتة، ويسميها (حضارات مجهضة).

وتوجد من بين الواحد والعشرين حضارة التى اكتمل نموها، ست حضارات ما زالت قائمة كمجتمعات حية هى:

الحضارة الهندية والحضارة الإسلامية وحضارة الشرق الأقصى والحضارة البيزنطية والفرع الروسى من هذه الحضارة والحضارة الغربية، أما الحضارات التى قضت نحبها بعد أن سبقت الحضارات سالفة الذكر فمن بينها: الحضارة الفرعونية والحضارة السومرية والحضارة المكسيكية والحضارة البابلية والحضارة الإيرانية والحضارة الهيلينية.

وعندما يصل «توينبى» إلى تدهور الحضارات لا يقول بأية قوة خارجية تسبب تدهور المجتمع.. وانما يرجع التدهور إلى عوامل داخلية بحتة.. وأما انتصار القوى الخارجية على المجتمع فإنما يتم لأن هذا المجتمع أو ذاك قد اضمحل داخليا.

وهذا العرض الموجز لرأى توينبى فى الحضارة يوضح أن المؤرخ المعاصر قد يسلم بأن الحضارة تولد وتنمو وتتدهور ثم تموت ولكنه لا يسلم بأن مولد الحضارة يعود إلى تفوق عنصر أو امتياز شعب معين، كما أنه لا يسلم بحتمية نمو الحضارة بعد مولدها.. كما أنه لا يسلم بحتمية تدهور الحضارة أو موتها إذ أن هذا التدهور وهذا التحلل يمكن تفاديه ويمكن تخطى مرحلته إذا ما استطاع المجتمع أن يوحد صفوفه ويقضى على الشقاق الداخلى ويواجه التحدى الخارجى أى أن دور الإنسان ويقظته وإفادته من الأخطاء وإصراره على المضى فى الطريق يلعب دورا كبيرا فى الفلسفة الحضارية عند «أرنولد توينبى».

كما ينبغى أن نشير إلى أنه لا يأخذ معنى مولد الحضارة وموتها بالمفهوم العضوى كالذى يقول به شبنجلر وانما يرى أن الحضارة - قد تختفى لتعود ملامحها فى حضارة أخرى بعد عدة قرون .

توينبى وأعماله

❖ ولد توينبى فى لندن فى ١٤ ابريل ١٨٨٩ ويلاحظ أن للبيئة البريطانية وعقليتها التجريبية أثرا على طريقة تفكير المؤرخ الكبير.

❖ نشأ بين والدين على درجة من التعليم والثقافة والاهتمام بالشئون الاجتماعية والعلمية.

❖ يهتم بالدراسات الاقتصادية إلى جانب دراساته التاريخية الواسعة.

❖ درس فى أكسفورد الأدب الكلاسيكى اليونانى واللاتينى.

❖ ولم يقتصر اهتمامه بالحضارة الاغريقية على الدراسات النظرية وإنما سافر إلى بلاد اليونان وقضى بها فترة يتفقد معالمها وآثارها بنفسه.

❖ كان عضوا فى الوفد البريطانى فى مؤتمرات السلام فى باريس عقب الحرب العالمية الأولى والثانية.

❖ منذعام ١٩٢٥ تولى الإشراف على معهد الشئون الدولية الملكى وعمل أستاذا متخصصا فى التاريخ الدولى فى جامعة لندن.

❖ أصدر «دراسات التاريخ» وهو يعتبر مرجعا هاما لتاريخ العالم.

❖ له من الكتب أيضا: الحضارة فى اليونان - الفكر التاريخى عند الاغريق - الهلينية - تاريخ حضارة - الحضارة الاغريقية وطابعها ـ محاضرات فى التاريخ - مختصر التاريخ.

❖ بدأ فى عام ١٩٢٢ يضع الخطوط الأولى لعمله الاشهر «دراسة التاريخ» وصدرت المجلدات الثلاث الأولى منها عام ١٩٣٤.

❖ يعتبر توينبى كذلك حُجة فى الأدبين البيزنطى واليونانى.

* * *

ثاكرى، وليم ماكبس

١٨١١ - ١٨٦٣م
الروائى الإنجليزى الشهير

ولد فى كلكتا، وفقد أباه وهو فى الخامسة، فأرسل بحرا إلى إنجلترا، ليحيا مع عمته بشزويك، وكان طفلا غريب المنظر، أشبه بثمرة اليقطين يحملها عود من اللوبياء، فقد وضعت عمته قبعة زوجها على رأس الصبى الصغير - وهى قبعة ضخمة شيئا ما - ولشد ما أفزعها أن رأسه ملأها تماما. وأخذته إلى طبيب أسرتها ليفحصه، فطمأنها الطبيب بقوله: «لا تراعى فللصبى رأس كبير، ولكنه رأس عامر».

ومع ذلك فإن رأس وليم الصغير، ذلك الرأس الكبير قد استغرق زمنا طويلا حتى ينضج، فكان فى مدرسة شارتر هوس فى مستوى يقل شيئا عن مستوى رفاقه. وكتب عنه زميل له فى فرقة الدراسة يدعى جورج فينابلس يقول «مع أنه لبث هناك بضع سنين، فإنه لم يبرز فى الفصل ولم ينبغ فى الملعب».

ومع ذلك فإن هذا الفتى الصغير الوديع، قد أظهر حتى فى هذه الفترة جرأة على الفكاهة الجافة التى سوف يمتاز بها فى قابل أيامه. كتب إلى أمه فى كلكتا يقول «إنى أحب مدرستى، فما أكثر الصبية الطيبين الذين ألعب معهم، ثم أضاف استدراكا خبيثا هو: بالمدرسة ٣٧٠ تليمذا ليتهم كانوا ٣٦٩».

وكما يكتب بانتظام إلى أمه وزوجها الماجور سميث وكان دائما يعترف لهما بمدى كسله اليوم، ومدى جده غدا. ولكن هذا الغد المجد لم يأت أبدا. وبعد أن تخرج فى مدرسة شارتر هوس كان لا يزال بحاجة إلى تعليم إضافى يعده لكمبردج فقام بذلك زوج أمه - وكان ماجور سميث وزوجته قد انتقلا الآن إلى انجلترا - والتحق بكمبردج فى فبراير سنة ١٨٢٩ وهنا أيضا عاش عيشة الرجل المرهف

الحس المنعزل عن الناس. وقد قال فى ذلك أحد مدرسيه: «لو استطاع أحد أن يخرج هذا الفتى عن كسله لكان قادرا على أى عمل إذا أراد، لكنه لا يريد أبدا».

كانت مشكلة ثاكرى أنه لا يستطيع مطلقا أن يركز جهده فى شىء واحد. فهو يوما يحب أن يترجم هوراس. ويحب فى اليوم التإلى أن يرسم صورا هزلية، وفى اليوم التالى يكتب شعرا هجائيا. وكان قليل الإجادة فى كل ما كتب. فهو لم يركز جهده فى شىء واحد بحيث يبرع فى هذا الشىء الواحد. ولا مراء فى أنه لم يتوفر على الدرس. فهو بعد عامين يقضيهما فى الجامعة تتقاذفه فيهما التيارات. يطلب إليه أن يغادر الجامعة دون الحصول على إحدى درجاتها.

وهكذا غادر الجامعة، وجعل يخبط فى الحياة، فجاب أوربا وزار المتاحف والمسارح والمكتبات. ورسم صورا وكتب قصائد. ولاحظ غرور الحياة ورحمتها وجمالها. وهو شاب نحيل صموت من علية القوم، فقد ورث مائة ألف دولار، شديد النهم إلى المجد بالغ الكراهة للعمل، وكان مزاجه يبلغ فى تناقضه ما بلغ جسمه، فله جسم عملاق ووجه طفل لطيف وأنف مهرج. وقد كسر أنفه فى شجار نشب بمدرسة شارتر هوس وظل مدى حياته مشوها، وقال ذات مرة مازحا «لولا أنفى المكسور لحصلت على وظيفة عملاق فى (سرك) فأنا حينما تقدمت للوظيفة اختبرنى صاحب العرض اختبارا دقيقا، ثم هز رأسه وهو يقول: أنت شاب طولك مناسب ولكنك بالغ الدمامة».

ومرت به أيام فارغة وليال عابثة.. ثم تجربة مريرة هى تلك الآلام المتزايدة التى يقاسيها العقل الموهوب. فهو فى لجة تلك التيارات التى تتقاذفه إذ وجد نفسه فى دار ميسر ذات مساء. فرأى أن المغامرة شىء مثير وإن يكن مكلفا. وما هى إلا بضعة أشهر، حتى كان قد فقد ماله جميعا. ثم استقر فى حياة العمل الجدى.

جرب الفن فترة من الزمن، لكنه أدرك أن كفايته تقصر به عن بلوغ ما أراد ثم قرر احتراف الأدب، وكان قد رأى فى أسفاره كثيرا من (المدن والناس) ورأى فى كل مكان جسوما تضطرب إلى غير غاية. «انظر إن كل شىء باطل الأباطيل وقبض الريح» لسوف يتوفر على ملاحظة العرض السارى ولسوف يعلق متواضعا على

بعض مشاهده إذا أمكنه ذلك.

والتماسا لهذه الغاية، شرع يكتب القصائد والمقالات والقصص. وقد رفض معظمها لمبرر حسن. ذلك أن ثاكرى كان يكتب لغرضين متعارضين، فهو يزدرى بنى الإنسان بعقله ويهواهم بقلبه. ففشل الناشرون فى فهمه، لأنهم لم يستطيعوا أن يحددوا لونه. فقد جمع أعظم المتناقضات الأدبية.. إنه مزدر ساخر قاس عطوف، يرى سخف الحياة ولكنه يراه خلال ضباب من الأسى.

ولم يعد نشاطه الأدبى أن يكون جهدا بذله طول حياته يلتمس الفكاهة. فهو يضحك من بنى جنسه من أثر رثائه لهم.

وهذا سر العناء الذى لقيه فى بناء مجد أدبى. فقد عجز الجمهور أبدا عن فهم كاتب يستخدم السوط ليربت به على الأكتاف عطفا ورثاء، وكان أبناؤه أنفسهم حين كبروا يعنفونه على دقة فكاهته واستخفائها يسألونه «لماذا لا تكتب فكاهة بسيطة - كفكاهة ديكنز - حتى يفهمك كل الناس؟».

وكان ثاكرى يتألم أبلغ الألم لعجزه عن بيع بضاعته الأدبية، فاذا انسدت بينه وبين المجلات المسالك أنشأ مجلة له أسماها The National Standard

وكان جانب النجاح الوحيد فى هذه المغامرة أنها مكنته من السخرية بغفلته «لكنك لو لم تخبر الغفلة قط، فاستيقن أنك لن تكون حكيما» كما قال فى (الأرمل لفل).

لقد فشلت المجلة وظل ثاكرى يتعلم الحكمة عن طريق حماقته. وبدأت كتاباته تدريجا تجد لها مكانا فى أركان مجهولة من المجلات. وقد وصفه أحد المحررين بأنه مجرد كاتب مقالات ضئيلة، ولع من شعر جميل. فرد ثاكرى على ذلك بقوله لأرينك أنى خير مما تظن.

وكان أول تواليفه الناجحة نوعا هو The Irish sketch Book وبلغ عدد النسخ المبيعة من الكتاب ألفا. ولم يكد ثاكرى يصدق عينيه حين قرأ الرقم، فقال فى تجهم خبيث «أخيرا بلغت من الشهرة ما بلغ ديكنز الذى تباع مائة ألف نسخة من كل كتاب له».

وظل يكتب قصصه وقصائده ومقالاته التى تتسم كلها بالفكاهة. وظل الجمهور يجزيه عليها بحفنة من البنسات - وبتصفيق مبعثر مشتت. والحق أن الجمهور لم يكد يعرف اسمه، فهو فى رغبته الزائدة فى التنكر قد اتخذ لنفسه عددا من الأسماء المستعارة.

إن ثاكرى قد قارب الأربعين ولما يزل مجهولا مغمورا. وكانت هذه الغمرة تحز فى نفسه «يا صديقى أمسح الأحذية أو نظف السكاكين أو افعل أى شىء غير الاشتغال بالأدب» كذلك كتب فى احدى مقالاته لأن الأدب كما ذكر فى موضع آخر «ليس تجارة ولا مهنة بل هو الحظ الأنكد».

ومع ذلك فلم يتزحزح عن حظه الأنكد. لأنه صمم على أن يرى العالم أنه «خير مما تظن» وأثمر التصميم فى عام ١٨٤٧ تلك الثمرة الأدبية الشائقة «سوق الغرور» وهى قصة لا بطل لها!!

وكتب (ابراهام هايورد) فى تعليق له نشر بعد ظهور أجزاء قليلة من القصة يتبنأ بأن «سوق الغرور» قد كفل لها الخلود، كما كتب الفناء لتسع وتسعين فى المائة من القصص الحديثة. وهلل للكتاب كثير آخرون من المعقبين وسلكوه فى الروائع، لكن التقرير الكامل عن هذا الكتاب قد كتبته القصاصة (شارلوت برونتى) «إن رجلا يعيش فى غصرنا يفضل عندى عظماء المجتمع، حتى لكأنه ابن (املاه) إذ يسبق الملوك المتوجين فى هوذا وإسرائيل. إنه يتكلم الحق كما كان يتكلمه.. عميقا.. يشبه فى قوته وحيويته كلام الأنبياء، وعلى محياه طابع الجسارة والشجاعة».

ظفر ثاكرى الآن بقسط واف من المجد وأصاب عيشا رضيا، لكنه لما يزل غير سعيد، فإنه كذلك أشبه بأشخاص قصته فى أنه دمية فى سوق الغرور.. يمتطى أبدا صهوة الطموح البشرى فى تلك الدوامة المرحة، هادفا أبدا إلى شىء يقصر عن بلوغه. فهو لا يحصل على بيت حتى يتوق إلى عربة تجرها جياد أربعة. ولا يحظى بالعربة ذات الأربعة، حتى يتوق إلى مركز اجتماعى. فإذا أصابه تاق إلى مقعد فى البرلمان. ويجسر رغم خلوه من كل كفاية سياسية على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم.

وكان من حسن حظه - ولعله من حسن حظ إنجلترا كذلك - أن منعته روحه المرحة من أن يبالغ فى جهاده ليحظى بأصوات الناخبين.

فبقى ثاكرى للأدب.

وكلما كتب قصة جديدة جعلت عظمته تزداد، وجعلت ألسنة الناس تلهج بتمجيده، وإن كانوا لا يدرون السبب. ذلك بأن كل الناس كانوا يعجبون به، وإن لم يقرأه منهم أحد، كما قال ناقد من معاصريه، حتى إن أروع قصص ثاكرى.. قصة (هنرى اسمند) التى كتب عنها ناشره الأمريكى (جيمس فيلدس) يقول «إنى أظاهر ذلك الكتاب وأقف إلى جانبه، وانى على استعداد لأن أتركه حيثما أتنقل كأنه بطاقتى الشخصية» حتى هذه القصة قد وسمت بأنها أجمل قصص الأدب الإنجليزى وأقلها حظا من إقبال الناس على قراءتها. كان الجمهور يلتهم التعليقات، ويتحدث عن أشخاص الرواية، ويمجد المؤلف، ويشترى الكتاب. ثم يتدركه على نضد المكتبة دون أن يقرأ ما بين أوراقه!!.

* * *

ثورو. هنرى دافيد

١٨١٧ - ١٨٦٢م
أحد عمالقة عصر النهضة الامريكية

لا يعد هنرى ديفيد ثورو من زمرة الأدباء بمعنى الكلمة. فقد اقتصر نشاطه الأدبى على بعض الأشعار والمقالات وأدب الرحلات. ولكن أثره الفكرى على الأدب الأمريكى منذ مراحله المبكرة يمتد ليصل إلى عصرنا هذا. كانت فلسفته الترانسيدنتاليه التى ساهم فى إرساء دعائمها مع إيمرسون. وحبه لطبيعة التربة. وإيمائه بالحرية الفردية من الأفكار، التى أثرت كثيرا فى وجدان جيله والأجيال التى تلته بحيث أصبحت من الملامح المميزة للشخصية الأمريكية وبالتإلى للأدب الذى يعكسها ويتفاعل معها. ولم تكن فلسفته مجرد تعاليم يلقى بها هنا وهناك، بل كانت أسلوبا عمليا لحياته لدرجة أنه اعتزل المجتمع كلية وعاش فى كوخ بين أحضان الطبيعة لمدة تزيد على سنتين لإيمانه بأن الطبيعة هى خير معلم للإنسان وعليه دائما أن يستمع إلى أصواتها المليئة بالحكمة العميقة البعيدة عن النفاق الاجتماعى. فالطبيعة هى كتاب الله المفتوح لكى يقرأ الإنسان بين سطوره معانى وجوده الحقيقى. وهذه الاتجاهات نجدها واضحة فى أعمال جيل الأدباء الذى عاصر ثورو كما نجدها فى الأجيال التالية. فهى واضحة فى أشعار وينمان وإميلى ديكنسون وروايات ميليفل وهوثورن وغيرهم من رواد الأدب الأمريكى. يقول دارسو الأدب الأمريكى: إن تاريخ الفكر المميز لشخصية هذا الأدب تبدأ من فلسفة وفكر كل من إيمرسون وثورو. فقد كانا صديقين حميمين فى الحياة ورفيقين متلازمين فى الفكر والفلسفة.

ولد هنرى ديفيد ثورو فى مدينة كونكورد بولاية ماساتشوستس. وعلى الرغم

من أن عائلته كانت رقيقة الحال فإن الجو الذى نشأ فيه كان حافلا بالحنان والدفء الأبوى. كان هنرى ثالث الأولاد يتميز بوقار يزيد كثيرا على سنه. أظهر حبا غير عادى للطبيعة منذ صباه المبكر حين كان يقضى معظم ساعات يومه بين أحضانها بعيدا عن جدران المنزل. وقد اختارته العائلة لكى تبعث به للدراسة فى أكاديمية كونكورد ثم فى كلية هارفارد متحملة فى ذلك مصاريف دراسته كنوع من التضحية من أجل إشباع ميله المبكر للتعليم والدراسة. ولكى يكون فى العائلة ابن تفخر بثقافته وعلمه أمام الآخرين. وعلى الرغم من نبوغه الذى أظهره فى الدراسة وتفوقه على أقرانه فإنه ظل مغمورا بلا امتيازات لأنه لم يكن يستند إلى أسرة ثرية ذات حسب ونسب. لم يرغب ثورو فى أن يكون عالةعلى أسرته فاشتغل بالتدريس فى كانتون وماساتشوستس فى العام الثانى من دراسته حيث عاش لبعض الوقت فى بيت الكاهن الأب أورستيز براونسون الذى ساعده على تعلم اللغة الألمانية وأدبها. وكانت معلوماته فى اللغتين اليونانية واللاتينية لا بأس بها بحيث مكنته من الاطلاع على الحضارة المرتبطة بهما، كما تعلم الإيطالية والفرنسية والإسبانية.

وقد استفاد كثيرا من تعلمه لهذه اللغات. فعلى سبيل المثال استفاد من اللغة اليونانية الاقتصاد فى استخدام الألفاظ ومحاولة حشدها بأكبر طاقة ممكنة من المعانى وظلالها. وساعده اطلاعه الواسع فى الثقافات والآداب الأخرى على تكوين نظرة فلسفية شاملة إلى الكون والأحياء. وكان تأثير كولريدج وكارليل بالإضافة إلى التعاليم الهنودكية واضحا على أفكاره وكتاباته؛ وعندما تخرج فى هارفارد كان قد ألم بكل هذه المعارف والخبرات وأنشأ مدرسة مع أخيه فى مدينة كونكورد قام بالتدريس فيها حتى عام ١٨٤١ حين أغلقت بسبب تدهور صحة أخيه. ذهب ثورو ليعيش مع رالف والدو إيمرسون فى منزله بعد أن كانت أواصر الصداقة قد توطدت بينهما منذ اللقاء الذى تم بينهما عام ١٨٣٧.

لعل أكبر أثر مارسته صداقة ثورو لإيمرسون أنها قدمته إلى رواد الفلسفة الترانسيدنتالية من أمثال مارجريت فولر، وآموس برنسون آلكوت، وثيودور باركر، وجورج ريبلى، ووليام إليرى تشاننج وغيرهم. وكانت بعض كتابات ثورو قد نشرت فى مجلة «الدليل» التى كانت لسان حال الجماعة التى أثرت تأثيرا مباشرا على

أفكار ثورو وخاصة فيما يتصل بإيمانه الوثيق باستقلال الفرد عن أية قوالب اجتماعية واعتماده المطلق على إمكاناته الذاتية. وقد أتاح وجود ثورو فى بيت إيمرسون الفرصة له لكى يلتهم كل الكتب التى كانت تحتويها مكتبته، كما كان لديه وقت الفراغ الذى كتب فيه مقالاته حتى ١٨٤٣ حين ترك المنزل لكى يعمل مدرساً خاصاً لأبناء وليام أخى إيمرسون فى جزيرة ستاتين. لكن حنينه كان قاتلاً إلى منزل العائلة فى كونكورد فعاد إليه فى عام ١٨٤٤.

لم يكن ثورو يفصل بين حياة الفكر وحياة العمل، فهما فى نظرة وجهان لعملة واحدة. كان يعمل فى فلاحة الأرض وإنماء النباتات كما كان ينمى فكره ويطوره تماما. فعلى الرغم من عزلته الجغرافية عن المجتمع، لم يكن منعزلا فكريا عن تيارات الحياة المعاصرة. فقد اندلعت الحرب المكسيكية عندما يقضى عامه الثانى فى والدان، وأثارت معها قضية الرق والعبودية. عندئذ أعلنها ثورو صريحة أنه لا يمكن أن يؤيد حكومة تطبق مبدأ الرق وطبق كلامه عمليا عندما رفض دفع الضرائب المستحقة عليه مما أدى إلى سجنه. ولكن أفرج عنه فى اليوم التالى عندما دفعت عمته استحقاقات الحكومة. ولم يكن ثورو راضيا عن سلوك عمته بالمرة. ظل على موقفه الصريح الرافض من السلطة عندما ألقى سلسلة محاضرات بعنوان «العصيان المدنى» نشرت فيما بعد كمقالة فى مجلة دورية «أوراق الجمال» عام ١٨٤٩. هاجم فيها المواطنين الذين لا يتحدون حكومتهم إذا فرضت عليهم بعض القوانين التى لا تتمشى مع المبادئ التى آمنوا بها وعاشوا من أجلها، لأنه يتحتم عليهم التعبير عن وجهة نظرهم حتى ولو بأسلوب سلبى غير مدمر وقد تأثر كل من تولستوى وغاندى بما جاء فى هذه المقالة الشهيرة.

فى سبتمر ١٨٤٧ ترك ثورو والدان بعد أن أكمل مخطوطه «أسبوع على ضفاف نهرى كونكورد وميرياك»».

وقام برحلات إلى غابات مين عام ١٨٤٦ ثم كرر زياراته لها وأيضا كيب كود ١٨٤٩، ثم إلى كندا فى عام ١٨٥٠ مع إليرى تشاننج، ثم إلى نيويورك عام ١٨٥٦ حيث زار وولت ويتمان الذى كان ثورو يكن لشعره إعجابا عظيما.

ظل ثورو على تعاطفه مع العبيد وطالما أقلقه قانون هروب العبيد الذى صدر عام ١٨٥٠ وأوقع عقوبات صارمة على كل من يساعد عبدا على الهروب إلى كندا. كرس ثورو قلمه ولسانه للدفاع عن هؤلاء العبيد البؤساء وتطرق به الأمر إلى دراسة الأوضاع الاجتماعية بصفة عامة وخاصة الظروف الاقتصادية التى كانت تتحكم فى حياة العمال فى المصانع والمناجم. حاضر محللا العوامل الاجتماعية والسياسية التى قضت على روح العدالة الإنسانية فى محاضرة بعنوان «الرق فى ماساتشوستس» عام ١٨٥٤، ثم كتب دراسة بعنوان «الحياة بدون مبدأ» نشرت عام ١٨٦٣ بعد وفاته. وظل ثورو طوال حياته يسجل مذكراته يوميا بناء على نصيحة إيمرسون له عام ١٨٣٧. كانت مذكراته زاخرة بالتحليل النفسى للذات الإنسانية، وارتباط هذه الذات بالطبيعة. أما كتاباته - سواء التى نشرت أو التى لم تنشر - فكانت تسجيلا لرحلاته وجولاته، واحتوت على النثر والشعر فى نفس الوقت. كما نجد فى «أسبوع على ضفاف نهرى كونكرورد وميريماك» و«والدان: أو الحياة فى الغابات» ١٨٥٤ التى يناقش فيها نظريته فى العلاقة ذات الأبعاد الثلاثة بين الإنسان والمجتمع والحكومة بالإضافة إلى وصفه لحياته على شاطى بحيرة والدن.

بعد وفاته نشر فى عام ١٨٦٣ كتاب له بعنوان «رحلات» يحتوى على تسع مقالات كتبت فى فترات متباعدة وكان بعضها عبارة عن محاضرات مثل «التفاح البرى» و «غابات مين» و«كيب كود» و«يانكى كندا» التى يصف فيها رحلته إلى مونتريال وكيوبيك ومونتمورنسى وسانت آن، كما يحتوى الكتاب أيضا على مقالة ثورو الشهيرة «العصيان المدنى» ثم نشرت مختارات من مذكراته فى أربعة كتب: «الربيع المبكر فى ماساتشوستس» ١٨٨١ و«الصيف» ١٨٨٤ و«الشتاء» ١٨٨٨ و«الخريف» ١٨٩٢. كما قام هـ ى. سولت بنشر مختارات من أشعاره عام ١٨٩٥ بعنوان «أشعار الطبيعة» وفى عام ١٩٠٦ نشرت معظم كتاباته فى عشرين مجلدا.

لعل الأثر الذى مارسته فلسفة ثورو على الفكر الأمريكى الذى تسلل إلى مضامين معظم الأعمال الأدبية، هذا الأثر يرجع إلى فكره المتناسق والخالى من التناقض تماما. فهو يعتقد أن الحكومة المثلى هى الدولة التى تحكم ولا تتحكم. وبهذا يتفق تماما مع مفهوم جيفرسون للديمقراطية. لم يكن من دعاة الفوضوية

كما قد يتبادر للذهن لأول مرة بسبب الحياة البوهيمية الطبيعية التى عاشها. ولم يؤيد التفكير الثورى فى كل مظاهره بل كان من دعاة احترام الحرية الشخصية والمحافظة على الكيان الذاتى والفردى للإنسان الذى يجب أن يعيش بوحى من ضميره.

لم يقتصر تأثير ثورو على الأدب والفكر فى امريكا، بل تخطى الحدود إلى أوروبا وآسيا. فنجد كتابه «والدن» وقد أصبح أحد النصوص التى يتحتم على أعضاء حزب العمال فى بريطانيا أن يدرسوها ويستوعبوها جيدا. كما كان الأديب الروسى تولستوى من أشد المعجبين بأفكار ثورو ويبدو أنها كانت من الدوافع التى أدت به إلى التخلص من ممتلكاته. ورفضه مسايرة التقاليد الاجتماعية الفاسدة فى أواخر عمره. أثرت مقالة ثورو «العصيان المدنى» على غاندى عندما قرأها فى سجن بريتوريا بحيث جعل منها الأساس الفكرى لحركة المقاومة السلبية السلمية التى تزعمها لتحرير الهند من الاستعمار البريطانى. وهذا دليل على أن فكر ثورو كان ملتزما بالإنسان فى كل زمان ومكان. هنا تكمن أصالته وعمقه وخصوبته على الانتشار والاستمرار. ولنا أن نتصور مدى تأثيره على أدباء أمريكا سواء على معاصريه أو الذين جاءوا بعده، إذا أدركنا انتشار مثل هذا التأثير إلى الفكر الإنسانى على نطاق العالم كله.

* * *

جـالينـوس

١٣٠ - ٢٠٠م
صاحب أضخم المؤلفات والاكتشافات الطبية

جالينوس هو آخر أئمة الكُتاب فى الطب ببلاد الإغريق لعهدها القديم وقد نبه ذكره مشرحا وعالما طبيعيا وطبيبا ممارسا وجراحا وصيدلانيا، وعُرف أيضا بأنه فيلسوف له أثر، وإن لم يكن من أئمة الفلاسفة. ونسب إليه نيف ومائة وعشرون كتابا فى الطبعة الأخيرة للثبت الكامل بمؤلفاته اليونانية وفى الطبعة التى قام بها كون ليبسك فى الفترة من سنة (١٨٢١ ــ ١٨٣٣) ولا يمثل هذا الثبت بحال إنتاجه جميعا، وبقى بعض كتبه مترجما إلى العربية أو العبرية أو اللاتينية فحسب أما البقية فقد فقدت.

وما من موضع سلك فيه جالينوس إلا وكان فى الصف الأول ومع ذلك فإن شهرته وخاصة فى الطب نمت نموا مطردا فى القرون التالية وأصبح آخر الأمر أعظم معلمى الطب أثرا هو وأبقراط الذى ساعد جالينوس على توطيد مكانته من حيث هو الطبيب الأمثل والنموذج الكامل، كما تناول بالتفسير رسائله فى شروح مستفيضة. ولما أصبح تعليم الفلسفة والطب الاغريقيين جزءا من برنامج التعليم فى سنة ٥٠٠ تحقق بقاء الجزء الأكبر من مصنفاته العديدة واستقرت مكانته السامية فى ألف السنة التالية، على حين أن مصنفات أسلافه فى الإسكندرية وغيرها قد اندثرت ــ وسلم جالينوس ما جمعه من الأعمال العظيمة لأطباء العصر اليونانى المتأخر (الهلنسى) الذين عرف فيهم بعد استقلالهم فى الرأى ودرس ذلك بنفسه إلى الأجيال اللاحقة. وكان هذا التراث الذى سلمه ذا أثر فى إقامة سنة الطب العلمى راسخة لم تنفصم ولم تغب عن الأنظار قط..

حياة جالينوس

ولد جالينوس فى عام ١٣٠ للميلاد فى مدينة بيرغاموم وكانت واحدة من أجمل مدن الأغريق على سواحل بحر إيجه وموقعها الحالى شمإلى أزمير فى تركيا.

ولقد أمضى جالينوس ذلك العملاق فى تاريخ الطب أيام صباه وبواكير شبابه فى بيرغاموم.

عندما بلغ جالينوس السابعة عشرة من عمره كان قد حفظ الفلسفات الأفلاطونية والأرسطوطالية والرواقية والأبيقورية، وقد ظهر آنذاك أن ذلك الشاب اللامع الذكاء سيصبح واحدا من أعظم فلاسفة عصره ورأى والده فى المنام ان ابنه يدرس الطب وتحول الابن من الفلسفة إلى الطب لكى يحقق حلم أبيه، والتحق جالينوس بمدرسة الجراح العظيم ساتيروس فى بيرغاموم حيث درس التشريح، وعندما كان جالينوس لا يزال تلميذا تفشى فى المدينة وباء الجمرة الخبيثة وانهمك الأستاذ فى مكافحة هذا الوباء وكان جالينوس يقف عند مرفق أستاذه الذى كان يجرى العمليات الجراحية لتطبيب مرضاه.

ولم يكن اهتمام جالينوس منصرفا فقط إلى طريقة معالجة المرضى إنما كان يدقق النظرفى الأوصال الجريحة ويحاول القيام بتشخيص كامل لها، إذ كان يطلب من المريض أن يحرك أعضاءه التى تناوشها مشرط الجراح لكى يتأكد من علاقة مختلف العضلات بحركاتها وكان أحيانا يدقق النظر فى شريان أو وريد أو عصب وقد كان وأستاذه يلاحظان أمورا تشريحية كان سائر الأطباء لا يلاحظونها.

وأسرف جالينوس على نفسه فى العمل حتى مرض لفرط الإعياء وبعد مدة وجيزة على شفائه من مرضه توفى والده وهكذا وجد الشاب نفسه وحيدا فى هذه الدنيا فهجر بيرغاموم وكان والده قد ترك له قدرا من المال ساعده على المحافظة على استقلال نفسه وانتقل الشاب إلى أزمير حيث تابع دراسته عند الطبيب بيلويس والفيلسوف البينوس وقام الشاب بجولة طاف خلالها اليونان وكيليكا وفينيقيا وفلسطين وكريت وقبرص وكان أثناء طوافه يثابر على دراسة الأمراض والعلاجات وعادات الناس وأخيرا وصل إلى الإسكندرية وكانت آنذاك أعظم مدن شرق البحر الأبيض المتوسط وذلك لدراسة علم التشريح فى مدرسة الطب.

وفى عام ١٥٧ للميلاد عاد جالينوس إلى بيرغاموم وكان عمره آنذاك ٢٨ عاما وقد عينه رئيس كهنة الهيكل الطبى طبيبا للمجلودين وكان جالينوس مكلفا بالإشراف على ما يتناوله هؤلاء الرجال اليائسون من طعام ومعالجة جراحهم الرهيبة بالقدر المستطاع.

وبالإضافة إلى عمله هذا فقد فتح جالينوس عيادة خاصة به وفى هذه الفترة من حياته كتب أول مقالاته وصار جالينوس شخصية معروفة فى اسكليبون حيث كان يجتمع أعظم أطباء عصره.

وأخذ جالينوس يعلم ويتابع أبحاثه ويكتب الكثير من أبحاثه الطبية حول الطب فى هذا الهيكل الذى كان ملتقى أطباء العصر الذى كانوا فى نفس الوقت كهنة للهيكل.

وذات يوم استدعاه الإمبراطور ماركوس أوريليوس إلى القصر الإمبراطورى حيث كان أطباء البلاط يعالجونه من حمى أصابته وألقى جالينوس نظرة على الحاكم الممدد على فراش المرض وقال إن سبب المرض هو التخمة فقال الإمبراطور: صدقت لقد أسرفت فى تناول الطعام. ووصف له الدواء الصحيح لعلته.

وفى روما ثابر جالينوس على الأبحاث الطبية وتابع دراسته للهياكل العظمية بشرية كانت أم حيوانية وكان جالينوس كلما سمع بأن ضريحا قد فتح هرع إليه لدراسة العظام المدفونة فيه وإذا قتل أحد المسافرين لصا انبرى له فى الطريق لم يكن الناس يهتمون بدفن اللص ولذلك كان جالينوس يستولى على الجثة ويعرضها للجوارح التى كانت تلتهم اللحوم فى يومين وتترك له الهيكل العظمى معدا للبحث والدرس وقد وصف جالينوس العظم بالنسبة للجسم بأنه شبيه بأعمدة الخيام أو بجدران المنزل بالنسبة للخيام وللمنازل ومع أن جالينوس لم يعلم أكثر مما كان معلوما من قبل عن العلاج فإنه درس وضع الأوصاف العلمية لأكثر من ثلثمائة عضلة وكثير منها لا يزال مستعملا حتى الآن.

كذلك درس جالينوس تأثير العواطف على جسم الإنسان فقد دعى ذات مرة لمعالجة شابة رومانية جميلة، ولاحظ جالينوس أن الفتاة كانت مضطربة الحركة مسهدة رغم أنها لم تكن مصابة بحمى وكانت ترفض الإجابة على الأسئلة التى وجهها إليها وبينما كان جالينوس يحاول تهدئة الفتاة وتطييب خاطرها دخل أحدهم إلى الغرفة وقال

عرضا أنه قادم من المسرح حيث شاهد شابا يدعى بيلاديس يرقص وعندئذ لاحظ جالينوس أن ملامح الفتاة ولونها تبدلا عندئذ جس نبضها فألفاه مضطربا.

وفى زيارة تالية طلب من أحد الأشخاص أن يدخل الغرفة فيقول إنه شاهد رجلا آخر يدعى موريوس يرقص فى المسرح ولم تضطرب الفتاة لدى سماعها هذا النبأ.

وأعاد جالينوس الكرة وأمر ذلك الشخص بأن يقول إنه شاهد بيلاديس وهو يرقص وعندئذ عادت الفتاة إلى الاضطراب.

وقال جالينوس لقد أدركت أن الفتاة كانت مغرمة بهذا الشاب بيلاديس.

وتوفى جالينوس عام ٢٠٠ للميلاد عن عمر يبلغ السبعين وظل اسمه لمدة ثلاثة عشر قرنا يعد أعظم اسم فى دنيا الطب، وظل أطباء القرون الوسطى يتبعون تعاليمه ويتمسكون بها.

وربما كان جالينوس من أغزر الكتاب القدامى وقد ضاعت معظم مؤلفاته ولكن ما بقى منها يشغل واحدا وعشرين مجلدا ضخما وعلى ذلك لا تكون دراسة كل آرائه الطبية.

وما من شك فى أن مصنفات جالينوس الطبية بتمامها وطرائفها والنتائج التى وصل اليها قد هضمها كل الهضم وقدرها كل التقدير جميع الأطباء العرب والمتأخرون وأصبحت جزءا لا يتجزأ من معارفهم الطبية التى تمثلت فى صورتها الأصلية كما تمثلت فى ملخصاتها وشروحها والكتب الجديدة التى اعتمدت عليها. وجالينوس جدير بأن يشغل بابا عظيما فى أى تاريخ يكتب مستقبلا عن الطب العربى حتى النصف الأول من القرن العشرين وتدين الدراسات التى عملت عن جالينوس فى أوروبا أيام القرون الوسطى وأيام النهضة بالكثير جدا إلى ما سبق به العرب وإلى ما ترجم من جالينوس عن العربية.

ويطول بنا الحديث لو أننا دخلنا فى ذكر أبحاث جالينوس وكشوفه وعلمه عامة، وإن مؤلفاته لشىء كثير ضاع أكثره وبقى الأقل وبعض ما بقى ذهب إلى العرب فأفادوا منه كثيرا.. ومن العرب دخل أوروبا بعد أن ناله التغيير والتعديل.

وظل جالينوس مدى ١٤ قرنا أبا الطب الذى لا ينازع لم يجرؤ واحد على أن يقول غير الذى قال.

جوته

١٧٤٩ - ١٨٣٢م
أعظم أدباء ألمانيا

ما أعظم المكانة التى تبوءها اسم «فاوست» فى تاريخ الفكر! فمنذ بضعة قرون سطع هذا الاسم فى كل مكان يصبو إليه النظر وتتدفق من حروفه التى جمعتها يد القدر على بساط العالم أنهار من البحوث المختلفة المتنوعة: فمن قصص شعبية إلى مآس ومصنفات أدبية وموسيقية، إلى رسومات ونحوت ولوحات. فقد ملأ هذا الاسم من دور الكتب والمتاحف والمسارح الشىء الكثير، وإذا نظرنا إلى قائمة بأسماء ما أوجده لرأينا أن هذه الشخصية وليدة الخيال كانت تشغل العقل البشرى أكثر مما شغله أعظم بطل من أبطال التاريخ وإن كانت «الكوميديا الالهية» فى العصور الوسطى تعد إحدى الروائع الأدبية العالمية، فكان حريا بالعالم الحديث أن يخلق لنفسه رائعة لا تقل عنها عظمة ومجدا. فكان منشؤها فى ألمانيا ما بين سنة ١٨١٨ وسنة ١٨٢٤ على يد شوبرت وجوشيل ودوب وهنريش وفى فرنسا على يد مدام دى ستال وفى إنجلترا على يد كارليل. ولم تلبث حلقة الدراسات والتحاليل تتسع شيئا فشيئا حتى أصبح اسمه وقد مر على إنشائه أكثر من مائة عام محط الأنظار وحديث الأفواه.

وهذا الاسم مقرون باسم جوته يلازمه ملازمة وثيقة إذ أنه - من بين الشخصيات المتعددة التى أوجدها خيال الشعراء فى هذا الموضوع، لا توجد شخصية أقوى من هذه التى صورها جوته وأعمق أثرا فى النفوس وأشد وقعا فى القلوب.

ولم يكن جوته عندما كتب روايته الشهيرة ليتصور حضارتنا الحديثة، ولم يكن معاصروه الذين أعجبوا بهذه الرواية ليتصوروا منها شيئا. على أن بطله لم يزل

يعيش بيننا عيشة ملؤها النشاط والحيوية كأنه قد ولد بالأمس فإننا نرى فى فاوست اليوم أكثر مما رأى هؤلاء الذين عاشوا فى عصره منذ أكثر من قرن. ومن يدرى ما ستكشفه الأجيال المقبلة فى هذه الشخصية من آيات وما سيكتبونه من تعليق حول هذا البطل بعد مرور خمسمائة أو ستمائة عام عندما يتحدثون عنه كما نتحدث نحن الآن عن أبطال هوميروس الذين قضوا منذ ثلاثة آلاف سنة. ولم يكتف فاوست بأن تتحدث عنه جميع الأفواه، بل ترجم إلى شتى اللغات ولم يزل يترجم فى كل ساعة بالحروف فى القصائد، وبالألوان فى اللوحات، وبالموسيقا فى المقطوعات الموسيقية وأصبحت أمثاله وكأنها تخرج من أحشاء الإنسانية نفسها. وقال ناقد عظيم: «إن رواية فاوست قد أصبحت ملكا للإنسانية بأسرها وليست ملكا لألمانيا بل هى تراث للعالم أجمع».

ولد يوهان أو حنا فولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت بألمانيا من ابوين كانا فى سعة من العيش وإن لم يكونا عريقين فى الحسب فقد كان جده حائكا تزوج سيدة تملك فندقا يدر شيئا من الرزق فولد له ولدان أصغرهما يوهان كاسبار جوته والد مؤلفنا. ولما نال هذه الحظوة لدى دوق فيمار فى أخريات حياته لم تكن طبقة الخاصة فى ألمانيا تعطف عليه لأنه لم يكن على زعمهم عريق الحسب. فما كان من الدوق إلا أن زاد على اسمه كلمة «فون» وهى من ميزات الخاصة عند القوم.

وبذل والدا جوته جهد الطاقة لتعليم ابنهما وتهذيبه، وكانا يرميان بذلك إلى الاستعاضة بشهرته عما ينقصهما من نبل الحسب فلم يدخرا وسعا فى سبيل تعليمه. وكان والده شديد الرغبة فى تلقينه مهنة المحاماة التى كادت تكون مقصورة يومئذ على طبقة خاصة. ومع ان جوته تخرج فى كلية الحقوق والشريعة ونجح فى جميع العلوم التى درسها فإن ميله كان أشد إلى الآداب فكانت نفسه تفيض عواطف وإحساسات وكلما أبصر ما حوله من مظاهر الطبيعة أثارت كامن شعوره وأوحت إليه منظوماته الخالدات.

ويظهر من ترجمة جوته أنه ورث رقة الشعور وفرط الذكاء عن أمه، فقد كانت

على جانب كبير من التعليم ورقة العواطف وقوة التصور حتى قال بعضهم إنها المثل الأعلى لكل أم تريد أن ينبغ ابنها فى الشعر. أما الأب فقد ورث عنه جوته الرزانة والطموح وقوة العزيمة وهدوء الطبع.

وقلما ترك شاعر من شعراء ذلك العصر ما تركه لنا جوته من آثار صباه التى تشف عن خلقه وميوله وما كان يجيش به صدره من العواطف. ولا تقتصر تلك الآثار على القصائد التى نظمها فقط بل تتناول كتبه ودماه (لعبه) وتصاويره وذكرياته والتحف الفنية التى كان يملكها، مما يدل على أن جوته لم يكن يفرط فى شىء ما يذكره بحوادث صباه وما وقع له من روايات الغرام، وقد كانت سيرته مجموعة عبر ودروس يستطيع الباحث أن يستشف من خلالها نفسية جوته وما كان يخالجها من مشاعر وعواطف وآراء. وليس ذلك غريبا إذا تذكرنا تشعب مناحى حياته وتعدد المشاهد التى مرت أمام مخيلته، ولعله لو لزم عقر داره ولم يتجشم مشاق السفر والانتقال ما علقت بذهنه تلك الصور المختلفة من مشاهد الحياة.

ويقال من الجهة الأخرى إن تعدد تلك المشاهد نبا بجوته عن الخلق الألمانى. فبينا ترى الألمانى يميل عادة إلى التخصص والتوافر على درس ناحية معينة من نواحى العلم ترى جوته يميل إلى درس كل علم وفن لأن نفسه كانت متعطشة للارتواء من كل منهل، وهذا يفسر لنا انكبابه على العلوم والفنون من رياضة ورسم وشعر وموسيقا وتصوير.

بل لقد كان ميله عظيما إلى درس النبات والطب والهندسة والحقوق والسياسة حتى إنه بلغ من بعضها شأوا بعيدا، وهو ما لم يتسن لغيره من الشعراء، أضف إلى ذلك ميله الغريزى إلى تعلم اللغات حتى حذق اللاتينية واليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والعبرية كل ذلك بإشراف والده الذى كان يريد إعداده لمناصب الدولة الكبرى، ليستعيض بها عما فاته هو منها.

وفى أثناء إقامته بجامعة ليبسك نظم عدة قصائد وروايات أهمها المأساة الموسومة «بمزاج المحبين» ومأساة «الشركاء فى الجريمة».

وفى سنة ١٧٦٩ نشر مجموعة منظوماته بعنوان آنيت أو آنيتا.

وقبل ذلك بسنة - أى فى سنة ١٧٦٨ - اضطر جوته إلى مغادرة جامعة ليبسك والعودة إلى فرنكفورت من دون ان يتمم علومه وكان رجوعة فجائيا وسببه أنه بذل فى التحصيل جهودا فوق طاقته فأصيب بنزيف أضعف قواه وألزمه الفراش طويلا فى ليبسك ثم فى فرنكفورت وكان وهو على سرير المرض يراسل أصدقاءه. ويؤخذ من لهجة رسائله هذه انه كان ينظر إلى الحياة نظرة جد ويحسب للمستقبل حسابا، وهذا يفسر شدة انكبابه وهو فى دور النقاهة على درس كتب الفلسفة والسحر والتنجيم والكيمياء.

وما كاد جوته يستعيد صحته حتى عزم والده على إرساله إلى جامعة ستراسبورج ليستأنف فيها دراسة الحقوق.

وفى أثناء اقامته بستراسبورج وضع المواد اللازمة لروايته «جوتس فون برليخنجن» التى أحدثت عند ظهورها ضجة كبيرة فى عالم الأدب وتقول دائرة المعارف البريطانية إن هذه الرواية كانت فتحا جديدا فى عالم الأدب الألمانى فى ذلك الوقت لأنها أدخلت عليه أسلوب الدراما الذى ابتكره شكسبير فى الأدب الإنجليزى.

وفى سنة ١٧٧١ نال جوته إجازة القانون وعاد إلى مسقط رأسه ليمارس مهنته وقضى السنة التالية فى «فتزلار» التى كانت مقرا للمحاكم الإمبراطورية ولمحكمة الاستئناف العليا فى ذلك الوقت وكان غرضه من ذلك التمرن على أعمال المحاماة.

ولما بلغ جوته السادسة والعشرين من عمره. ولا شك أن المدة الواقعة بين سنتى ١٧٧١ و١٧٧٥ كانت أخصب أطوار حياته من الوجه الأدبى. ففيها أنتجت قريحته «جوتس» و«كلافيجو» و«آلام فرتر» و«ستيلا» و«جوتر» و«اروين» وعدة آثار أخرى رفعت مرتبة جوته فوق مراتب معاصريه الألمان فأصبح اسمه على حداثة سنه حديث مجالس الأدب وتعدت شهرته حدود بلاده.

وسافر جوته إلى إيطاليا سنة ١٧٨٦ وقضى فى هذه الرحلة عشرين شهرا نال خلالها ما كان فى حاجة إليه من الراحة وشهد بلادا كان يتوق إلى رؤيتها. وقد أثر فيه جمال إيطاليا وعظمة آثارها الخالدة وأوحت إليه الشعر والتصوير وأخرج وهو فى إيطاليا ثلاثا من أحسن رواياته التمثيلية وهى افيجينيا وايجمونت وناسو. وقد

قال عن زيارته لإيطاليا إنها أهم حوادث حياته. ولما عاد إلى فيمار شعر الجميع بأنه قد طرأ عليه انقلاب خطير فأصبح رزينا جاف الطباع.

ذلك قد تعرف بشيلر أحد كبار شعراء ألمانيا فى ذلك العصر ودامت أواصر هذه الصداقة متينة إلى النهاية ولم يظهر بين الشاعرين أى أثر للمنافسة مع أن أهل فيمار حاولوا الإيقاع بينهما. ولما توفى شيلر سنة ١٨٠٥ كتب جوته إلى أحد أصدقائه يقول: «إننى قد فقدت نصف حياتى».

واحتل الفرنسيون فيمار انتقاما من الدوق كارل أوجست الذى أظهر عطفا على البروسيين فانبرت الدوقة لويز لنابليون واستعطفته ليعفو عن زوجها فأجابها إلى سؤالها وحسنت بعد ذلك علاقة الدوق بنابليون. وفى سنة ١٨٠٨ اذ كان نابليون على مقربة من فيمار استدعى جوته إليه وجرى له معه حديث ممتع أعجب نابليون على أثره بجوته أشد الإعجاب حتى أنه قال للذين حوله بعد انصراف جوته «هذا إنسان!».

ولما تألبت أوروبا كلها على نابليون سنة ١٨١٣ كان لذلك أشد الوقع فى نفس جوته إذ كان يعطف على نابليون حتى اتهمه الكثيرون بأنه مارق من الوطنية، إلا أن جوته لم يكن ينظر إلى العالم نظرة التحيز الجنسى الضيقة بل كان يحسب العالم كله مملكة واحدة والبشر كلهم إخوانا وقد نشأ على تلك الروح حتى بلغ تلك السن.

وعاش جوته حتى شبع من الأيام وذاق من مباهج الحياة أحلاها وعاشر الكبراء والأمراء والعلماء والأدباء وتمتع بشهرة ذائعة وبشيخوخة حافلة بجلائل الأعمال وقضى نحبه فى الثانية والثمانين من عمره بعد أن ترك كنزا لم يتركه غيره من رجال الأدب.

مؤلفات جوته

ولابد لنا من إشارة وجيزة لأعمال جوته الأدبية.

لقد عاش جوته عمرا مديدا وبدأ إنتاجه مبكرا وكانت حياته مليئة بالإنتاج الذى لا ينقطع حتى الأيام الأخيرة من عمره المديد والمقام لا يتسع لإفاضة فى ذكر مؤلفاته وحسبنا هنا أن نجمل الإشارة إلى أشهرها دون أن نلتزم الترتيب الزمنى.

إن مؤلفات جوته تنتظم أربعين مجلدا ومن أهم ما تشتمل عليه ومن أبدعه شعره الغنائى أى الأناشيد والقصائد فى الوصف والغزل والقصص القصيرة المنظومة والمنظومات الشعبية من طراز «بلاد» وهى تحتل مجلدين كاملين وقد اتفق رأى النقاد على أن شعر جوته الغنائى يمتاز بالرقة والعذوبة إلى درجة منقطعة النظير ولو أن جوته لم يؤلف سوى تلك القصائد لكان فى هذا ما يكفى لوضعه فى المكان الأسمى بين الشعراء «الغنائيين».

وألف جوته مسرحيات عديدة بدأها فى مرحلة صباه بإخراجه مسرحية «جوتس» وهى مستمدة من قصة بطل جرمانى فى العصور الوسطى ثم جاءت بعدها مسرحيات كلافيجو وايجيمنت وتاسو وايفيجينا وغيرها وغيرها. وقد كان جوته شديد العناية بالمسرح فى فيمار وقد قام هو نفسه بالتمثيل فى بعض مسرحياته وفى غيرها.

وتناول التأليف القصصى المنثور أيضا، ومن أشهر ما ألفه فى هذا «آلام فرتر» وهو من أول وأشهر مؤلفاته ويصف قصة غرامه بخطيبة صديقه المسماة شارلوت بوف والكتاب معروف للقارئ العربى فى ترجمته ولكن أشهر قصص جوته النثرية قصة ولهلم مايستر وهى قصة طويلة تصف حياة المسرح والعاملين فيه وعلى الرغم من أنها رواية منثورة فإنها تشتمل على أناشيد وأغان شعرية من أبدع ما أنتجه شاعر.

ويعتبر كتاب ولهلم مايستر أكبر إنتاج لجوته بعد فاوست وقد ألفه على مدى كثير من السنين كما هى الحال فى فاوست.

وهناك قصة بالشعر على نظام شعر الملاحم: تدعى «هرمن ودروثيا» وقد ترجمت نثرا باللغة العربية وهى تعد من أروع ما نظمه جوته.

ومن مؤلفات جوته المطولة كتابه عن تاريخ حياته بدأه وهو كهل ولكنه استخدم ذاكرته القوية وما قد يكون لديه من مذكرات بحيث أصبح كتابه شاملا لتاريخ حياته كلها وقد سماه «الحقيقة والخيال» احتراسا من أن تكون ذاكرته قد خانته فى بعض شئون صباه وشبابه.

وفى ختام الحديث عن أعمال جوته لابد أن نشير إلى ديوانه الشهير المسمى «الديوان الشرقى الغربى» فإن جوته بعد أن تجاوز الستين أبدى اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى بصورة جدية وأخذ يستعين بعدد من المستشرقين على فهم بعض النصوص الأدبية المهمة ونصوص القرآن الكريم وانتهى به الأمر إلى تأليف الديوان المذكور الذى تظهر فيه الروح الشرقية والجو الشرقى، والديوان عبارة عن مجلد ضخم يشتمل على عدد كبير من القصائد والمقطوعات فى شتى الموضوعات من نسيب وحكمة ووصف وكلها مصطبغ بالصبغة الشرقية..

إن اهتمام جوته بموارد أدبية جديدة وتعمقه فيها ونشره لديوان شعر مستلهم من تلك الموارد الشرقية ونشره لمثل هذا الأثر وهو مشرف على السبعين من أكبر الأدلة على حيويته ودأبه ومقدرته على التجديد فى جميع مراحل الحياة.

* * *

جيـد. أندريه

١٨٦٩ - ١٩٥١م
من أشهر كتاب القصة ومن رواد الفكر الحر في فرنسا

لعل الأدب الفرنسى عامة لم يشهد بين رجاله أديبا تلهفت الشبيبة المثقفة من الجنسين فى أنحاء العالم المتمدين على مؤلفاته مثل الكاتب الفذ اندريه جيد، فهذا الأديب الذى مـات فى الثانيـة والثمـانين من عـمـره وهـو شـاب القلب والذهن ظل يتزعم عشرات السنين حتى وفاته عام ١٩٥١ مدرسة (التحرر الأخلاقى) فى الأدب الفرنسى الحديث ويعالج بمؤلفاته التجديدية العديدة مشـاكل الشبـاب النفسيـة والنزعات الجامحة المتقلبة التى تلازمه بصراحة جريئة وحرية لا حد لها فنفر منه التقليديون فى حين احتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام كتبه. ثم توج أدبه فى النهاية بمنحه جائزة نوبل للآدب عام ١٩٤٧

لقد خاض جيد ميدان الأدب أكثر من نصف قرن، وكانت نزعته التجديدية منذ كـتابه الأول تضم الإخـلاص نفسـه والحـرارة والإيمان بوجـهـة نظره التى تضـمنهـا أحدث كتبه عهدا.. ذلك أن جيد بدأ حياته الفكرية راسخ الثقافة.. وكانت العوامل المتضـاربة التى تضـافـرت فى تكوين تفكيـره من القوة وعنف التـأثيـر بحيـث طبعت شخصيته ولون أدبه بذلك الطابع الذى عرف به والذى لم يتحول عنه برغم امتداد السنين وهجمات المهاجمين.

ولقد كان فن جيد ميدانا خصبا لتحليل النقاد ودراستهم فى عشـرات الكتب بمختلف اللغات، وهذه الدراسـات أن اختلفت إحداها عن الأخرى من بعض الوجوه فهى تتفق جميعا فى عمق تأثير تفكير جيد وفلسفته على نفسية الجيل الذى خلف

الحرب العالمية الأولى ذلك الجيل الذى صهرته المحن والكوارث فخرج منها فاتحا صدره لاستقبال كل رأى، مستعدا للخروج على كل قديم والتعلق بكل فكر جديد يحطم أغلاله ويحرر نشاطه فى الاجتماع والفن والأخلاق على السواء.

فى دراسة تحليلية لفن أندريه جيد كتبها الناقد الفرنسى الكبير بنجامان كريميو نراه يبدأ بقوله:

«إن أول نظرة إلى اندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق معقد يتركب من عدة شخصيات.. ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر.. ثم لا نلبث أن ندرك أن فنه صورة منه».

والواقع أن فن اندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شىء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته.. فقد نشأ فى أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتى وأم كاثوليكية.. وربى جيد تربية دينية خالصة. فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعته ومع الظروف التى صادفت شبابه سببا قاسيا فى أن تجعل من حياته مأساة إنسانية، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شعواء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته.. وجيد المتحرر من سيطرة الدين بعقله وإرادته.

ولد جيد عام ١٨٦٩ وعندما بلغ سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى تحت زعامة فرلين ورامبو وملارميه.. وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيل الثانى الذى من أعضائه فرنسيس جيمس وبول كلوديل وبول فور فانضم إليهم أندريه جيد. إذ وجد فى الشعر الرمزى الحالم السابح فى أجواء الخيال، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها، سبيلا إلى الانطلاق من عالمه الدينى المحدود الآفاق.. ولم يكن تأثير جيد بالشعراء الرمزيين مقصورا على فنهم وحسب.. بل كان يجد فى حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلا أعلى لحياة الفنان الذى يريد أن يصل إلى فهم الحياة مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد، والخروج على كل عُرف أخلاقى.. على أن رمزية أندريه جيد لم تبلغ فى تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول.. فهو أقل حدة فى العاطفة وجموحا فى الخيال.. وهو أمر أكثر سخرية

وأعمق تفكيرا وأشد رغبة فى إدراك حقيقة نفسه وأعظم انطلاقا وتعلقا بالحياة المرحة.. وفى أول كتبه (دفاتر اندريه والتر) (١٨٩١) نراه يعبر عن ذلك بقوله «يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيبعية طلقة مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة».

وفى ذلك الوقت أيضا - وقت شباب جيد - غزت فرنسا أفكار الفيلسوف الألمانى (نيتشه) والكاتب الأيرلندى (أوسكار وايلد) فتأثر بهما اندريه جيد تأثرا عظيما.. أخذ عن الأول فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان فى أن يحيا على هامش العادات الأخلاقية المرعية، والاثنان - جيد ووايلد - يتفقان فى إيمانهما بفكرة الجمال عند الأثينيين القدماء.

كذلك تأثر جيد بفكرة الكاتب الفرنسى موريس باريس عن (تقديس النفس) كما أخذ عنه سخريته العالية

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق لم تقض على عاطفته الدينية الدفينة.. بل لقد أحدث عنده هذا الإيمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا نتيجة عكسية، إذ جعله يترك العنان لإحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد.. ففى كتابه (الأغذية الأرضية) وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية، يقول:

(إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله).

وفى (الباب الضيق) (١٩٠٩) و (ايزابيل) (١٩١١) و (السامفونيا الريفية) (١٩٢٠) نرى جيد - وخصوصا فى القصة الأولى - يعالج شخصيات تخالف تماما فى تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار والنزعات فى الأعمال الأولى.. ذلك أن الأولى استسلام مطلق لنداء الحرية الحسية.. أما الثانية فهى استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية..

يرى أندريه جيد - ويتفق معه فى ذلك مارسيل بروست وبيراندللو - أن الشخصية الإنسانية ما هى إلا وهم زائف، وأن الإنسان صنيعة الظروف والاحتمالات..

وأخيرا يجىء دور الكاتب الروسى (دوستويفسكى) فكما أن نيتشه وإيلد كانا أعظم أثرا فى جيد الشاب.. كان دستويفسكى أعظم أثرا فى جيد الرجل..

ولقد قادته رغبته الحارة فى المعرفة الشاملة إلى دراسة اللغات الأجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية..

كانت أعمال أندريه جيد الأولى (دفاتر أندريه والتر) و (معاهدة نارسيس) ١٨٩٢ و (رحلة أوريان) (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التى أراد بها التحرر دفعة واحدة من حياته الطاهرة المتقشفة..

وفى (الأغذية الأرضية) (١٨٩٧) نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس.

وفى قصته (المتحرر من الأخلاق) (١٩٠٢) نرى عبقرية جيد وتأثيره العميق بالفيلسوف نيتشه فقد تعاونا على إظهار فكرة (التحرر الأخلاقى).

وفى العبارة الآتية يعترف لنا جيد أن هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصا وتبريرا لما أوقعته فيه مشكلته النفسية.. يقول:

(أما فيما يتعلق بى فقد قلت مرارا كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيعتى كانت تدعونى إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما)

ويقول جيد أيضا:

(ليس فى الإنسان شىء غير طاهر) لذا كان ما تفيض به طبيعة الإنسان من ميول وشهوات لا يجب فى نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والإخلاص لانفسنا.. فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل اختيار هو تحديد لحريتنا).

ففى ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد.. فكرة مزدوجة مضمونها:

أولا - الناحية الجسدية الغريزية فى الإنسان.. وهى الناحية البريئة الساذجة.

ثانيا - الناحية المعنوية وهى إما الناحية الخاصة بالإحساس الدينى وإما الناحية الشيطانية فى الإنسان.

ففكرة جيد هى الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما فى الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الإنسانية - الناحية الجسدية والناحية المعنوية - ثم السمو بهما إلى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء، وما السبيل إلى ذلك إلا بنبذ كل مالا أساس له من الحق والصدق، وفى مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع ولا يتفق مع المنطق والإخلاص للنفس.

وفى كتابيه (رحلة إلى الكونغو) (١٩٢٧) و (العودة من تشاد) (١٩٢٩) نرى جيد يدافع عن الأمم المستعمرة ويطالب بحق هذه الأمم فى التقدم المطرد فى جميع شئون حياتها، مسفها كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة.

ولكن هل بقى جيد عند هذا الحد من الاعتدال فى تفكيره وهو الذى من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف؟ لا.. اذ لم يكد ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يعلن إيمانه بالاشتراكية التى اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها.. ولا شك أن اعتناق جيد للاشتراكية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق، لأن جيد «الفردى» قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد فى سبيل مصلحة المجموع، وجيد الثائر على أى نظام من أنظمة التربية.

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التى صاحبت حياة جيد ومؤلفاته عشرات السنين.. والتى كانت موضع نقد الناقدين هى أعظم ما يرفعه (كإنسان) لأنها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية فى دمه إلى حد قل أن يكون له نظير.. فظل طول حياته (حديقة من التردد) - كما سماه أكبر اتباعه الكاتب الفرنسى جاك ريفيير - لا يهدأ له بال، يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية، يسافر إلى أقصى البلاد.. كل ذلك لكى يصل إلى الحقيقة المنشودة التى يسعى وراءها.. وبرغم عبء ماضيه الدينى الثقيل فقد استطاع أن يحطم أغلاله وينطلق باحثا منقبا..

جيمس هنرى

١٨٤٣ - ١٩١٦م
من أشهر الروائيين الأمريكيين

ولد هنرى جيمس فى مدينة نيويورك عام ١٨٤٣. وقد تأثر تعليمه لدرجة كبيرة بنظرية والده جيمس الأكبر، أن الحياة فى واقعها من الممكن العثور عليها عبر البحار. وقد عاش هنرى جيمس فى الإطار الذى كونه مؤسس العائلة ويليم جيمس، وهو إطار خاو ليس به أعمال محدودة لكل فرد فى العائلة. وقد بدت كل الأشياء التى كان يفضلها هنرى الكبير لهنرى الصغير مثيرة وجذابة. ولهذا قابل القصصى الصغير كثيرا من المفكرين والأدباء الذين كانوا على علاقة بجيمس الكبير.

كان هنرى جيمس مغرما بالمسرح، وأولى مؤلفاته تبدو مسرحية التكوين. وابتداء من الثانية عشرة من العمر تنقل هنرى جيمس من مدرسة إلى أخرى فى جنيف وباريس وبون وغيرها. وفى عام ١٨٦٠ كان يقيم فى نيويورك وقابل جون لافارج الذى قدمه لكل من بلزاك وميريميه، وخلال عام ١٨٦٢، ١٨٦٣، بينما كان مقيدا فى مدرسة هارفارد للقانون كان يواظب على حضور محاضرات «لاول» الأدبية، وكان هذا النوع من التثقيف لا يتناسب مع تجاوبه مع الأحوال الاقتصادية فى الولايات المتحدة.

وقد أفزع الفساد السياسى الذى ساد فى الستينيات والسبعينيات طبيعته الميالة للسلام وروحه المتينة، ولم يكن من المستطاع لهنرى جيمس أن يتقبل المتناقضات الموجودة فى التنظيم الاجتماعى لبلده، ولهذا بدأ يتطلع للجوء إلى أى بلد يجد فيه قيما مستقرة. ولهذا كثرت مغادرته للولايات المتحدة وتكررت زياراته لأوروبا.

ويبدو أن حياة وشخصية هنرى جيمس تحركت تقريبا داخل إطار مكون من

ثلاث فقرات، وهى المراحل الثلاث فى إنتاجه الأدبى، تلك المراحل سماها أكثر من ناقد تناول حياته وأدبه: جيمس الأول، جيمس الثانى، المتظاهر العجوز.

وبالرغم من ندرة إنتاجه فى الفترة الأولي، فقد بدأ جيمس دمث الطبع، شابا ثاقب النطرة. وكان يتجول فى أوروبا وسط خجله المتزايد وربما قضى الموسم كله الذى يتجول فيه دون أن يتحدث إلا لقلة من الناس غير الخدم ومن يقوم بالعناية بغرفته.

اما جيمس الثانى فقد بدأ يثق فى نفسه ويتخلص من خجله، وكانت لندن مكان إقامته، وكان محبوبا فى هذه الفترة وله كثير من المعجبين.

ومنذ نهاية التسعينيات وحتى وفاته كان جيمس أحد أئمة الأدب الإنجليزى وقد شجع صغار الكتاب وذلك عن طريق النقد البناء الذى كان يوجهه لإنتاجهم وكان يتمتع بسمعة طيبة بينهم، وبالرغم من هذا كان يعلم أن الشهرة الواسعة شىء يجب ألا يُطمع فيه.

وكانت معرفته المبكرة بأوروبا وإتقانه للغات الأوروبية، نتيجة لكثرة ذهابه إلى لندن، إحدى العوامل الرئيسية التى قررت أى نوع من الأدباء سيكون هنرى جيمس.

وهنرى جيمس أمريكى من أصل أيرلندى، ولكن أمريكا كانت تبدو له دولة لم تنضج بعد لتستوعب أدبا رفيعا، بينما كانت أوروبا غنية زاخرة بالتقاليد، كما أنها تمثل له هذا الاختلاف الرومانتيكى الذى يراه ضرورة ملحة له كأديب خلاق.

كانت نفس جيمس صافية، وكان يعتنق مبدأ التطهر الذى كان يراه ينقص أمريكا فى ذلك الحين، فوجده أكثر وضوحا فى فرنسا.

لقد علمته باريس الكثير، وهو دائما ما يرجع إليها عن حب، كانت باريس قائمة لتعطيه إحساسا بالانتعاش لقدرته على الخروج من أى مكان يقرر أن يكون فيه مقامه الدائم، وهذا المكان دائما كان لندن، واستمر كذلك حتى وفاته بالرغم من أن الأمر كان فى مبداه مجرد اندفاع عاطفى تجاه إنجلترا عند نشوب الحرب فى عام ١٩١٤ والذى جعلته يصبح مواطنا بريطانيا.

وهكذا أصبح جيمس مستعدا ليكتب قصصه عن «الوضع الدولى» والذى كانت

كتابته لا تمكن القارئ من ان يحكم: هل الكاتب أمريكى يكتب عن معرفة بالشعب الإنجليزى؟! او إنجليزى يكتب عن معرفة بالشعب الأمريكى؟! وقد دلت كتبه وخطاباته وملاحظاته كيف أنه أصبح يعرف إنجلترا معرفة كاملة، كما أنها توضح كيف أن جيمس أصبح تدريجيا مواطنا إنجليزيا يشارك فى تقاليدها الاجتماعية السائدة التى لم يظهر تجاهها رد فعل مباشر فى زياراته الأولى لإنجلترا.

وفى الفترة ما بين عام ١٨٦٥، ١٨٧٥، نشر هنرى جيمس ٢٤ قصة قصيرة، جمع ستّاً منها فى كتاب صدر عام ١٨٧٥ وهو أول كتاب له. وخلال تلك السنوات العشر كان جيمس يعمل تجاربة الادبية الناجحة متناولا المادة الوطنية والاجنبية معا.

وبالنظر إلى الكثير من إنتاج جيمس يتحرك شعور بأن الكاتب ذو حساسية تنبؤية بما سيصيب العالم من تفكك. ونلاحظ أن عالم. الفراغ والثراء الذى كان يسود العالم وقتئذ بدأ يختفى من قصصه وتحل محله روح المطهرين «وهم أعضاء حركة دينية» التى بدت تثير فى نفسه الشعور التنبؤى بأن العالم سيتفشى فيه الفساد وسيسوده الشر.

وأكثر قصص هنرى جيمس رواجا هى «ديزى ميلر» التى كتبها عام ١٨٧٩.

وفى أواخر الثمانينيات بدأ جيمس يشعر بالملل تجاه الموضوع الذى تناولته معظم قصصه وهو «الوضع الدولى» ويتجه تجاه الحياة الإنجليزية أكثر من الأمريكية، وقد اختار بيئة إنتاجه فى المرحلة الثانية لتكون أوروبا وغالبا ما كانت شخصياتها إنجليزية.

وإنتاج جميس لم يكن مقيدا بما يسمى الأدب القصصى. لأنه كان فى قرارة نفسه كاتبا مسرحيا، حتى فى مراسلاته، كان كثيرا ما يشير إلى كتابة المسرحية كما لو كانت ورقة يانصيب يريد أن يجرب حظه فيها ويكسب من ورائها ثروة وشهرة.

والواقع أن جيمس كان يحب المسرح جدا، كما توضح ذلك قصته The Tragic muse، فالاقتصاد والكمال اللذان يسودان هذه القصة، هما أكثر ما يتطلب المسرح، وكانا يجدان مجالا واسعا فى طريقة جيمس الأدبية.

ولم يتأكد جيمس من عدم تقبل الناس لمسرحياته إلا بعد إخراج مسرحية Guy Domville غير أن رغبته فى كتابة الأدب المسرحى لم تقتل فكتب بعد ذلك بضع مسرحيات.

وفى الوقت نفسه نجح هنرى عندما كتب متحررا من الغموض العاطفى، وذلك عندما اختار مادة رومانتيكية كما فى قصتيه The Sense of, The Tarn of The Girew The Dost، إلى جانب احتفاظه بواقعيته التى تتميز بها صوره. وكان اختيار المادة عند هنرى جيمس فى المرتبة الثانية بالنسبة لطريقة معالجتها.

ولهذا فإن هنرى جيمس يعنى الكثير بالنسبة لتطور الواقعية فى القصة أكثر من إنتاج القصة العالمية. وقد أوضح جيمس أن الواقعية إذا كانت تعنى أى شىء على وجه التحديد، فيجب أن يتحدد هذا المعنى فى طريقة المعالجة وليس فى المادة المختارة. ولهذا فبدأ جيمس كما لو كان قد جرد الحياة من كل ما هو رومانتيكى، ثم بعد ذلك يحللها ويناقشها ويقيمها.

* * *

داروين

١٨٠٩ - ١٨٨٢م
صاحب نظرية التطور التى مازالت تثير العلماء حتى الآن

نظرية التطور من النظريات الكبرى التى تسيطر على الثقافة العالمية، وتصبغ عقلية المفكرين فى جميع أنحاء العالم الآن. وهى قائمة فى الأصل على درس التاريخ الطبيعى للإنسان والحيوان والنبات.

والواقع أن أية نظرية علمية، لم تحظ بجدل واسع، ونقاش مستمر، مثلما حظيت به نظرية التطور، وأصل الأنواع، وظهور الإنسان على هذا الكوكب، وعلاقته بما ظهر قبله من ملايين الأنواع - الباقية منها والمنقرضة - وطبيعى أن الجدل المستمر فى أية مسألة علمية هو ظاهرة صحية، خاصة إذا قام بهذا الجدل علماء متخصصون، وليس ذلك مرده إلى رداءة أو قصور فى النظرية، لأن الردىء لا يستحق جدلا أو مناقشة يضيع العلماء فيها وقتهم، ويستهلكون طاقتهم، فالردىء هو الذى يسقط نفسه بنفسه، بل يرجع استمرار الجدل حتى اليوم، أو فيما قد يتلوه من أجيال إلى اختلاف فى وجهات النظر على النظرية التى وضع داروين بذرتها، أو النظريات الأخرى التى جاءت بعدها.

ورغم مرور أكثر من مائة عام على موت داروين، فإن نظريته لازالت حيه بل أنها تزداد حيوية وإشراقا، لا فى عقول الناس، بل فى عقول العلماء الذين يفكرون بطريقة منظمة، مستمدين زادهم الفكرى من قوانين الكون وشرائع الحياة، إذ كلما مرت السنون وتطورت البحوث، وزادت حصيلة العلماء من الأسرار الكثيرة التى تنطوى فى خلق الكائنات، أصبحوا من حقيقة التطور قاب قوسين أو أدنى!! (كذا)

وبعد.. فإن من حق القارئ أن يعرف شيئا عن ترجمة هذا المفكر، لأنه لا يمكن أن ينفصل مؤلف عن مؤلفاته، إذ هى تصطبغ وتصاغ وفق مزاجه وذكائه، وقبل كل ذلك وفق العوامل الثقافية التى تعاصره.

ولد تشارلز داروين فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ فى «شرو سبورى» من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية حيث خرج منها قبل مؤلفنا عالم آخر نال شهرة كبيرة وهو «ارازموس داروين» جد تشارلز ومؤلف كتاب «قوانين الحياة الحيوانية» وهو الكتاب الذى نجد فيه بذور النظرية التطورية التى خلدت اسم داروين.

وقد ظهر الميل إلى جمع نماذج النباتات والحشرات عند تشارلز داروين فى سن مبكرة. وذكر هو نفسه ذلك فى مذكراته التى كتبها عن تاريخ حياته.

وفى سن السادسة عشرة رحل داروين إلى أدنبرة ليدرس الطب ولكنه ما لبث أن ظهر امتعاضه وكراهيته لتلك الدراسة، وإن كان فيما بعد قد أسف شديدا لأنه فوت على نفسه الفرصة التى كان يستطيع أن يتقن فيها فن التشريح. وبعد مضى سنتين على التحاقه بدراسة الطب أدرك والده أن ابنه تشارلز لا يرجى منه أمل أن يكون طبيبا ناجحا. وفكر فى تحويله لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الكنيسة. ولم يكن يدور بخلد الوالد أن ابنه. بدلا من أن يصبح خادما لمبادئ الكنيسة، سيعلن بنظريته عن العالم وخلق الكائنات وتطورها مبادئ تقلب نظريات اللاهوت رأسا على عقب، وتقيم الكنيسة وتقعدها وتجعلها تشن حربا لا هوادة فيها ضد هذا الرجل الذى اتهمته بالإلحاد والكفر والمروق.

ورحل داروين إلى كمبردج فى أوائل عام ١٨٢٨. ولكنه لم يدرس اللاهوت، بل أمضى فى هذه المدينة الجامعية ثلاث سنوات انصرف فيها إلى حياة اللهو، على أن هذه السنوات الثلاث فى الحقيقة لم تضع كلها هباء! إذ أن معيشة داروين فى المدينة الجامعية القديمة قد ساعدت على ظهور الموهبة الكامنة فيه، ونعنى بها موهبة العالم الطبيعى. وكما يحدث فى كثير من الحالات ظهرت هذه الموهبة على أثر قراءته لبعض الكتب. فاستطاع على أثر هذه القراءة أن يتعرف على مواطن القوة فى نفسه، وأن يقبل على البحث فى المجال الذى يتفق مع ميوله واستعداده. واستحوزت على نفسه فكرة سامية أراد أن ينفذها بعزم وقوة وهى أن «يضيف إلى

بناء العلوم الطبيعية الشامخ حجرا يضعه بنفسه مهما كانت قيمته المتواضعة».

وما لبث أن ظهرت فرصة أخرى ساعدت على توجيه الشاب الجامعى نحو هوايته الحقيقية بعد قراءته لأخبار «همبولت» وصداقته للأستاذ «هنسلو» أستاذه فى علم النبات، وانتمائه «لنادى الذواقين»، فقد اقترح بعض أعضاء هذا النادى القيام بأبحاث تجريبية على أنواع من النبات والحيوان قد تؤدى إلى استنباط «أكلات جديدة» غير تلك التى ألفها الناس. هذه الظروف جعلت الطالب فى جو غريب امتزج فيه حماسه للعلوم التجريبية بخياله عن البلاد والقارات النائية التى تحوى عجائب من الحيوان والنبات، وبتعلقه المتهوس بجميع الطرائف والغرائب. ففى هذا الوقت أخذ داروين يجمع الحشرات ويحلم بالرحلة إلى «جزر كنارى» فى المحيط الأطلسى.

وعندما ترك داروين كمبردج حاملا درجة الماجستير فى الآداب عام ١٨٣١، كان يدرك تمام الإدراك أنه ما من شىء يستحق منه الاهتمام سوى دراسة التاريخ الطبيعى.

وبينما كان داروين على هذه الحال، إذ أتيحت له فرصة ذهبية مكنته من تحقيق جميع أحلامه، وفتحت أمامه مجال البحوث وجمع المعلومات التى أدت فى أواخر الأمر إلى نظريته عن «أصل الأنواع».

فقد كتب استاذ الفلك فى كمبردج إلى «هنسلو» أستاذ داروين يطلب إليه أن يختار له شابا له إلمام وولع بدراسة التاريخ الطبيعى ليرافق بعثة علمية إلى «أرض النار» والأرخبيل الهندى. وفكر هنسلو على الفور فى داروين.

وبالرغم من أن هذه البعثة قد استغرقت خمس سنوات فهى تعد أخصب فترة من حياته، فقد كانت سلسلة من المجهودات الشاقة والمتاعب المضنية.

وكان أعضاء البعثة التى أبحرت على ظهر سفينة الأبحاث «بيجل» مكلفين بدراسة أجواء وتضاريس سواحل بتاجونيا وأرض النار وشيلى وبيرو وبعض جزر المحيط الهادى، أما داروين فقد كلف بدراسة النبات والحيوان فى تلك المناطق. وقبل أن ترسو السفينة على الشاطىء لأول مرة كان داروين قد استطاع أن يحلل الأتربة التى يحملها الهواء فى جو المحيطات، ويميز فى هذه المحيطات سبعة وستين نوعا من الحيوان والنبات. ورست السفينة على أرض النار حيث استطاع مؤلفنا أن

يتأمل لأول مرة الإنسان فى حالته البدائية، وتركت هذه المشاهدة فى نفسه أثرا لا يمحى. فكانت قوة تأثره بهذا المنظر دليلا على أن المشكلة العلمية والفلسفية الخاصة بأصل الإنسان كانت قد بدأت تشغل ذهنه وتحتل مكانا معينا من تفكيره.

ومما لا شك فيه ان النظريات الأساسية التى أعلنها داروين فى كتابه «أصل الأنواع» قد تكونت فى ذهنه رويدا رويدا خلال هذه الرحلة. فدراسته لحفريات الحيوان فى سهول «البمباس» وملاحظته للاختلافات البسيطة التى تحدث عن الحيوانات التى من أنواع متقاربة كلما تقدم نحو الجنوب من القارة الأمريكية، جعلته يتصور بوضوح فكرة التغير التدريجى للأنواع. كما أن التجارب والملاحظات التى أجراها خلال هذه الرحلة الطويلة كنت بمثابة الغذاء والمؤونة التى عاش عليها طوال حياته العلمية.

وبعد عودته من رحلته عام ١٨٣٦ استقر فى لندن، ثم انتقل بعد ذلك إلى كمبردج. وبدأ فى ترتيب الوثائق والمجموعات النباتية والحيوانية التى جمعها، ويكتب فى الوقت نفسه «رحلة عالم طبيعى» عام ١٨٣٩. وتجسمت فى ذهنه «أصل الأنواع» والواقع أن هذه النظرية لم تكن عنده وليدة تأملات فلسفية حاول بعد ذلك أن يدعمها بالمشاهدات، بل إن الأمر على العكس من ذلك تماما، فإن الظواهر التى لاحظها والعلاقات التى لمسها بين هذه الظواهر وأوجه الشبه التى صادفها هى التى قادته إلى هذه النظرية التى أصبحت كشفا عظيما فى علم الحياة!! (كذا). وقد كان داروين نفسه يدهش أحيانا أشد الدهشة من عدد الظواهر التى تقع تحت ناظريه فى تسلسل واضح، ولا تدع لديه أى مجال للشك فى صدق نظريته!!.

وفى الوقت الذى ظهر فيه كتابه «أصل الأنواع»، أى فى عام ١٨٥٩ كان لداروين مؤلفات أخرى وبحوث عديدة فى علوم النبات والحيوان والجيولوجيا. فقد نشر فى سنة ١٨٤٢ مؤلفات عن «الشعب المرجانية» وفى سنة ١٨٤٥ «رحلة عالم طبيعى»، وفى عام ١٨٥٤ «وصف حياة المحار». ويجب ألا تحجب الأهمية الفلسفية لكتابيه «أصل الأنواع» و«سلالة الإنسان» قيمة بعض كتبه الأخرى مثل كتاب «النباتات آكلة اللحوم» وملاحظاته عن «حركات وعادات النباتات المتسلقة» ودراسته «للإخصاب بالطريق المباشر وبطريق التهجين» و«لقدرة النباتات على الحركة».

دانتى

١٢٦٥ - ١٣٢١م
صاحب الكوميديا الإلهية

يُعد دانتى اليجيرى واحدا من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل فى تاريخ البشرية. وهو يجد العناية والإقبال والدرس فى الجامعات والمعاهد والجمعيات الأدبية ولدى كثير من الناس فى أنحاء العالم المتحضر من اليابان شرقا إلى الولايات المتحدة الأمريكية غربا، وقد عكف كثير من الباحثين منذ القرن الرابع عشر حتى اليوم - على دراسته وترجمته والكتابة عنه.

ومن الأمثلة على ضخامة التراث الدانتى أن نسخ «الكوميديا الإلهية» المخطوطة فى العالم يتراوح عددها بين ٥٠٠، ٦٠٠ نسخة! ومن الأمثلة على ذلك أيضا أن توفر كثيرون على تحقيق نصوص مؤلفاته الايطالية واللاتينية وأنه قد كتبت الآلاف من الشروح والتعليقات الخاصة بها ووضعت المعاجم والفهارس وألفت الكتب التفصيلية والعامة ونشرت الدوريات الدانتية المختلفة وترجمت مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية عشرات المرات.

وعلى هذا فقد اكتظت دور الكتب بالآلاف المؤلفة عن التراث الدانتى فى عشرات من اللغات الحية فى كثير من أنحاء العالم.

وكذلك وجد دانتى عناية كبيرة من جانب رجال الفنون التشكيلية وفنون الموسيقا الذين وضعوا رسوما أو صورا ملونة أو غير ملونة وصنعوا التماثيل وألفوا الألحان الموسيقية التى تعبر عن بعض ما جال فى ذهن دانتى أو جرى به قلمه.

وفضلا عن ذلك فإن دانتى ثروة إنسانية هائلة إذ مهد للخروج من العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعصر الحديث وهو ينشر العلم ويربى الذوق ويعلم

السياسة ويؤيد العدالة والحرية ويقوى الروح المعنوية ويدعو إلى التضحية والوطنية ويغرس الايمان والصفاء والأمل ويحلق فى أجواء من السعادة الروحية ويخلق فنا لا يكاد يدانيه فيه إنسان.

ولد دانتى فى فلورنسا بإيطاليا فى ١٤ مايو سنة ١٢٦٥ م من عائلة رفيعة الجانب يقال لها عائلة اليجرى وسمى عند ولادته دروانتى ثم نحت اسمه بالاستعمال فصار دانتى، وتوفى والده وهو لا يزال غلاما فربى فى حوزة بعض ذوى قرابته فتلقن كل العلوم الرائجة فى ذلك العصر وأشهرها التعاليم الدينية ومنطق أرسطو وبعض الكتب اللاتينية المعتمد عليها فى مدارس تلك الأيام. وكان حاد الذهن فلم يحتج فى اكتسابها إلى كبير مشقة أو طويل زمن، لكنه لم يكتشف بها فأخذ يطالع كل علوم تلك العصور على صعوبة الوصول اليها قبل اختراع الطباعة ولذلك فقد ظن بعضهم أنه تثقف فى مدرسة بولونيا الشهيرة.

اعماله الأدبية

نظرا لاستحالة الوصول إلى تواريخ دقيقة لإنتاج «دانتى» يحسن أن نقسم حياته إلى ثلاث مراحل تمثل تطوره الروحى وأن ننسب إلى كل مرحلة أقرب المؤلفات إليها.

وتمتد المرحلة الأولى بين سنتى ١٢٨٣ و ١٢٩٠ وقد سادتها حمية الشباب والاتجاه الدينى.

أما المرحلة الثانية فتبدأ بوفاة حبيبته «بياتريس» مما بث الأسى واليأس والشك فى حياته وأدى إلى تغلب العقل على العقيدة فترة من الزمن انصرف فيها إلى الفلسفة والعلم والصراع السياسى العنيف والبغضاء والتآمر ومن الممكن ان نعزو إلى هذه الفترة من مؤلفاته «الندماء» و «الملكية» و «الرسائل».

وقد انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٣١٣ بوفاة الإمبراطور هنرى السابع الذى كان دانتى قد عقد عليه آماله... وبدلا من أن يقضى انهيار هذه الآمال على عزيمته وروحه المعنوية فقد رده إلى الناحية الروحية وأعاد إليه الإيمان الذى كان فى صباه وحمله على التعبد متخذا من حبيبته «بياتريس» - بعد أن خلع عليها

القداسة فى خياله - رمزا للخير مما تشهد به كل قصيدة فى «الكوميديا الالهية».

ولقد جمع «دانتى» قصائده الغنائية الأولى وربط بينها بتفسيرات نثرية وشروح فلسفية مطولة فى كتابيه الكبيرين «الحياة الجديدة» و «الندماء» الذى يسمى أحيانا «المأدبة» أو «مأدبة الحب» وتنم لهجة «دانتى» فى تفسير أغانيه وأناشيده فى الحب عن تدرجه فى الانتقال إلى تغليب العقل على العقيدة.

أما مؤلفاته التى كتبها باللاتينية فى تلك الفترة فكان أهمها «الملكية»، الذى يشرح فيه نظرية الإمبراطورية المسيحية - كنظام إلهى ضرورى - ويدعو فيه إلى الفصل بين الكنيسة والدولة وأن يقتصر سلطان البابا على الأمور الروحية.

وقد عرض هذا الكتاب للصراع السياسى الذى كان دائر الرحى والذى ساهم هو نفسه فيه وتجلى فى سياقه انتقاد «دانتى» لتوسع الكنيسة فى بسط نفوذها الدنيوى وهو انتقاد زاد من قوته وأثره أن «دانتى» كان من أخلص أبناء الكنيسة الرومانية.

وقد تكرر الانتقاد فى «الرسائل» التى دعا فيها إلى توحيد الدول الأوروبية تحت تاج الامبراطور هنرى السابع الألمانى لتكوين الإمبراطورية المسيحية.

أثره الخالد

أعظم أعمال «دانتى» الأدبية وأرفع تحف الأدب المسيحى فى القرون الوسطى «الكوميديا الإلهية». ولا سبيل إلى إدراك قيمتها ومغزاها إلا فى ضوء التجارب المريرة التى اجتازها المؤلف بعد وفاة حبيبته «بياتريس» حين نبذ الحب الحقيقى الصادق وهام متخبطا فى ميدان الفلسفة العقيمة ومضمار التآمر السياسى إلى أن قدر له أن يعود إلى الإيمان والإلهام اللذين كانا يلازمانه فى صباه.

فلقد شاء «دانتى» أن يبين لنفسه ولمن أعقبهم ممن أضلهم الإثم وأرهقهم الصراع عن جهل أن ثمة مخرجا من هذا الضيق وأن فى وسع الإنسان أن ينجو من متاهة الحياة إذا هو استنار بالإلهام الإلهى واستعان بفضل من السماء واتبع نظاما روحيا قاسيا لترويض نفسه.. وهذا هو المعنى العميق الذى قامت عليه القصة والذى اثبته «دانتى» بما تصوره من رؤى خيالية لما وراء الحياة مستمدا بعض

خطوطه مما ترك «هوميروس» و«فرجيل» و«شيشيرون».

وتجارب «دانتى» فى العوالم الثلاثة التى رسمها فيما بعد الحياة الدنيوية – وهى «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس» – والتى تصور أنه اجتازها فى عشرة أيام تالية ليوم الجمعة اليتيمة من عام ١٣٠٠ ليست سوى تصوير لسعى الإنسان إلى خالقه ورجوعه إليه وظفره بالخلاص والتوبة والمغفرة.

ومع ما كان فى تصويره لما بعد الحياة من اجتراء فى زمنه إلا أن قصته الشعرية كتبت بحساب وتخطيط دقيقين.. فلم يخرج فيها عن تعاليم الدين بل أنه أورد آراءه التصوفية ومعتقداته المستمدة من تعاليم القديس «أوجستين» كعناصر فى بناء العالم والروح.

* * *

دوستويفسكى

١٨٢١ - ١٨٨١م
أحد أئمة الرواية الروسية الكلاسيكية

دوستويفسكى أحدأئمة الرواية الروسية الكلاسيكية، فإنتاجه الروائى يشغل مكانة مهمة وخاصة، لا فى تاريخ الرواية الروسية فقط، بل وفى الرواية العالمية أيضا.

تشكل اتجاه دوستويفسكى إلى الرواية كفن تحت تأثير التجربة الروائية لكل من بوشكين وجوجول، كما أشار الكثير من الباحثين أيضا إلى أهمية رواية كل من بلزاك وجورج صاند وفيكتور هوجو وديكنز بالنسبة لروايات دوستويفسكى.

برز دوستويفسكى فى الساحة الأدبية فى أربعينيات القرن قبل الماضى، واتسم إنتاجه الروائى منذ أول رواية وهى «المساكين» بالمنهج الفنى الجديد، فنجده يبتعد عن الخط الهجائي المميز لرواية معلمه جوجول الذى كان يجذب اهتمامه وصف الحياة الموضوعية المعيشية بأنماطها المتعددة، واتجه دوستويفسكى إلى البحث العميق فى نفس أبطاله، حيث يعطى الكاتب من خلاله صورة للواقع والحياة «الجارية».

كتب دستويفسكى القصة والرواية، وكانت أشهر رواياته:

«المساكين» (١٧٤٥)، «المحقرون والمهانون» (١٨٦١)، «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦)، «الأبله» (١٨٦٩)، «الشياطين» (١٨٧٢)، «المراهق» (١٨٧٥)، و«الإخوة كارمازوف» (١٨٨٠).

ويعتبر وصف حياة فقراء المدينة من أكثر الموضوعات المحببة عند دوستويفسكى الروائى وقد اتجه إلى هذا الموضوع فى العديد من رواياته، ودوستويفسكى فى تصويره لحياة الفقراء ينحو نحوا جديدا، فهو لا يهتم بتصوير

اللوحات المعيشية التى تعكس الفقر والتناقضات الاجتماعية التى تحكم وجود الفقراء، قدر اهتمامه بتصوير العالم الروحى والأخلاقى للفقراء، والذى يبرز فى ارتباط وثيق بوجودهم المادى. فالمشكلة الاجتماعية للفقر تبرز فى روايات دوستويفسكى من خلال المشكلة الأخلاقية والنفسية. والعالم الداخلى لفقراء دوستويفسكى هو عالم صعب ومعقد، فرغم ما يظهر عليه من غيظ وحنق وأنانية، ورغم ما قد يسيطر عليه من أفكار كاذبة أو وعى مريض، فهو مع ذلك عالم الخير والمشاعر الطاهرة ومبادئ الانسانية والأخوة والضمير الحى والنفس القادرة على التضحية والمعاناة والتصحيح. حملت روايات دوستويفسكى بصمة الواقع المعاصر، فهى تصور الكثير من أحداثه الجارية ومشاكله الملحة كالجريمة، والركض وراء المال، ووقوع الإنسان ضحية الإغراءات والأفكار الشريرة، والانفصام بين الشخصية والمجتمع وبين الطبقات الحاكمة والشعب، وتفكك وسقوط الركائز العائلية التقليدية وأزمة الحياة الاجتماعية المعاصرة ومشكلة وجود الانسان بها وخلافه.

* * *

ولد «دستويفسكى» لأب جراح، وشهد ضوء الحياة أول ما شهده بين جدران المستشفى الذى كان يعمل فيه أبوه، وكانت طفولته عليلة يتعاودها المرض آنا بعد آن، ولكنه مع ذلك استطاع أن يظفر بنجاح متفوق فى مدرسة المهندسين، لكن المهندس الناشئ غلبه الأدب فانصرف إليه لأن الهندسة جاءته عن طريق الدرس، أما الأدب فطريقه إليه الطبع الأصيل.

وبدأت حياته الأدبية بداية لا تخلو من فكاهة ومن عبرة فى آن معا، فقد كتب قصة كانت باكورة إنتاجه، قصة (الفقراء)، وساقه صديق ناشئ فى الأدب مثله إلى أديب من شيوخ الأدب إذ ذاك يقوم على تحرير مجلة أدبية، هو (نكراسوف)، وقدم الصديق صديقه إلى الأديب الشيخ، فاستقبله الأديب الشيخ بنظرة باردة، ولم يدر ناشئنا ماذا يصنع، فقذف بمخطوط قصته قذفا، وخرج مسرعا يتلفت يمنة ويسرة خشية أن تراه أعين الرقباء كأنه لص أتى أمرا إدّاً، وقصد من فوره إلى جماعة من أصدقائه الشبان، فأخذت جماعتهم تقرأ شيئا من أدب (جوجول) حتى انسلخ الليل كله، وعاد (دوستويفسكى) إلى داره مع فلق الفجر، ولم يحس رغبة فى النوم،

فجلس إلى نافذته يسرح البصر، وما هو إلا طارق يدق جرس الباب، فيفتح له وهو دهش لهذا الطارق المبكر، فيجد نفسه محتضنا بين ذراعيه صاحب المجلة الأدبية (نكراسوف)، فقد شاءت المصادفة أن يزور الأديب الشيخ صديقا ناقدا، ويذكر له أن شابا لم يره من قبل قذف أمامه قصة لتنشر، وقرأ الصديقان معا قصة (الفقراء) فأخذتهما بسحرها، حتى أنفقا الليل كله فى قراءتها، ولما أصبح الصبح لم، يطق (نكراسوف) صبرا على هذا الكشف الجديد، وذهب إلى أصدقائه النقاد، يطرق عليهم الأبواب قائلا:

جئت لأعلن عن (جوجول) جديد ظهر اليوم فى أفق الأدب!

وفعل التشجيع فى أديبنا الناشىء فعل السحر، فأخذ يعمل فى نشاط متصل عنيف لا يعرف الراحة والهدوء فعرض صحته للخطر من جهة. وتعجل الإنتاج من جهة أخرى، حتى أصبحت سرعة الإنتاج علامة تميزه وتنتقص من أدبه، فإذا عرفت أنه كان يكتب عشر قصص فى آن واحد، عرفت بأية سرعة كان ينتج، وبأى مجهود كان يعمل، لكن هذا التيار الدافق وقف ذات يوم فجأة حين أطبقت عليه مغاليق السجن فى بطرسبرج.

اتهم (دوستويفسكى) مع جماعة من زملائه بالعمل على الثورة، وزجوا فى السجن ثمانية أشهر ثم جىء بهم إلى ميدان فى قلب المدينة، حيث أقيمت المشنقة انتظارا لرقابهم وخلعت عنهم ملابسهم إلا أقلها، فى جو كانت برودته إحدى وعشرين درجة تحت الصفر، وقرئ عليهم ما قضى به فى أمرهم وإذا هو الموت، لم يكد يصدق (دوستويفسكى) ما سمعته أذناه، لابد أن يكون حلما ما سمع، إنه لم تنقض إلا أيام قلائل منذ وضع أساسا لأثر أدبى جديد اعتزم إنشاءه، وأطلع عليه أحد الزملاء فى السجن، وتلفت إلى من وقف بجواره وسأله دهشا: أصحيح ما يعلنون؟ أصحيح أننا قادمون على الموت؟ لم يجب المسئول بغير إشارة من اصبعه وهو صامت إلى عربة قريبة، طرح عليها غطاء، وبدا كأنما تحت الغطاء شىء كالتوابيت وهبط من أعلن حكم الموت من منصته، وصعد القسيس يحمل الصليب ويطلب من (المجرمين) أن يبوحوا له بما يريدون أن يبثوه من اعتراف، ولم يفعل ذلك سوى واحد منهم، واكتفى الباقون بتقبيل الصليب (لقد شرعوا السيوف فوق

رؤوسنا، وألبسونا قمصان من يقضى فيهم بالموت، وربطونا ثلاثة ثلاثة، وكنت ثالث الثلاثة فى الصف الأول، فعلمت أنه لم يبق من حياتى إلا دقائق معدودة، ذكرتك عندئذ وذكرت أطفالك (هذا خطاب كتبة دوستويفسكى فيما بعد إلى أخيه) وحاولت أن أقبل زميلى فى الصف قبلة الوداع، ثم ما هى إلا أن نفخت ثلة من الجند فى أبواقها نفخة، وإذا بالأغلال فكت عن أجسادنا، وأعادونا إلى منصة المشنقة، حيث أعلن معلن أن جلالة القيصر قد عفا - فقد استبدل القميص بحكم الموت سجنا يكون فيه العمل الشاق. والعربة التى كان يظن أنها تحمل التوابيت لأجسادهم كانت تحتوى على بذلات يلبسها من يصدر عليه مثل هذا الحكم. وألبسوا هذه البذلات وسيقوا إلى السجن، حيث قضوا سنوات أربعا، أطلق سراحهم بعدها، وعاد أديبنا إلى الحياة من جديد، ولكن كيف عاد من سجنة أسلم بدنا وأهدأ عصبا وأكثر فى عقله اتزانا!

استأنف (دستويفسكى) حياته الأدبية، فأخرج قصة (المستذل والجريح)، وعقب عليها بـ (ذكريات دار الموتى) وهو يعنى بدار الموتى: سجنه الذى قضى فيه أربعة أعوام، تقرأ فيه وصف الحياة فى ذلك المكان كما شهدها الكاتب، فتنتفض من هولها رعبا.

وبعدئذ، اكتنفت حياة الكاتب صعاف، من بينها ضيق مالى نتج عن انغماسه فى القمار أوقعه فى دين، لم ينقذه منه بعض الشىء إلا قصة عظيمة صادفت نجاحا عظيما، هى قصة (الجريمة والعقاب) وطريقته فيها - بل طريقته فى قصصه جميعا على وجه الإجمال - هى ألا يحدد لك صفات أشخاصه تحديدا مرتبا، بل هو يسرد لك دقائق حياتهم بالترتيب الذى تقع به فى الحياة، لا بالترتيب المنطقى الذى يسبغه عليها عقل الكاتب، ويتركك تستخلص لنفسك هذه الصورة من تلك الدقائق المبعثرة فى أنحاء القصة هنا وهناك، خذ مثلا لذلك، ترى المجرم فى القصة يعتزم قتل امرأة عجوز تراه يعتزم ذلك منذ الصفحة الثانية من القصة، ثم تتكاثر عليه الحوادث وتتعرج به الدقائق هنا وهناك.

والفن القصصى عند (دستويفسكى) له خاصة أخرى، لعلها تميز القصة الروسية كلها، بل لعلها تميز الفن الروسى كله بما فى ذلك فن العمارة، وهى أن

يتركب الكل من مجموعات تكاد كل مجموعة منها أن تكون كلا مستقلا، فالكنيسة التى تبنى على الطراز الروسى - مثلا - تتألف من عدة أجنحة، يوشك كل جناح منها أن يكون كنيسة قائمة بذاتها، والقصة الروسية تتألف من مجموعة من القصص، لا يصلها إلا خيط رفيع جدا يمكن قطعه والاكتفاء بأى جزء على حدة كأنه قصة وحده - هكذا كان فن (دوستويفسكى) فى قصة (الجريمة والعقاب).

لكن هذه خصائص عامة إلى حد ما فى الأدب الروسى كله، أما ما يميز (دوستويفسكى) فى إنشائه الأدبى - من حيث طريقة الأداء - فهو السرعة فى الانتاج، وقد كان بين الدوافع إليها ضيقه المالى الذى كاد يلازمه، على الرغم من كثرة مكسبه. ولما وجد أن سرعته فى الكتابة أبطأ مما أراد، استخدم فتاة تكتب الاختزال، لينتج فى اليوم الواحد أضعاف ما كان ينتجه - وقد أصبحت هذه الفتاة زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى - وهذا الإنتاج الغزير المتلاحق هو ما كان يطمح إليه، فضلا عن ضرورته المادية، كان يطمح ألا تنقطع صلته أبدا بجمهور قرائه وأن يظل سلطانه على عقولهم متصلا دائما، لكن هذه السرعة لابد أن تؤدى إلى نتائجها الطبيعية من إهمال فى السبق الفنى، حتى لو كان الفنان هو دوستويفسكى.

لقد احتل «دستويفسكى» من الأدب الروسى مكانة رفيعة، فلا يرتفع عليه فى ذلك الأدب إلا رجل واحد، هو «تولستوى».

* * *

ديــدرو

١٧١٣ - ١٧٨٤م
من النجوم اللامعة فى سماء الأدب الفرنسى

ليس من شك فى أن دوائر المعارف من أهم ما يحتاج إليه المثقفون. وهى بمثابة معاجم للعلوم والفنون يرجع إليها العالم والمؤرخ والباحث فى كثير من الأحيان. ولذلك حرص العلماء على تصنيفها وجمعها منذ أقدم العصور.

ولما كانت طبيعة دائرة المعارف الفرنسية (موسوعة ديدرو)، تتطلب أن يعمل فى تحريرها أكبر عدد ممكن من العلماء والكتاب المتخصصين فى أرفع العلوم المتنوعة، وجوانب الثقافة المتباينة الأنحاء والنزعات، فقد اقتضى ذلك ان تسهم فى تحريرها أعلام من جميع الطبقات والدرجات التى تتفاوت رفعة وانحدارا، وتتباين عمقا وسطحية.

غير أن - مع هذا - لا ينبغى البتة أن يقاس مجهود أى واحد من هؤلاء المحررين بمجهود «ديدرو» الذى عالج وحده أكثر من ألف مادة فى هذه الموسوعة الجامعة فى تاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال والفنون الميكانيكية.. وما إلى ذلك.

ولم لا.. فقد كان ديدرو من النجوم اللامعة فى سماء الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر، وكان واسع المعرفة، متعدد المواهب، يجوب المعامل والمصانع لجمع المعلومات وإتقان معرفة الفنون المهنية والحرفية. يصحح ويستكمل مقالات الآخرين وينظم العمل بين معاونيه. وكان رائده فى عمله وجهده تقديس العقل، فكلما خطت الفلسفة فى رأيه بريادة عقلية خطوة استتبع ذلك تقدم العلوم الأخرى. الدين يجب أن تسوده روح التسامح، والسياسة يجب أن تقودها الحرية، والأخلاق عليها أن تهتدى بالسلوك الطبيعى.

لذلك كله يحتم علينا تقديرا للجهود المشكورة، والإنتاج الرفيع، ووضعا للأمور فى مواضعها من سجل التاريخ أن نخصص لديدرو بين صفحات هذه الموسوعة مكانا يتناسب مع مجهوده الجبار العملاقى فى هذه الموسوعة العظيمة.

حياة ديدرو وشخصيته

عندما يريد الباحث أن يقسم كُتاب القرن الثامن عشر حسب المنهج العادى، وأن يميز بين أنصار العقل وأتباع العاطفة، يجد نفسه بإزاء «ديدرو» حائرا كل الحيرة، فهو من ناحية، ملهم دائرة المعارف التى هى من أسمى إنتاج الفلاسفة العقليين فى ذلك العصر، كما أنه من أبرز المفكرين الذين يقدسون الطبيعة. وهو من ناحية أخرى منجم من مناجم الأحاسيس والعواطف. وفوق ذلك فإنه منبع من منابع الحماس والحرارة، وطليعة من طلائع الرومانسية الأوروبية. وتعتبر شخصيته ملتقى لما يعد عند غيره من المتضادات كالعقل والعاطفة. وكان إلى جانب ذلك كله قويا قوة لا تغالب وذا عزيمة فولاذية، بل إن فريقا من الباحثين قد جزم بأن الفضل فى وجود دائرة المعارف راجع فى أكثر نواحيه إلى عزيمة ديدرو، ويعلن أن كل ما عزى إليه من ضعف صحى كان ينمحى أمام شجاعته وإصراره على إنهاء عمله ومثابرته فى متابعته بلا أدنى توقف أو فتور. وفى الحق أنه كان يحمل لرسالته حبا وحرارة لا يتيسران الا للمتسكين. وأخيرا يمكن القول بأن سلوكه فى ذلك المحيط الموسوعى كان على مستوى ذكائه ومواهبه.

ولد «دينس ديدرو» فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى مدينة لانجرز من أسرة متواضعة. وكان أبوه يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة. وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت. ولم يرث «دينس» عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم، ولكنه لم يكف يوما عن إجلاله وحسن تقديره لأمانة أبيه الموسومة بالبساطة وإقباله على أعمال البر والخير فى هدوء. وينقل عنه دينس قوله: «أى بنى، إن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين».

ولما ترعرع «دينس ديدرو» أدخله والده مدرسة اليسوعيين فى مدينته، فنشأ

نشأة دينية محافظة من الجانبين، لأن أسرته كانت قد بلغت من التقوى والورع حدا لا تفوقه مدرسة اليسوعيين إلا بالأساليب المنمقة، والعبارات المنظمة. ولما أتم ديدرو الدراسة الثانوية ارتحل إلى باريس ليدرس الحقوق فى كليتها العالية. وبعد أن أتم دراسته عرض عليه والده أن يختار أحد أمرين: إما أن يبحث له عن عمل يعيش منه وإما أن يعود إلى مسقط رأسه، ليعيش بجانب والده معيشة لا تكلفه تلك النفقات الباهظة التى ينفقها فى باريس. وكان هذا الأمر الأخير مستحيلا، لأنه قد تعود على أساليب الحياة الباريسية وألف الاختلاف إلى البيئات الثقافية المليئة بالحركة والنشاط. فبعث إلى والده رسالة رفض فيها العودة إلى المدينة الصغيرة فلم يكن من الوالد الذى ناء بعبء النفقات الفادحة بالنسبة إلى أمثاله إلا أن قطع عن ابنه ما كان يرسله إليه من مال. فلما رأى ديدرو أنه أصبح وحيدا لا عون له ولا سند فى الحياة وأضحى مرغما على العمل للقوت، لأنه إما أن يعيش من مجهوده الخاص، وإما أن يهوى إلى حضيض البؤس. ولكن هذا الشاب الذكى الممتلئ قوة وحيوية قد انجرحت كبرياؤه وأهين فى عزته واعتبر هذه المعاملة القاسية من والده شائكة لشخصيته، فهب يقدح زناد فكره للخروج من هذا المأزق الذى لحقه منه - وهو لا يزال فى ريعان شبابه - إهانة قاسية. فاهتدى فى النهاية إلى حل ينقذه من هذه الورطة التى أوقعته فيها ظروفه السيئة، وهذا الحل هو أن يحترف الدروس الخاصة يعطيها لصغار الطلاب ويتقاضى عليها أجورا بسيطة. ولم يكن ديدرو شابا سفيها أو سيىء التصرف حتى ينفق كل ما يصل إلى يده من المال على مظاهره أو على بواعث ملذاته، وإنما كان شابا عاقلا حكيما يحرم نفسه مباهج الحياة الباريسية الفاخرة بل بعض ضرورياتها ليقتصد مبلغا من كل شهر ينفقه على تعلم اللغات التى لا قوام لحياته الأدبية إلا بها. فأتقن الإنجليزية والإيطالية والاغريقية واللاتينية، ولم يكتف بهذه الدراسة العالية للغات المختلفة، بل أحس فى نفسه بشغف شديد يدفعه إلى التبحر فى الرياضة، فأرضى هذا الشغف فى نفسه وعكف على مواردها المختلفة فقتلها بحثا وتعمقا. ولهذا تعتبر الأعوام العشرة التى تلت وقوع سوء التفاهم بينه وبين والده أرقى سنى حياته وأكثرها خصوبة وتثقيفا وتحصيلا وإن كانت تعتبر أشد أيامه فقرا وبؤسا وحرمانا من مسرات الحياة.

وبعد ذلك بزمن كتب كتابا سماه «رسالة عن المكفوفين» أهان فيه صديقا عزيزا لأحد الوزراء فانتهز هذا الوزير فرصة، ودبر الوقيعة لديدرو وزج به فى أعماق السجون بجريمة الإلحاد، ولكنه فى الواقع كان محنقا عليه لما وجهه إلى صديقه من اهانات، فلبث فى السجن مائة يوم كانت سببا فى شهرته وذيوع مجده فى أنحاء الدولة.

ولما كان أحد رجال الحكم اذ ذاك يعلم أنه كان قبل سجنه يعمل على رأس فريق من العلماء والجهابذة لإعداد دائرة معارف كبرى ستكون - لو تمت - فخرا لفرنسا، وأنه هو روح هذه الجماعة وقلبها الخفاق وأنها بدونه ستكون معرضة للفشل، صمم على الإفراج عنه ومنحه الحرية ليستطيع أن يؤدى عمله الماجد على الوجه الأكمل المراد وقد فعل، فعاد إلى مهنته واستمر فى أداء واجبه.

تضافرت كل هذه الأحداث على إسطاع كوكبه وتلألئه فى سماء فرنسا فتطلعت البيئات العالية إلى مرآه، واشتاقت المنتديات الفخمة إلى دعوته والتحدث إليه، وكانت هذه المنتديات الأدبية تذكر اسمه إلى جانب اسمى «فولتير» و«جان جاك روسو» ويتلو المجتمعون فيها بعض تعبيراته على أنها مختارات أو نماذج ينبغى احتذاؤها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل كان كثير من مثقفى المدينة يدعونه بالفيلسوف من غير ذكر اسمه. وإذا ذكرت هذه الكلمة فى القرن الثامن عشر صحبها الإجلال والتبجيل اللذان لا حد لهما، فقد بلغ ديدرو قمة المجد فى ذلك الوقت.

ديفــو

١٦٦٠ - ١٧٣٠م
صاحب الأعمال الروائية الرائعة التى خلدت اسمه

لعل أول ما يخطر لنا عند ذكر «روبنسون كروزو» هو تلك الساعات الجميلة التى قضاها معظمنا أيام الطفولة فى قراءة هذا الكتاب الممتع، متعلقين بالبطل، متتبعين لمغامراته، مشدودين إليه وهو يجوب أطراف جزيرته النائية باحثا عن الطعام، مستكشفا معالم عالمه الجديد، أو وهو يقدح زناد فكره ليجد طريقة يصنع بها آنية يحتفظ بها بغذائه، أو وهو يقاتل عددا من أكلى لحوم البشر لينقذ الضحية المسكينة التى كادت أن تصبح طعاما لبعض أفراد جنسها، مبتئسين لوحدته حينا، فرحين بانتصاره حينا آخر، وأخيرا مهللين لنجاته وعودته سالما لبلاده.

ولعل هذا الخاطر الجميل قد ينسينا ولو لبرهة قصيرة ان «روبنسون كروزو» وإن قرئت أول ما تقرأ عادة فى سنوات الطفولة إلا أنها ، مثلها فى ذلك مثل كثير من روائع الأدب العالمى «كرحلات جاليفر»، و «دون كيشوت» مثلا، لم تكتب أصلا للأطفال. فسرعان ما نذكر عودتنا إلى هذه القصة فيما بعد الطفولة واستمتاعنا بها كعمل أدبى فريد، وتناولنا لها بالقراءة الجادة والدراسة والتحليل، فـ «روبنسون كروزو» ليست واحدة من الروايات الخالدة التى راجت وأصبحت جزءا من التراث الانسانى فحسب، ولكنها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأدب أيضا، فهى تعد بحق أول عمل قصصى روائى. كتبها دانيال ديفو فى أواخر الحقبة الثانية من القرن الثامن عشر فكانت فاتحة لذلك النشاط الروائى الذى ازدهر فى انجلترا فى النصف الأول من ذلك القرن.

ولم يكن دانيال ديفو يدرك تماما أهمية العمل الذى قام به وما نظنه كان

يرحب بمولد هذا الفن الجديد - فن الرواية - على يديه. فقد قدم عمله للقارئ مدعيا أنه سجل لأحداث حقيقية وقعت فعلا ولا دخل للخيال فيها. لذا فقد عمل بكل وسيلة لإيهام القارئ بصحة ادعائه فأضفى على أحداث قصته الخيالية جوا من الصدق والواقعية، فوضع بذلك حجر الأساس فى حرفية هذا الفن الجديد.

والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو «حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة». ويعتقد البعض أن «ديفو» قد اقتبس موضوع قصته عن قصة واقعية، وقعت أحداثها لبحار أسكتلندى يدعى الكسندر سيكليرك ذهب فى عام ١٧٠٥ بصحبة الربان المعروف «وليم دامبير» فى رحلة إلى البحار الجنوبية، ولكنه اختلف مع هذا الربان فتركه هذا إلى جزيرة خالية من السكان هى جزيرة «جون فرناندز» بالقرب من الشاطئ الغربى لأمريكا الجنوبية حيث بقى بمفرده حتى عام ١٧٠٩ عندما علم هذه القصة أو على غيرها من قصص الرحالة التى كثرت فى تلك الأيام فإن ذلك لا يقلل من قيمة عمله شيئا فقد خلق عملا جديدا مبتكرا يختلف عن تلك القصة تمام الاختلاف، عملا خلد على مر الزمن بينما اندثرت معظم تلك الأعمال التى يقال إن «ديفو» قد اعتمد عليها، ولعل من حسن حظه أن اختار لنفسه موضوعا يثير الخيال فى جميع الأجيال والأزمان.

وجدير بنا قبل ان ننتقل إلى تحليل «روبنسون كروزو» ودراسة الصفات التى جعلت منها عملا حيا خالدا ان نتعرف أولا على شخصية كاتبها وأن نشير باختصار إلى بعض العوامل التى هيأت الجو المناسب لمولد فن الرواية وازدهاره.

ولد «ديفو» (وكان اسمه الأصلى فو فغيره فى أواسط حياته الى ديفو) فى عام ١٦٦٠ م فى سانت جايلز بلندن من أسرة مزارعين كانت قد انتقلت إلى لندن من منطقة سانت جايلز وكان ينتمى إلى جماعة البروتستانت الذين لا يتبعون الكنيسة الرسمية لإنجلترا ويدعون (المخالفون).

أما ديفو نفسه فكان شخصية مثيرة غامضة. عمل بالتجارة والصحافة والجاسوسية والأدب وأخيرا استحق أن يلقب «بأبى الرواية». ويختلف كتاب السيرة ومؤرخو الأدب فيما يختص ببعض تفاصيل حياته، لما اكتنفها أحيانا من الغموض والتناقض نتيجة لمزاولته بعض أنواع النشاط التى تدعو إلى السرية والحيطة.

والمعروف أن والده أراده ان يصبح قسا فألحقة بكلية نيونجتون جرين الدينية ليحصل على التعليم اللازم لذلك ولكنه لم يتم دراسته وترك هذا المعهد بعد خمس سنوات دون أن يحصل على أية مؤهلات دراسية، ولكنه حصل على كثير من المعلومات التى اعتمد عليها كثيرا فيها بعد، كما أجاد كتابة اللغة الإنجليزية التى أصبحت من أهم الأسس التى قام عليها نجاح كتاباته الصحفية والأدبية على حد سواء. ومما هو جدير بالذكر أن «ديفو» لم يتلق التعليم التقليدى الكلاسيكى ولكنه تلقى تعليما حديثا بمعنى أنه درس اللغات الأوربية الحديثة بدلا من اللغات القديمة كما درس التاريخ والجغرافيا وعلم السياسة، بدلا من الميتافيزيقا والعلوم الشكلية.

ولم يصبح «ديفو» قسا، بل اتجه نحو التجارة فعمل لدى صانع جوارب أولا ثم استقل بتجارة خاصة به فى عام ١٦٨٥ وراجت أعماله وقام برحلات تجارية متعددة إلى بعض أجزاء القارة الأوربية مثل إسبانيا وألمانيا وهولندا.

ولعل أهم ما يعنينا من نشاط «ديفو» هو إصداره لجريدة «ريفيو» وهى دورية سياسية أدبية كانت تصدر مرتين فى الأسبوع وكان ديفو يكتب معظم مادتها بنفسه، وتعد أول جريدة مهمة ناجحة فى ذلك الوقت. ويتفق النقاد جميعا على أن ديفو قد لعب دورا مهما فى إرساء قواعد الصحافة الإنجليزية الحديثة وأنه اكتشف معظم أدواتها فأصبح بذلك «أبا للصحافة» كما أصبح «أبا للرواية». فقد جعل من اللغة الإنجليزية أداة سهلة طيعة لنقل الخبر ونشر الآراء وإقناع القارئ والتأثير عليه وذلك عن طريق استخدام أسلوب بسيط، والتخلص من المحسنات اللفظية التى كانت تثقل أسلوب الكتابة. وهو بذلك لم يخدم الصحافة فحسب ولكنه أعد الطريق لمولد الرواية التى أصبح الأسلوب السهل المعبر هو الذى يعتمد على الدقة والصدق ركنا من أهم أركانها. كذلك فقد عمل من ناحية أخرى على توسيع قاعدة القراء من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يتلقوا تعليما كلاسيكيا بتقديمه نوعا من الكتابة يمكنهم فهمه والاستمتاع به.

وهكذا نرى أن هذه الأعمال الصحفية والسياسية قد ساعدت فى اعداد «ديفو» لعمله الأهم والأبقى وهو كتابة الأعمال الروائية التى خلدت اسمه. فقد علمته إلى جانب ذلك كيف يقنع قراءه بصحة حقائقه وأخباره كما أكسبته تلك

القدرة على اختراع التفاصيل المكانية والزمانية الدقيقة واستخدام ما وصف «بالكذب الذى يشبه الصدق» كما رأينا بوضوح فى «روبنسون كروزو».

❖ وكانت «روبنسون كروزو» أول هذه الأعمال واغراه نجاحها السريع، فقد صدر منها أربع طبعات فى مدى أربعة أشهر. على كتابة جزء ثان مكمل لها أسماه «مغامرات أخرى لروبنسون كروزو» لم يصب، على عادة مثل هذه الأجزاء المكملة كثيرا من النجاح، ولكنه أتبعه فيما بعد بجزء ثالث أسماء «تأملات جديدة فى حياة روبنسون كروزو» لم يكن حظه فى ذلك خيرا من حظ سابقه. وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية الأخرى التى حجب نجاح «روبنسون كروزو» كثيرا من قيمتها وأهميتها، إذ يستحق بعضها على الأقل من العناية والتقدير أكثر مما يناله فعلا من ذلك. وأهم هذه الأعمال هى:

❖ «حياة كابتن سنجلتون» و«تاريخ حياة ومغامرة السيد دنكان كامبل» سنة ١٧٢٠.

❖ «مول فلاندرز» و«تاريخ سنة الطاعون» سنة ١٧٢٢.

❖ «حياة الكولونيل جاك» سنة ١٧٢٣.

❖ «مذكرات فارس» و«روكسانا» سنة ١٧٢٤.

❖ «رحلة جديدة حول العالم» سنة ١٧٢٥.

❖ «حياة كابتن جورج كالتون» سنة ١٧٢٨.

وتعتبر الآن «مول فلاندرز» و«تاريخ سنة الطاعون» و«روكسانا» أهمها. ويذهب كثير من النقاد إلى أن «مول فلاندرز»إحدى روائع الأدب الإنجليزى الروائية على الإطلاق.

* * *

ديكــارت

١٥٩٦ـ ١٦٥٠م
أبو الفلسفة الحديثة

ديكارت هو «أبو الفلسفة الحديثة»، وأول من وصفه بهذا الوصف الفلاسفة الألمان وعلى رأسهم «هيجل» و «شلنج». ولقد أحدثت آراؤه فى الفلسفة والعلم هزة عنيفة، فقوضت مذهب أرسطو، وقضت على علم القرون الوسطى، وأيدت سلطان العقل وناصرت قضية الحرية، وهيأت النفوس للثورة الإنسانية الكبرى.

وقد اشتهر ديكارت فى العصور الحديثة بأنه زعيم «المذهب العقلى» فى الفلسفة. وهذا المذهب عبارة عن القول بأن المشكلات الفكرية العامة التى تعنى بالإنسان بما هو إنسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الإنسانى، ومن غير معونة من شئ خارج عن العقل.

وفلسفة ديكارت عرفت بأنها «فلسفة الأفكار الواضحة المتميزة» كما كانوا يسمونها فى القرن السابع عشر، فقد أرادت تلك الفلسفة أن تخلص الفكر من نير السلطات أيا كانت، فلم تقبل دليلا على الحق إلا البداهة العقلية، أى بداهة العقل الذى يراه الفيلسوف «أعدل الأشياء قسمة بين الناس» وحظوظ الناس منه متساوية، فلا فرق بين شعب وشعب، ولا تفاضل بين جنس وجنس.

سيرة ديكارت من خلال مؤلفاته

كانت حياة الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، حياة جوانية فى صميمها، أعنى أن للروح فيها المقام الأول، قضى الفيلسوف شبابه منقبا عن الموضوعات العقلية، جادا فى درسها، متعقبا المشكلات العلمية، دائبا على حلها، وأنفق أخصب سنى

حياته فى مختلف أنحاء هولندا، طالبا ملاذا مأمونا يستطيع فيه أن يفكر وأن يعمل فى خلوة وهدوء. وانتهى به الأمر إلى أن جازف بتلك الخلوة نفسها، بل بحياته كلها، حين قصد إلى السويد إجابة لإلحاح ملكة تريد أن تخفف من أعباء الحكم بالوقوف على شئ من مبادئ الفلسفة.

وإذا كانت سيرة ديكارت فد تظهرنا على شخصية الفيلسوف، فهى لا تطمع فى أن تفسر لنا عبقريته ومواهبه التى هيأته لأن يكون بطل الفكر الذى عرفه التاريخ الحديث.

ولد «رينيه ديكارت» فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى قرية «لاهى» بمقاطعة «التورين» فى فرنسا، من أسرة صغار الأشراف، وكان أبوه مستشارا ببرلمان «رن».

ويمكن أن نقسم حياة ديكارت إلى ثلاث فترات مهمة:

الفترة الأولى:

فترة دراساته الأولى فى مدرسة «لافليش» حيث تتلمذ على اليسوعيين من سنة ١٦٠٤ الى سنة ١٦١٢، فدرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا.

والفترة الثانية:

من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦٢٩، قضاها فى السفر والارتحال. فقد قصد إلى باريس سنة ١٦١٣، والتقى بالرياضى «ميدورج»، كما التقى بالأب «مرسن» صديقه وزميله منذ عهد التلمذة. وواصل دراسة القانون والطب فى جامعة «بواتييه». وحصل على إجازات الحقوق من تلك الجامعة سنة ١٦١٦. ثم سافر إلى الدانمرك، وقضى الشتاء فى «نويبورج» ووقعت له حينذاك أزمة من أزمات الشك، ولم تنجل الأزمة إلا باكتشاف المبادئ المهمة كمنهجه، فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩. وقضى فترة تحمس ونشوة عقلية، ونذر لله نذرا أن يحج إلى «نوتردام دولوريت». والتحق بجيش دوق بافاريا فى «أولم» وشاهد موقعة «الجبل الأبيض» سنة ١٦٢٠. وفى السنة التالية دخل هولندا وقضى بعد ذلك سنوات فى الارتحال والتنقل بين هولندا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا. وقام بفروض الحج إلى «نوتردام دولوريت».

والفترة الثالثة:

فترة مقامه فى هولندا وبقائه بها عشرين سنة (من سنة ١٦٢٩ إلى سنة ١٦٤٩). وفى تلك الفترة الخصبة كتب أهم مؤلفاته:

١- كتب باللاتينية «قواعد لهداية العقل» سنة ١٦٢٩. ويرى «مييه» أن هذا الكتاب هو أعمق وأروع رسالة منطقية عرفتها الفلسفة فى جميع عصورها بلا استثناء.

٢- وعكف ديكارت فى هولندا على النظر الفلسفى الصرف، ثم وجه اهتمامه إلى دراسة علوم الطبيعة، فحرر كتابا سماه فيما بعد «العالم» سنة ١٦٣١. وقد أراد ديكارت فى هذا الكتاب أن يبسط رأيه فى كيفية نشوء العالم على مقتضى قوانين ميكانيكية صرفة فقد أراد أن يوفق بين الإيمان بعقيدة الخلق، وبين فكرة النشوء الحاصل وفقا للقوانين الطبيعية التى لا يستطاع بعد البرهنة عليها.

ولكن حادثا وقع فى ٢٣ يونيه سنة ١٦٣٣ فكان له أثر فى حياة ديكارت الفكرية. ذلك أن هيئة التفتيش حكمت على العالم الإيطالى «جاليليو» بالمروق من الدين لقوله بدوران الأرض. وكان ديكارت نفسه يقول ذلك فى كتابه «العالم» فلما بلغه نبأ الحكم على جاليليو خاف أن ينشر الكتاب، وكتب الى الأب «مرسن» بأنه إذا كانت حركة الأرض باطلة، فإن جميع أصول فلسفته باطلة كذلك، لأن تلك الأصول تثبت الحركة الأرضية بما لا مجال فيه للإبهام. وقال أيضا إنه لا يستطيع أن يفصل تلك النظرية عن حركة الأرض عن أجزاء كتابه دون أن يتعرض مذهبه كله للخلل. ولكنه لما كان لا يريد أن يصدر عنه قول يمكن أن يوجد فيه ما يخالف الكنيسة، فإنه يفضل أن يكتم ذلك القول على أن يظهر للناس فى صورة شوهاء.

٣- وفى سنة ١٦٣٧ نشر ديكارت بالفرنسية كتابه المشهور «مقال فى المنهج».

٤- وفى سنة ١٦٤١ نشر كتاب «التأملات فى الفلسفة الأولى» وهو أبدع ما كتبه الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام وفى النفس الإنسانية وفى الأدلة على وجود الله بوجه خاص.

٥- وفى سنة ١٦٣٣ نشر كتاب «مبادئ الفلسفة». وفى هذا الكتاب عرض

مبسط للفلسفة الديكارتية يسهل للناس فهمها والإلمام بها.

٦- وكانت الأميرة اليزابيث قد طلبت إلى ديكارت أن يكتب «رسالة فى انفعالات النفس» فأجاب رغبتها، ونشر الرسالة بالفرنسية سنة ١٦٤٩. ورسالة الانفعالات، مضافا إليها رسائل الفيلسوف مع الأميرة تحتوى على أهم ما فى مذهبه الأخلاقى.

وقد كانت «رسائل الانفعالات» آخر مؤلفات ديكارت. ودعته الملكة كريستين ملكة السويد، للسفر إلى استوكهولم، ليلقنها بنفسه مبادئ فلسفته، ولكى يعلمها «السبيل إلى الحياة السعيدة مع الله ومع الناس» فقبل الدعوة بعد تردد منه والحاح من الملكة. وهناك مات فى ١١ فبراير سنة ١٦٥٥ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.

* * *

ديكنز. تشارلز

١٨١٢- ١٨٧٠م
أشهر كتاب الرواية فى إنجلترا

عندما يؤرخ لفن القصة فى العالم، وللرواد الأفذاذ فى هذا الفرع من فروع الإنتاج الأدبى، فلا بد أن يقفز إلى ذهن المرء لأول وهلة اسم «تشارلز ديكنز» أحد عمالقة فن القصة فى الأدب الإنجليزى، الذين أثروا المكتبة العالمية بأروع ماتحوى.

فى كوخ بسيط متواضع بقرية «بورتسى» فى ضواحى ميناء «بورتسماوث» الإنجليزى، ولد «تشارلز جون هسنام ديكنز» فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢. وما أتم العام الأول من عمره حتى نقل أبوه الكاتب فى البحرية إلى لندن، فأقام بها وأسرته أشهرا معدودات، ثم نقل مرة أخرى الى ميناء «تشاتم». وهناك فى كوخ بسيط متواضع أيضا استقرت الأسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما، وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الأسرة فى التكاثر، بينما بقى دخلها الضئيل على ما كان عليه، فأخذت حالتها تبعا لذلك تنتقل من سيئ إلى أسوأ.

وبقى تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة، إذ عجزت أسرته عن إدخاله المدرسة. على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته، ويصطحبه فى رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات، ويروى له الكثير من القصص والحكايات المسلية، كما يقوم أمامه احيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التى برع فى أدائها .. ثم أتيح للصبى أن يبدأ دراسته فى مكتب أولى يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفه المعمدين بالقرية، فمكث فى هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما القراءة والكتابة، وامتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التى قرأ عنها.

ثم انتقل الصبى مع أسرته إلى لندن للمرة الثانية، إذ نزح إليها عميدها.

على أن الشقاء الذى لقيته الأسرة فى لندن كان أشد وأقسى.

وفى ظلام البؤس واليأس الذى ساد حياة أسرة ديكنز، انبثق فجأة شعاع من الأمل، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب.

وكانت المدرسة التى أقنع الصبى والده بأن يلحقه بها هى «أكاديمية ولنجتن هاوس» والدراسة فيها تسير طبقا للطرق التربوية العتيقة، وقد عد «تشارلز» دخوله هذه المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره أكبر حادث سعيد صادفه فى ذلك الحين، وأظهر فيها تفوقا ملحوظا فى التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة، كما أصدر صحيفة مدرسية، كان يحررها ويوزعها بنفسه، بعد أن يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته!

ولكن سعادة الصبى لم تلبث إلا قليلا، إذ وجد نفسه مرة أخرى مضطرا إلى ترك الدراسة للبحث عن عمل يعيش منه، لأن أسرته عادت فقيرة كما بدأت، بعد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذى آل إلى أبيه!

وأنف تشارلز من العودة إلى الأعمال اليدوية المهينة لكرامته، وكان قد أتقن القراءة والكتابة وألم بشىء من اللغة اللاتينية، فاستطاع أن يجد لنفسه وظيفة كاتب فى مكتب محام بسيط.

واستطاع الحصول على وظيفة مختزل فى دار قاضى القضاة، ثم عمل محررا برلمانيا فى بعض الصحف الصغيرة، ولم يمض عليه فى هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررا خاصا فى صحيفة «مورنينج كرونيكل» الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو فى الثانية والعشرين إذ ذاك.

وكان تشارلز قبيل التحاقه بصحيفة «مورنينج كرونيكل» قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة فى لندن والريف، ونشر سلسلة منها فى إحدى المجلات الشهرية بعد أن شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها إليها بتوقيع مستعار. فاتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة إليها. وكان إقبال القراء على هذه القصص كبيرا جدا، مماعزز مركز الكاتب الشاب، وما كاد يطبع المجموعة

الأولى منها فى كتاب مستقل، حتى لقى رواجا منقطع النظير، جعله يقرر التفرغ للتأليف، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره!

أخذ الناشرون يتسابقون إلى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب «تشارلز ديكنز». واتفقت معه «هيئة شابمان وهول للنشر فى لندن» على إخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة، وظهر العدد الأول منها بعنوان «مذكرات بكويك». وأخذ الإقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات. ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية «سام ولر» التى ابتكرها فضاعف ذلك من إقبالهم على قصصه، وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة الى أربعين ألف نسخة، بيعت كلها، فى حين أن ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة، لم يبع إلا حوالى نصفها!

وفى سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز، وهى قصة «أوليفر تويست» فرسخت شهرته الأدبية. ثم توالى نشر سلاسل قصصه فى الصحف، وفى كتب مستقلة، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة، ومجموعات من القصص القصيرة، وكتابا عن «الثورة على البابوية سنة ١٧٨٠». ثم سلسلة من الأحاديث عرفت باسم «ساعة السيد همفرى». لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات الموضوع الواحد، فأخرج قصة «دكان التحف القديمة» التى كانت سببا لذيوع شهرته فى أمريكا أيضا، وبلغ من أثر الإقبال على حلقاتها هناك أن كانت جموع القراء تقف ساعات فى انتظار وصول السفينة التى تحمل الحلقة الجديدة إلى الميناء!

وتلقى ديكنز على أثر ذلك دعوات إلى زيارة أمريكا، وقام برحلته الأولى إليها فى سنة ١٨٤٢ حيث استقبل بأعظم الحفاوة والترحيب، ولكنه لم يجد فى مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التى تخيلها عن الحياة فى العالم الجديد، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشى الرق هناك، كما سخط على الأساليب التى يتخذها الأمريكيون فى حياتهم الخاصة.

وفى الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون انتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم.

ومهما يكن الامر، فقد أتم رحلته فى أمريكا وبلغ مدينة «سان لويس» فى أقصاها غربا، وبعد أن عاد لإنجلترا أخرج كتابا عن هذه الرحلة سماء «اللمحات الأمريكية» وضمنه كثيرا من الانتقادات اللاذعة للأمريكيين. لكنه برغم ذلك لم يتردد فى القيام برحلة أخرى إلى أمريكا بعد سنوات.

وقد كان لمواطنيه الإنجليز أنفسهم نصيب كبير من انتقاداته، فقد أخرج فى سنة ١٨٤٤ قصته «مادتن شوز لوليت» التى ضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة فى الإنجليز، وفى مقدمتها الأثرة والنفاق.

وضاقت به الحياة فى إنجلترا بعد ذلك، أو ضاق هو بها، فقام برحلة فى أوربا مصطحبا أسرته، وكان ذلك عقب نشر كتابه «أغنية عيد ميلاد» فى سنة ١٨٤٣.

مسرحياته

اتجه دكنز بعد عودته من رحلته الطويلة فى أوربا، إلى إشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح، فتوفر على إعداد مسرحية «بن جونسون» وأشرف على إخراجها وعرضها واشترك فى تمثيلها مع نخبة من أصدقائه اختارهم لذلك. وبذل فى ذلك كله جهدا مضنيا حطم صحته، ولاسيما بعد توالى عرض تلك التمثيلية فى العاصمة والريف.

وفى سنة ١٨٥٠ تولى تحرير صحيفة «ديلى نيوز» وبذل برغم سوء صحته نشاطا كبيرا فى سبيل العمل بالشعار الذى اتخذه لنفسه وهو «مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع».. على أنه زهد فى عمله الجديد بعد بضعة أشهر فاعتزله وتفرغ لإصدار مجلة أسبوعية خاصة به سماها «الكلمات المنزلية» واستمر فى إصدارها ثمانى سنين بنجاح كبير، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ واختار لها اسما جديدا هو «على مدار العام». ولم يغفل خلال إصداره مجلته هذه فى عهديها الأول والثانى عن إنتاج مؤلفاته الأخرى من الكتب والروايات، فأخرج قصة «دافيدكوبر فيلد». ثم قصة «المنزل الموحش». فقصة «أوقات عصيبة». وكان فى هذه المؤلفات كلها يصور مختلف ألوان الحياة التى درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته، كما يصور مختلف الشخصيات التى عرفها وكان لها فى حياته أثر ملحوظ، فضلا

عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج فى نفسه من مشاعر وأحاسيس.

وما لبث قليلا حتى عاوده حنينه القديم إلى التمثيل، فقام بجولات فى أنحاء إنجلترا واسكتلندا، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته، فيلقى من الجمهور أشد الإقبال والإعجاب.

وفى خلال هذه الجولات، أخرج رواياته الاخيرة: «قصة المدينتين» و «الآمال العريضة» و «صديقنا المشترك». ثم زار أمريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧.

وبعد عودته إلى لندن فى سنة ١٨٧٠، بدأ تأليف روايته فى تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضى يومه عاكفا على الكتابة فى ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد، وأغمى عليه وهو على المائدة، فنقل الى فراشه، ودعى الأطباء إلى إسعافه وعلاجه. ولكنه بقى فى غيبوبة حتى أعلنت وفاته فى اليوم التالى. فكان لنعيه صدى أليم فى إنجلترا وفى مختلف أنحاء أوربا وأمريكا .

* * *

ديماس. إسكندر «الأب»

١٨٠٢ - ١٨٧٠م
أغزر الكتاب الفرنسيين إنتاجاً وأكثرهم شعبية

كان إسكندر منذ طفولته الأولى أشبه بالفرسان الثلاثة، محاربا متهورا يجاهد صعابا عزيزة المنال. فقد تحدر من أصلاب قوم من المغامرين والمحاربين. ولبى جده الأرستقراطى (دافى دى لابايترى) نداء الدم فأبحر من نورمانديا إلى جزيرة سان دومينجو. وعاش فيها حياة الأباطرة، يحوطه رهط من الأرقاء السود وقد ولدت له إحدى الاماء، لويزا ديماس، ابنا أسود، أسماه (توماس اسكندر) وقد ورث ابن دافى دى لابايترى هذا فوران أبيه وتهيجه:

«أريد أن أتطوع فى الجيش»:

فقال له أبوه: لا بأس. لكن يجب أن تتطوع باسم أمك. فانه ليشقينى أن يحمل جندى أسود اسمى ذاك الشريف (دافى دى لابايترى).

وهكذا انضم توماس إسكندر إلى الجيش الفرنسى عام ١٧٩٣ باسم ديماس. وما هى إلا سبع سنين حتى رقى إلى رتبة القائد. ياله من رجل محارب ظريف عجيب شجاع دمث مفكر. ذلك الارستقراطى الأسود ذو البشرة السوداء والشعر الكستنائى. لقد هاجم البرانس، وأخذ ألفى أسير، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن إحدى القناطر، وكان دائما يحارب فى مقدمة رجاله.. ولقد أغمى عليه مرة بعد معركة فأشرف على الموت، فسأله مساعده حين فتح عينية:

«هل جرحت أيها القائد؟».

«كلا.. ولكنى قتلت كثيرين جدا».

كان يحارب تحت إمرة نابليون بوصفه جمهوريا متوقدا. وظل جمهوريا متوقدا حين نصب نابليون نفسه دكتاتورا.. فطرد من الجيش مجللا بالإهانة والتحقير. فى هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلا قويا كأنه الرجل، وزنه تسعة أرطال وطوله ثمانى عشرة بوصة. وقد ولد الطفل أبيض اللون والحمد لله. كما قالت أمه: له بشرة متوردة وشعر فاتح اللون، وعينان زرقاوان، ولم يبق من آثار أصله الأسود غير غلظة الشفتين فسموا هذا الطفل إسكندر.

وقد شب الطفل منذ طفولته الأولى قويا فى جسمه وعقله وروحه الثائرة.. إن الرجل الشرير (نابليون) لطخ أبى بالعار، فسأكرس حياتى كلها لمحاربة الأشرار.

وحاولت أمه أن تجعل منه عالما، لكنه يبغض التعلم، ثم تحاول أن تعلمه العزف على القيثارة، لكنه يبغض الموسيقى. وأخيراً تحاول ان تحبب إليه العمل بالكنيسة ولكنه يفر من بيته ويقيم بالغابات أياما عدة. فاستسلمت أمه لليأس (إنه لا يقدر إلا على شىء واحد.. هو الكتابة بخط حسن، لكن أى معتوه لا يقدر على ذلك؟).

ولكن إسكندر كان أبعد ما يكون عن العته، فله عينان يقظتان، وعقل متفتح، وقلب يسع العالم كله حبا. وهو على كراهته قراءة الكتب كان يتعلم فى سرعة مطالعة الحوادث الجارية فى صور بديعة شتى، وكانت أعظم الأحداث تجرى فى هذه الأيام الثائرة.

وبعد هزيمة نابليون حاولت أم إسكندر أن تستعيد ثروتها ومكانها، فعرضت على ابنها أن يختار بين أن يدعى بذلك الاسم الأرستقراطى القديم (دى لابايترى. أو أن يستبقى ذلك الاسم المغمور المتواضع (ديماس).

فأجاب الشاب الثائر (سأظل إسكندر ديماس).

لكن ماذا عسى إسكندر ديماس، حفيد الرقيق الأسود، أن يفعل لكسب عيشه. إن فى جودة خطه لجوابا على هذا السؤال، فاشتغل نساخا فى مكتب الأستاذ (منسن) وهو مسجل صكوك حر المبادئ وصديق لأسرة ديماس.

وكان شاب السادسة عشرة ذو الساقين الطويلتين، يقرأ فى هذا المكتب أكثر مما يكتب، وكان هذا يحفظ عليه الأستاذ، فقد أتم قراءة فولتير وكثيرين غيره من الأدباء الذين أذكوا لهيب الثورة،

ثم يستهويه مطمح جديد، فما دام القدر رشحه للمجد العالمى. فلماذا يضيع مواهبه فى مدينة إقليمية صغيرة؟ لماذا لا يذهب إلى باريس؟

ولكن كيف ذلك؟ إن الرحلة إلى باريس لترف لا يسمح به فقر أمه، وضحالة رزقه، لكن إرادة إسكندر كانت لا تعرف اليأس فقد حذق فى ساعات فراغه لعب البلياردو وتحدى الجميع ذات مساء فى الحانة أن ينازلوه.. وعاد إلى منزله وقد احتوت جيوبه ما يلزم الرحلة من نفقه.

فإذا بلغ باريس ولى وجهه شطر المسرح الفرنسى..

لم يستطع أن يجد منتجا لقصة (أيفانهو) ولا لتمثيليته التالية ولا للتى تلتها. لكنه ظل يكتب التمثيليات والقصص ويحاول فى إلحاح دائب ليفرض عبقريته على عالم عنيد. وكلما رفض منتج أو ناشر أن يقابله كان يكتفى بالابتسام للسكرتيرة قائلا شكرا يا آنستى لست ممن تخور عزائمهم بسهولة سأمر ثانية.

وأخيرا سنحت له الفرصة بفضل إصراره وتفاؤله. فإن إحدى تمثيلياته وعنوانها (كرستيانا ملكة السويد) قد قبلت للتمثيل فى المسرح الفرنسى واختير الممثلون، وبدأت التجارب وتقرر النجاح للمؤلف الشاب، لكنه ألقى بالفرصة جانبا وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس. فإن مؤلفا مسرحيا آخر.. رجل عجوز قضى طول حياته يحاول الوصول إلى المسرح على غير طائل قد أتم الآن فقط مثلما فعل ديماس تمثيلية عن ملكة السويد. فقال ديماس «فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته على المسرح قبل أن يودع الأرض» وسحب روايته فى إيثار وشهامة.

ثم شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها (هنرى الثالث) وظفر لها بمنتج وجعل ينتظر على أحر من الجمر حفلة الافتتاح. وكانت ليلة ١١ فبراير عام ١٨٢٨.

كانت الحفلة نصرا باهرا. واستحالت ضجة الاستحسان عند إسدال الستار إلى هذيان محموم حين ظهر المؤلف، ورأسه مرفوع عاليا، حتى إن ناصيته غير

الممشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح. فقد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسى.

ثم يقوم بمغامرة جديدة. فقد صار الكاتب محاربا.

وبينما جيوب ديماس يغيض منها المال ظلت شهرته تسمو من قمة إلى قمة. فهو يتنقل من تحويل التاريخ إلى قصص وإلى تحول القصص إلى تاريخ، فإن قصة (مونت كريستو) هى من صنع الخيال الصرف.

ظل حتى آخر حياته مستهترا ضاحكا مغامرا. ورغم تقدم سنه، وثقل جسمه لكثره ما أصاب من مائدة النجاح. فقد ظل عقله هائجا قلقا على عهده فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها، فقد استعد عام ١٨٤٨ لأن يقود الحرس الوطنى إلى باريس، ولكن الحرس الوطنى يرفض أن يتبعه وانضم عام ١٨٥٩ إلى حركة غاريبلدى ولم يكتف بالمشاركة بثروته التى بلغت ٥٠,٠٠٠ فرنك، بل عرض أن يهب حياته نفسها دفاعا عن الحرية الإيطالية، وقبل بعد أربع سنوات أن يتولى قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك. ولكن يتبين له ان منظم الثورة (الأمير Skan-denberg) رجل محتال. وكان نشاطه القلق دائم السعى إلى التعبير عن نفسه تعبيرا عمليا فلم يجد إلى الراحة سبيلا.

ويعود إلى باريس وهو فى عامه الثالث والستين، بعد أن زار إيطاليا للمساهمة فى الثورة، فيقابله ابنه فى المحطة فى الساعة العاشرة ليلا (لابد أنك متعب جدا بعد ما بذلت من جهد يا أبى، فدعنى آخذك إلى المنزل!)

* * *

ديمـوستـين

٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م
خطيب أثينا العظيم

إن تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان، ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية، فوجهه يبدو عليه الهم والقلق كأن كل نصر أحرزه فيليب (ملك مقدونيا) قد أحدث غضنا جديدا فى جبهته، والجسم نحيل منهوك ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها. وتكشف العينان عن حياة قلقة وتتنبآن بموت مدبر.

تعتبر حياة «ديموستين» نموذجا فريدا للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان. كانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته؛ فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده، حتى لقد قال «كونتيليان» ان طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب.

ولد «ديموستن» فى آثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة؛ ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره، طالب برفع الوصاية عنه، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم في نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام.

وإذا كان «ديموستين» لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا، فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء، وامتلأت نفسه أيضا كراهية لكل ظلم واعتداء. أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على «أسايس»، الذى كان من علماء القانون والذى اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق.

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة. لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظا من التعليم ثم قرأ كتب التاريخ والأدب وأعجبته فصاحة الخطباء وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس وإعجابهم، فتاقت نفسه إلى أن يكون خطيبا، وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى: فكان لها مجلس للشورى أو «جمعية وطنية» تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب، يرجع إليهم الأمر فى شئون الحكم. وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام.

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير، وإنه ليطمح إلى أن يكون خطيبا يشترك بفصاحته فى إدارة شئون الحكم والسياسة، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير فهو ضعيف الصوت قصير النفس مرتبك فى إشاراته، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام. وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه «ساتيروس» الممثل الشهير، الذى اكتشف ما يتمتع به «ديموستين» من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسة ونفس تضطرم بالطموح ونفخ فيه من روحه وأعاد إليه الثقة بنفسه، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق وهو شىء يكسب بالمران.

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها «ديموستين» فى تذليل ما اعترضه من صعاب، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته طموحه إلى التحليق ولكنها قصت من جناحيه، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التى يريدها، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس.

ويروى المؤرخ «بلوتارك» أن «ديموستين» شيد لنفسه حجرة تحت الأرض، كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة وكان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ويصعد الجبل عدوا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت مرتفع أو يقف على ساحل البحر

ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج وكان يحلق نصف رأسه، ليرغم نفسه على ملازمة حجرته بالشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا إلى دراسته وتمرينه.

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ولم يعد يخشى الجمهور، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ولم يلبث ان أصبح خطيب الجمعية الوطنية بل خطيب أثينا الأعظم!!

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه أصبح لسان أثينا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة حتى قال عنه «فنيلون» المؤرخ الكبير:

«إننا إذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته، فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شىء يعترض سبيله، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به؛ لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا».

والواقع أن من يقرأ خطب «ديموستين» اليوم، يشعر فيها بصدق اللهجة والإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب، ويروعه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ويجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور. وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى.

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب، مما جعله فريدا فى العالم القديم: فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار.

وقد خصص «دايونيسياس» بحثا عنه فقال إنه سما بالنثر اليونانى إلى حد الكمال، بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتحصصين فى كثير من الفنون. فاق مدرسة «انتيفون» فى الوضوح والصفاء، ومدرسة «ليسياس» فى الحماسة، ومدرسة «ايزوكرات» فى التنوع والقوة والشعور العميق.

هذا هو «ديموستين» وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته.

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه وقضى حياته كلها مجاهدا فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء.

الخطب الفيلبية:

ولكن جهاد «ديموستين» الأكبر الذى وقف عليه حياته ومات فى سبيله، كان فى تنبيه الأثينيين إلى خطر «فيليب» ملك مقدونيا، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته.

وكان «فيليب» والد الاسكندر الأكبر ملكا لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها؛ فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحا شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الأغريق حريتهم واستقلالهم، وقضى بقية حياته يستفز شعب أثينا للقتال ويحث شعب الأغريق على الثبات والنضال، وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيلبيات.

فلنسمتع إليه فى خطبه الفيلبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة والوطنية فى شعب أثينا فيقول:

يا رجال أثينا:

«ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك، وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر، فاذكروا أثينا وأنه أتى عليها عهد كانت فيه أيضا عزيزة الجانب، وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن. وهذه الأمم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه. فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن اليوم وقال فى نفسه لا طاقة لى على محاربة الأثينيين وقد ملأوا البسيطة عدة وعددا، لما أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرا بباله ولا معلقا بخاطره، بل عرف أن الفوز للجسور دون سواه.

فإذا كنتم أيها الأثينيون تريدون أن تقوموا اليوم بما قصرتم عنه أمس، إذا كنتم قد عزمتم العزم الأكيد أن تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين فقد فزتم بإذن

الله واصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم. لا تحسبوا فيليب هذا إلها لا ينال، إن هو إلا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فإن من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم فى حاجة إلى نصير. تلك الأهواء والشهوات قد ضغط عليها الخمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم.

إلام يا رجال أثينا تظلون «غرضا يرمى وفيئا ينهب؟» ما الذى تنتظرون؟ الساعة الموافقة؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم فى النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان أتريدون أن تطوى أعماركم وأنتم تتساءلون ماذا من جديد؟ ترحا لكم وهل من جديد مثل هذا المقدونى قاهر أثينا ومخضع الأغريق. تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله، وتنسون أن ذلك لا يبدل من حالكم شيئا؛ لأن ما يساوركم من الخمول والعجز والضعة لا ينفع لديكم إلا أن يسلط (فيليب) آخر عليكم».

بهذه الكلمات التى تتقد حماسة وإخلاصا، كان ديموستين يدعو الأثينيين إلى القتال ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين، ولكنها كانت تحوى من أدلة الإقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين: «إنى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش..».

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفا لسهام بلاغته.. والفضل ما شهدت به الأعداء!!

* * *

ديوى، جون

١٨٥٩ - ١٩٥٢م
فيلسوف الديمقراطية

يُعد جون ديوى من أبرز فلاسفة العصر الحاضر، لا فى أمريكا فقط، بل فى جميع أنحاء العالم. فهو ولا ريب فيلسوف عالمى، أو كما يسميه الأستاذ إروين إدمان «أحد صناع التراث الأمريكى»، ثم يضيف إلى ذلك: «يعترف بديوى اليوم بأنه أحد صناع الفكر المعاصر أو أحد الذين جددوا صياغته، ليس بين أوساط الفلاسفة المحترفين فقط بل فى القانون والتعليم والفن». ويقول الأستاذ ديكهويزن: «تعتمد شهرة جون ديوى فى أساسها على مساهماته البارزة فى عالم الأفكار، فهو يعد أحد كبار الفلاسفة الحقيقيين فى القرن الحاضر، وهو أبرز المفكرين التربويين فى أمريكا. وقد امتد أثر فلسفته إلى ميادين شتى من البحث، كعلم النفس، والعلوم السياسية، والاقتصاد السياسى، وعلم الاجتماع، والدين، والتشريع، والتربية، بحيث أحست جميعا بقوة فكره وأصالته...». وكتب الأستاذ جون تشايلدز، أحد تلاميذ جون ديوى، فى أمريكا، «فقد كان له تأثير عميق لا بين الفلاسفة فقط بل على طلاب التربية والجمال والنظريات السياسية».

وليس جون ديوى مجهولا من جمهور المثقفين فى مصر والشرق العربى، إذ نقلت آراؤه فى التربية منذ زمن طويل، واتخذها المعلمون الذين درسوا فى معاهد التربية نبراسا لهم. وترجمت له كتب كثيرة إلى العربية، منها «الديمقراطية والتربية»، و «آراء توماس جيفرسون الحية». وعلى الرغم من أن أحدا غيره من الفلاسفة لم يظفر بترجمة هذا العدد من مؤلفاته إلى العربية - فيما عدا أفلاطون وأرسطو من القدماء وقلة من المحدثين - فلم يكتب عنه كتاب مستقل يحلل

فلسفته، ويشرحها، ويقدمها إلى الجمهور العربى. ولعل ذلك يرجع إلى وفرة تأليفه، ودقة مذهبه، ووعورة أسلوبه.

الرجل فى سطور:

١٨٥٩- ولد فى فرمونت فى ٢٠ أكتوبر

١٨٧٥- تخرج فى المدرسة الثانوية

١٨٧٩- تخرج فى جامعة فرمونت

١٨٨٤- حصل على الدكتوراه من جامعة جون هوبكنز

١٨٨٤- ١٨٨٨ مدرس فلسفة بجامعة متشجان

١٨٨٦- زواجه من أليس تشابمان

١٨٨٨- ١٨٨٩- مدرس فلسفة بجامعة منيسوتا

١٨٨٩- ١٨٩٤- أستاذ الفلسفة ورئيس قسم الفلسفة بجامعة متشجان

١٨٩٤- ١٩٠٤- أستاذ الفلسفة والتربية بجامعة شيكاغو

١٩٠٢- ١٩٠٤- مدير مدرسة التربية بجامعة شيكاغو- إنشاء المدرسة المعملية.

١٩٠٤- رحلته إلى أوربا فى إنجلترا وإيطاليا

١٩٠٥-١٩٣١- أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبيا- أستاذ بمدرسة المعلمين بجامعة كولومبيا

١٩١٩- رحلته إلى اليابان والصين- محاضرات فى طوكيو بالجامعة الإمبراطورية- وفى الصين بالجامعات الوطنية بكين ونانكنج

١٩٢٤- رحلته إلى تركيا

١٩٢٦- رحلته إلى المكسيك

١٩٢٨- رحلته إلى روسيا

١٩٣١- ١٩٣٩- أستاذ شرف للفلسفة بجامعة كولومبيا

١٩٣٧- رئيس لجنة التحقيق فى اتهام تورتسكى ومحاكمته فى موسكو

١٩٥٢- وفاته فى أول يونية

الرجل من مؤلفاته:

١٨٨٢- أول مقالة نشرها: «الدعاوى

الميتافيزيقية للمذهب المادى» The Metaphysical Assumptions of Materialism فى مجلة الفلسفة النظرية

١٨٨٧- علم النفس Psychology

١٨٩٧- عقيدتى التربوية My Pedagogic Greed

١٨٩٩ ـ علم النفس والمنهج الفلسفى Psychology and PhilosophicMethod

١٩٠٠- المدرسة والمجتمع The S chool an Society

١٩٠٢- الطفل والمنهج الدراسى The Child and the Curriculum

١٩٠٣- دراسات فى النظرية المنطقية Studies in Logical Theory

١٩٠٨- الأخلاق (مع جيمس تافتس) Ethics

١٩١٠- كيف نفكر How We Think

أثر دارون - فى الفلسفة The Infuence of Darwin on Philosophy

١٩١٥- الفلسفة الألمانية والسياسة German Philosophy and Politics

ـ مدارس الغد (مع ابنته إيفلين ديوى) Schools of Tomprrow

١٩١٦- الديقراطية والتربية Democracy and Eduction

ـ مقالات فى المنطق التجريبى (طبعة ثانية معدلة لكتاب دراسات فى النظرية المنطقية) Essays in Experimenetal Logil

١٩١٧- الذكاء المبدع (مع آخرين) Greative Intelligence

١٩٢٠- تجديد فى الفلسفة Recontruction in Philosophy

١٩٢٢- الطبيعة البشرية والسلوك Human Nature and Conduct

١٩٢٥- الخبرة والطبيعة Experience and Nature

١٩٧٢- الجمهور ومشكلاته The Public and its Problems

١٩٢٩- شخصيات وحوادث Characters and Events

-الفن والتربية (مع آخرين) Art and Education

- البحث عن اليقين The Quest for Certainty

١٩٣٠- الفردية قديما وحديثا Individuality Old and New

- مقالة «من المذهب المطلق إلى المذهب التجريبى» From Adsolutims to Experimen- talisim

- عقيدتى الفلسفية Credo

١٩٣١- الفلسفة والحضارة Philosophy and Civilisation

١٩٣٤- الفن كخبرة Art as Experience

-إيمان مشترك A Common Faith

١٩٣٥- التحرير والحركة الاجتماعية Liberalism and Sòial Action

١٩٣٨- الخبرة والتربية Experienece and Eduction

- المنطق أو نظرية البحث Logic: The Theory of Inquiry

١٩٣٩- الحرية والثقافة Freedom and Culture

- نظرية القيمة Theory of Valuation

١٩٤٠- التربية فى العصر الحاضر Education Today

١٩٤٦- مشكلات الناس (نشر فى طبعة ثانية سنة ١٩٥٦ بعنوان فلسفة التربية) Probems of Men

١٩٤٩- المعرفة والمعروف (مع آثر بنتلى) Knowing and the Known

الرجل من سيرته

إن صحت النظرية القائلة بأن الإنسان ثمرة البيئة التى يعيش فيها، فإن جون ديوى أبرز مثال على صحة هذه النظرية. فقد اجتمعت له من ميراثه الأبوى، والإقليم الذى نشأ فيه، والتربية التى تلقاها فى حداثته، والأساتذة الذين طلب العلم عليهم، والأمة التى كان فردا من أفرادها وما لتلك الأمة من تقاليد مأثورة عن الحرية والديمقراطية، والعصر الذى ولد فيه وترعرع فى أحضانه، والنزعات الفلسفية والاتجاهات العلمية التى أخذت تقوى وتشتد وبخاصة الاتجاه إلى التصنيع وما تبعه من مناداة العمال بحقوقهم ونزول المرأة إلى ميدان العمل، والتغيير المحسوس السريع الذى نتج عن ذلك فى المجتمع والأخلاق والتربية والدين والفن- نقول: اجتمعت هذه العوامل كلها على تكوين جون ديوى، فكان بذلك ثمرة هذه البيئة الثقافية والحضارية.

ولد ديوى فى العشرين من أكتوبر ١٨٥٩ فى مدينة برلنجتون بولاية فرمونت الواقعة فى شمال الولايات المتحدة الأمريكية على مقربة من حدود كندا. وهو الابن الثالث لأسرة من الطبقة الوسطى، فأبوه من نسل المهاجرين الذين وفدوا إلى أمريكا من بلاد الفلمنك فرارا من اضطهاد الحكام، وكانوا يشتغلون بشتى الصناعات، وقد ورثت الأجيال المتأخرة عن رواد المهاجرين الجرأة والإقدام، والاعتماد على النفس، والتحرر من التقاليد، ومحبة الكشف والمغامرة، واستخدام العقل البشرى فى تسخير الطبيعة، واحترام العمل اليدوى فى كسب المعاش، واعتبار النجاح المادى الملموس دليلا على صحة السبل المتبعة، وهذه الصفة الأخيرة هى جوهر فلسفتهم المسماة بالبرجماتية. ومن هذا الوجه يمكن أن نعد جميع الأمريكان برجماتيين، باعتبار أن البرجماتية تعبر عن الروح الأمريكية، كما أن المثالية عنوان على الروح الألمانية، والتجريبية هى السمة الغالبة للعقلية الإنجليزية، وهكذا. ثم جاء المفكرون الذين اصطلحنا على تسميتهم بالفلاسفة فصاغوا هذه الروح البرجماتية مذهبا منسقا، وهذا ما فعله بيرس، ثم وليم جيمس، ثم جون ديوى.

كان أبوه أرشيبالد بقالا فى برلنجتون، على خلاف المأثور عن الأسرة من اشتغال أفرادها بالزراعة. وقد أمضى جون تعليمه الابتدائى والثانوى فى مدرسة بولنجتون العامة لا ينفك عن شراء الكتب والاطلاع عليها، وكان يحصل على المال

اللازم لذلك من بيع صحيفة المساء التى تصدر فى برلنجتون، ومن الاشتغال بترقيم الأخشاب التى ترد من كندا وتحفظ فى فناء قريب من البحيرة. هذا إلى أنه كان يشارك فى أعمال البيت، وفى أعمال الحقل حين يذهب عند أقارب أمه فى الإجازة. وقد أثرت هذه النشأة الأولى فى فلسفته التربوية.

ولما بلغ جون الخامسة عشرة تخرج فى المدرسة الثانوية، والتحق بجامعة فرمونت القريبة من منزل الأسرة. فدرس خلال عامين اللغتين اليونانية واللاتينية، والتاريخ القديم، والهندسة التحليلية، وحساب التفاضل والتكامل. ثم درس بعد ذلك العلوم الطبيعية ونظرية التطور، وقرأ فى المجلات العلمية ما كانت تنشره فى ذلك الحين حول هذه النظرية التى خلبت ألباب الطلاب. وفى السنة الرابعة من الدراسة الجامعية تلقى محاضرات فى علم النفس، وتاريخ الحضارة، ودرس «جمهورية أفلاطون» التى أثرت فى نفسه إلى الأعماق.

ومما يجدر بالذكر أن ديوى تأثر فى تلك الفترة برجل وكتاب. أما الرجل فهو الأستاذ «تورى» الذى كان يضطلع بتدريس الفلسفة بالجامعة. كانت هواية تورى للفلسفة أصيلة، كما كان معلما بارعا، وإليه يدين جون ديوى بأمرين: الأول استقرار أفكاره نهائيا نحو دراسة الفلسفة واتخاذها غاية له فى الحياة، والثانى قراءته عليه نصوص قدماء الفلاسفة والفلسفة الألمانية، وذلك على الطريقة السقراطية فى الصحبة والحوار. أما الكتاب الذى أثر فى تكوينه الفلسفى فهو «علم الفسيولوجيا» تأليف الفيلسوف توماس هنرى هكسلى (١٨٢٥– ١٨٩٥) والشارح لمذهب دارون فى النشوء والارتقاء، فاستمد من دراسته صورة قوية عن وحدة الكائن الحى، خلقت فى نفسه نموذجا لنظرة أشمل وأوسع للأشياء، تلك النظرة الشاملة التى تتميز بها الدراسة الفلسفية.

ولم يكد يتخرج فى الجامعة حتى تطلع كغيره من زملائه إلى شغل وظيفة مدرس يكسب منها معاشه، فظفر بوظيفة فى إحدى مدارس بنسلفانيا، وأخذ يعلم اللاتينية والجبر والتاريخ الطبيعى، واستمر فى ذلك المنصب سنتين. غير أنه لم يعدل أبدا عن الاشتغال بالفلسفة، والتحق بجامعة جون هوبكنز بغية الحصول على الدكتوراه. وحضر على أستاذين جليلين هما «جورج موريس» و «ستانلى هول»، وكلاهما كان قد عاد من دراسته فى ألمانيا.

وظل الأستاذ موريس يرعاه إلى أن عينه مدرسا للفلسفة بجامعة متشجان، وذلك بعد حصوله سنة ١٨٨٤ على إجازة الدكتوراه، وكانت رسالته بعنوان «علم النفس عند كانط»، وهى رسالة لم تنشر قط، ولا توجد منها نسخة فى الجامعة.

ولا يقل تأثير ستانلى هول عن جورج موريس فى تكوين جون ديوى، الذى أخذ عن ستانلى هول الاتجاه الحديث فى علم النفس القائم على التجارب لا على النظر العقلى. ونحن نجد هذا الأثر واضحا فيما أخذه ديوى عن وليم جيمس من كتابه «أصول علم النفس» ذلك أن جيمس يعتمد على تيارين، الأول هو أن علم النفس هوعلم الشعور، والثانى أن علم النفس يقوم على علم الحياة. واصطنع ديوى التيار الثانى، ورفض الأول.

واتصل ديوى وهو فى فجر حياته العملية بشخصيتين كان لهما أثر عظيم فى آرائه. الأول هو «جيمس تافتس» الذى عرفه حين كان فى متشجان، فاشتغلا معا، وتعاونا على التفكير والتأليف.

مهما يكن من شىء فقد خرج ديوى بعد هذه السنوات من البحث والتفكير إلى تعديل فى فلسفته أعلنه فى كتابه «تجديد فى الفلسفة» وهى المحاضرات التى ألقاها فى طوكيو، وفى كتابه «البحث عن اليقين» وهى محاضرات ألقاها فى أدنبره سنة ١٩٢٩، وسار بعد ذلك فى هذا الطريق الجديد.

ونبغ من تلاميذ ديوى فى كولومبيا عدد كبير يعدون اليوم من طليعة فلاسفتهم، مثل راندال، وإيدمان، وكلبا تريك، وتشايلدز، وهوك، وراتنر، وغيرهم. وبذلك يمكن أن نعد ديوى صاحب مدرسة بمعنى الكلمة تحمل لواء مذهب فكرى فى الفلسفة والتربية والاجتماع والتاريخ.

ولم يقف نشاط ديوى عند الفلسفة أو التربية أو علم النفس بل تجاوزها إلى السياسة. فقد كان من المؤمنين إيماناً عميقاً بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا، ودافع عنها أروع دفاع، كما أرسى قواعدها على أسس فلسفية، ووصلها بالتربية حتى ينشأ الطفل منذ صغره على عشق الديمقراطية ومحبة الحرية، ليكون سلوكه فى الحياة حين يشتد ساعده ويدخل فى طور الشباب والرجولة صادراً عن ديمقراطية أشربت بها نفسه ونزلت منه منزلة الطبع. وبذلك تكون الديمقراطية فى

الدولة ديمقراطية حقيقة، وليست صورية يتشدق بها صاحبها ولا يعمل بها.

ولا ريب أن رحلات ديوى إلى البلاد الأجنبية كانت من أسباب تطور آرائه السياسية والاجتماعية. كانت الرحلة إلى الخارج تقليداً ولا يزال سائداً فى أمريكا لتزويد أساتذة الجامعات بخبرة واقعية عن الحياة فى العالم الذى يعيشون فيه يتضح من هذا العرض لسيرة الرجل أن حياته كانت حافلة بالكفاح الفكرى للدفاع عن مذهبه الفلسفى، وآرائه الجديدة. ولم يكن ذلك المذهب ثمرة تأمل مفكر يعيش فى (برج عاجى) منعزلا عن الناس والعالم، بل نتيجة الاتصال المباشر الوثيق بالناس والمجتمع فى جميع أنحاء العالم، والإحساس بالتطور العلمى أو قل الثورة العلمية التى خطت جبارة منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتى لا نزال نشهد نتائجها ونعيش فيها. غير أن التقدم فى العلوم الرياضية والطبيعة والبيولوجية لم يصحبه تقدم فى العلوم الإنسانية، فكان لابد من ظهور فيلسوف ينعم النظر فى تحقيق هذه الصلة بين التيارين، ويعمل على التوفيق بينهما وهذا ما شغله ديوى. وقد صور لنا تطور تفكيره، ولخصه فى أمور أربعة، هى:

١- الاهتمام بالتربية نظريا وعمليا، وبخاصة الصغار، وأن التفلسف يجب أن يدور حول التربية من جهة أنها تاج الاهتمامات الإنسانية.

٢- إخراج منطق جديد يلغى الثنائية القائمة بين منهج للعلوم، ومنهج آخر للأخلاق، باعتبار أن العلم هو التفكير النظرى، والأخلاق هى السلوك العملى. هذا المنهج الجديد هو الذى سماه «الأداتية».

٣- تخليص علم النفس من النزعات الميتافيريقية والبحث فى الشعور، وتطبيق العلوم البيولوجية على دراسة نفسية الإنسان.

٤- تطبيق العلم الحديث ومناهجه على العلوم الاجتماعية مثل الأنثربولوجيا، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، واللغة والأدب، وغير ذلك.

ولتحقيق هذه الأهداف كتب مؤلفاته العديدة، ومثالياته الغزيرة التى لم ينقطع سيلها إلى أن انطفأت شعلة حياته فى يونية سنة ١٩٥٢، ولا تزال هذه الشعلة متقدة بنور الحقيقة التى دأب على البحث عنها.

رابليه. فرانسوا

١٤٩٠ - ١٥٥٢م
من كبار الكتاب الفرنسيين

جاوزت النهضة الأدبية حدود إيطاليا لتنشر لواءها على فرنسا من بعدها، وكان «رابليه» عَلَمَ النهضة الفرنسية غير منازع، وهل من شك فى أن رابليه الفرنسى، و«سرفانتس» الإسبانى، و «شيكسبير » الإنجليزى، كانوا جبابرة النهضة الأدبية فى أوروبا وروادها؟ وهل كانت النهضة الأدبية إلا عهداً اشتد فيه الشعور بالحياة بعد جمود طويل؛ وعهدا للتحصيل العلمى يستقبل الحياة فى بشر وإقدام؟ وقد وجدت روح النهضة هذه خير ما يعبر عنها فيما كتب رابليه.

من عجيب الأمر أن أعظم الكُتاب، أولئك القادرين على الحديث عن غيرهم فى فصاحة واسترسال، يلتزمون الصمت فيما يتعلق بأنفسهم، فنحن لا نعرف عن حياة رابليه إلا قليلا. كما لا نعرف عن حياة شكسبير غير القليل، فقد شغف كل منهما بتسجيل أفكاره بحيث نسى أن يحدثنا عن نفسه، ويمكن سرد قصة رابليه فى بضع مئات من الكلمات.

كان فرانسوا رابليه مدينا بخشونته الصريحة السليمة إلى دم الفلاحين الذى يتدفق فى عروقه، فأجداده الأقربون قد تخرجوا من طبقة الفلاحين والتحقوا بالطبقة الوسطى. وكان أبوه (أنتوان رابليه) ثريا من ملاك الأرض ومحاميا فى (شينون) تلك المدينة التى بدأت فيها جان دارك حياتها المجيدة قبل ذلك بنصف قرن. وولد فرانسوا سنة ١٤٩٠، ولا يعرف شىء عن طفولته. ولا نلمح صورة واضحة له إلا وهو فى السادسة والعشرين من عمره، فنراه شابا طويلا رقيقا مرحا بالغ الوسامة، ومن المشكوك فيه أن رأسا آخر فى هذا العصر قد استطاع استيعاب

مثل هذه الذخيرة الضخمة من المعلومات. ولا يعرف على التحديد أين تلقى تعليمه، وإن كان من المعروف أنه انضم عام ١٥٢٠ إلى إخوان القديس فرانسيس فى دير بوى سنت مارتن ولا يعلم أحد سبب دخول رابليه فى تلك الطائفة.

بيد أن رابليه لم يكن عميق الاهتمام بمسألة السلم والحرب. بل لم يكن فى الواقع عميق الاهتمام بأية مسألة سياسية أو اجتماعية. فهو فى جوهره كاتب فكه مرح لا كاتب متهكم ساخر. فهو لا يبلغ غاية سعادته - كما يقول - إلا حين يستطيع (الجلوس والراحة والطرب) للمسلاة البشرية التى لا يبدو لها معنى. وكان دائما منشرح الروح. فعواء الساخر القاسى الفؤاد لم يجد سبيلا الى ضحكه. لقد كان ينعم بالهضم السليم بحيث لا يثور ثائره لحماقات رفاقه. وكانت نظرته إلى الحياة دائما غير شخصية. فكان أشبه بمخلوق علوى أرسله سكان كوكب آخر ليعود بتقرير عن المهزلة الممتعة التى تمثل على الأرض.

وكان مصورا للحياة لا يشبع نهمه، فلذلك كان يحاول دائما أن يرقب الحياة من زاوية جديدة. فما كاد يتم مهمته مع الرهبان البندكتيين حتى أخذ على عاتقه أن يدرس الطب. وكان فى الثانية والثلاثين من عمره حين بدأ دراساته الطبية بجامعة منتبلى. وحصل على إجازة الطب بعد ذلك بثلاث سنين فعكف على مهمته الخطيرة فى الحياة، وهى إبراء الناس من أمراضهم بالدواء والضحك. فبدأ يكتب التذاكر الطبية ويكتب (بنتا جرويل) وما مضت خمس سنين حتى قدم كتابه الرائع إلى العالم باسم مستعار.

ولا يمكن إدراج قصة بنتا جرويل تحت أى عنوان مما يصطنعه مصنفو القصص. إنها مزاج عجيب من الجنون والأخلاق، والخشونة والجمال، والامتهان والإخلاص، واللغو الميتافيزيقى والحكمة الفلسفية، والهذر الطائش والروعة الشعرية. إنها أشبه بالحياة فى أنها لا تنتظم فى خطة، وأنها مليئة بالمفاجآت. فالكتاب كله زاخر بالالتواءات الفكرية. وتغيرات الأسلوب، فهو يقودك فى طريق ممتع، وعلى حين بغتة يواجهك بجبل لا سبيل إلى اجتيازه. فإذا وقفت مذهولا مستيئسا من خدعته، فتح لك فجأة نفقا فى الجبل ودار بك من خلال كهوف جميلة تحت الأرض لا تخطر على بالك حتى فى الرؤى. ولا تكاد تخرج إلى ضوء الشمس

حتى يغلبك على أمرك بطوفان من القذارة يكاد يذهب بأنفاسك. فتكاد تستيئس منه فى تفزز واذا هو ينظفك وينعشك بحمام سحرى من ندى الصباح، فتشعر باستعداد للمضى معه إلى سحر ما سيهديك إليه من مناظر الأرض التالية.

هذا هو الأثر بل بالأحرى سلسلة الآثار التى يحدثها رابليه فى عقل قارئه. إنه حرباء عالم الأدب، وهو الساحر صاحب الملايين من الأطوار والأخيلة. لم يكن رابليه يحترم الصورة الأدبية .

إن خيال رابليه الخصب ليتراقص على الصفحات وتتدفق منه الحكمة والجمال. فهو من أبرع أساتذة العالم فى تفسير الحق عن طريق الخيال، وقصصه مليئة بالنوادر المثيرة والقصص الخرافية المثيرة. وأن بعضا من نوادره وقصصه لا ترضى عنه الأذن خجلا واستحياء. ولكنها جميعا تضىء جنبات القلب بوهج الفهم. والحياة كلها عند رابليه نادرة من النوادر، دعابة إلهية ذات نهاية لاذعة.

على أن السنوات الأخيرة من حياة رابليه كانت تختلف عن قصصه فى أنها كانت ممزوجة بالتوابل، ولكنها لم تكن ممزوجه دائما بالإدراك السليم. فقد حاضر فى الطب وكان من أول من أدخلوا تشريح الجثث فى دراسة علم التشريح واختراع آلة جراحية تدعى قاطعة الألسن Clottotomon وعاش فترة فى دير القديس مور، فقد نفى نفسه إليه بوصفه راهبا صحيحا، غير انه قد تدخل فى السياسة بعد ذلك وسجن وبعد فترة قصيرة أفرج عنه. فعمل مستشارا لناشر - وحاول كذلك أن يمثل على المسرح، بوصفه متنفسا لطاقته الدافقة.

ثم عاد إلى الدير. وانضم إلى رجال الدين. وجدد قسمه على التزام العفة. وحنث به وصار أبا جسديا كما هو أب روحى، وندم على ضعفه ثم ندم على ندمه، وأخيرا نام نومته (٩ أبريل عام ١٥٥٣) غنيا بالمغامرات لا بالسنين.

وهكذا عاش وضحك ومات.. ساخر بذ الساخرين أجمعين مرحا وطربا.

راسـل. برتراند

١٨٧٢ - ١٩٧٠م
الفيلسوف داعية السلام

ظللت سنوات طوالاً أقرأ عبارة «الرجال مواقف»، أتمثل عمق هذه العبارة وأبعادها، حتى قرأت تاريخ صاحب هذه السيرة، فهزتنى من أعماقى.. فهذا الرجل ولد وفى فمه ملعقة من ذهب، ولكنه عاف طعم الملعقة الذهبية فلفظها من فمه.. لأنه رأى من حوله أفواها لا تعرف سوى الجوع والمرارة.. ورفض حياة الأرستقراطية بزيفها وأنانيتها، وثار على الطبقة التي هو من صميمها.. ووقف حياته علي خدمة المطحونين والضعفاء.. إنه الفيلسوف البريطانى «برتراند راسل».

ولد برتراند راسل عام ١٨٧٢ من أسرة ارستقراطية عريقة لها شأن عظيم فى الحياة العامة الإنجليزية، وتمتد جذورها لا إلى عدة أجيال فحسب، بل إلى عدة قرون خلت. مات والداه وهو فى سن مبكرة لدرجة أن ذاكرته لا تعيهما. وبعد وفاة والديه تولى جده وجدته أمر تربيته. وأما جده الذى رباه فهو اللورد جون رسل (١٧٩٢ - ١٨٧٨) وهو رجل قام بدور هام على مسرح السياسة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر، فقد تولى رئاسة الوزارة فى عهد الملكة فيكتوريا مرتين، وعاصر نابليون وهو لا يزال امبراطورا.

شب برتراند راسل وترعرع كما رأينا فى أحضان عائلة غير محافظة من الناحية السياسية وإن كانت شديدة المحافظة فى مجالات الفضيلة والأخلاق. وكانت أسرته الأرستقراطية تورث أفرادها إلى جانب ألقاب النبلاء جيلا بعد جيل، الافكار المتحررة التى دأبت العائلة على تبنيها منذ القرن السابع عشر. ولا شك أن هذا الجو قد أثر على برتراند راسل من الناحية السياسية منذ يفاعته. وهو يقول

فى هذا الصدد:

«لقد تعلمت نوعا من الإيمان النظرى بالمذهب الجمهورى الذى لا يرى غضاضة فى السماح لملك يتولى الحكم طالما أنه يدرك أنه موظف فى خدمة الشعب يتعرض للطرد إذا ثبت عدم صلاحيته، وقد كان من عادة جدى الذى لم يَكِنَّ الاحترام للأشخاص أن يشرح وجهة النظر هذه إلى الملكة فيكتوريا التى لم تتحمس لها».

وهكذا نتبين فى جلاء أن برتراند راسل قد نشأ فى بيئة لا تقيم وزنا للملوك أو لنظام الحكم الملكى. والخط السياسى الليبرالى الذى دأبت عائلة راسل على تأييده يتلخص فى الوقوف فى وجه الملوك والنيل منهم كلما سنحت فرصة لذلك، ومؤازرتهم فى حالة واحدة وهى التى يتعرضون فيها لهجوم رجال الدين، مما يدلنا على أن كراهية عائلة رسل للملوك لم تفقها سوى كراهيتها لرجال الدين الذين يمارسون سلطانا زمنيا.

كانت عائلة راسل على الرغم من أرستقراطيتها ومكانتها الاجتماعية المرموقة تنهج أسلوب التقشف فى معيشتها اليومية كما كانت تولى الورع المتزمت، والتقوى المتشددة اهتمامها البالغ، فهى تفرض على نفسها نظاما حازما صارما لا تحيد عنه قيد أنملة.

كان من الطبيعى ألا يسعد برتراند الصبى فى هذا الجو الخانق المتزمت كما كان من الطبيعى أن يتمرد عليه. هذا هو السر فى أن برتراند راسل أوقف فيما بعد جانبا من كتاباته الفلسفية لمحاربة الكثير من أسس المجتمع الفيكتورى الفكرية، وأسلوب حياته. كانت كراهية راسل لأسلوب تربيته الأولى عنيفة جارفة، فهو يدينه ويدمغه بلا لين أو هوادة.

تمرد راسل بفكره على البيئة التى شب فى أحضانها ودمغها بحكمه القاسى عليها بأنها بيئة مريضة تشجع نوعا مريضا من الأخلاق إلى الحد الذى يصل فيه هذا التشجيع إلى إصابة الذكاء بالشلل.

ظهر خلاف برتراند راسل مع عائلته فى سن مبكرة حول دراسة الفلسفة فقد كانت العائلة غير راضية عن هذا الاتجاه فيه. وعملت الأسرة كل ما فى وسعها لكى

تثنيه عن دراستها، فكانت تدأب على السخرية من دراسة الفلسفة والحط من شأنها.

وضاق الغلام ذرعا بهذا التهكم المر على ميوله واستعداده الفطرى. وبات يتشوق إلى اليوم الذى يتحرر فيه من جحيم البيت الخانق. ورغم أن راسل لم يلتحق بأية مدرسة خاصة أو عامة (فقد توفر على تدريسه فى حداثته بعض المربين الخاصين المرموقين)، إلا أنه لم يكن يكره وحشته وعزلته عن صحبة أقرانه من الصبية بقدر ما كان يكره جو البيت الذى أشاع فى قلبه الابتئاس. وعندما حان اليوم الذى التحق فيه راسل بكلية ترينيتى فى جامعة كامبردج (فى الثامنة عشرة من عمره)، غمرته سعادة عارمة، واستبدت به نشوة جارفة فقد أسكره الجو الجامعى وأنعش روحه منذ اليوم الأول. ولا غرو فى ذلك، ففى الجامعة كان فكره يستطيع الانطلاق والتعبير عما شاء من آراء ومعتقدات دون أن يحملق فيه أحد على أنه مختل فى قواه العقلية، أو ينظر إليه علي أنه مجرم أثيم كما كان أفراد عائلته يفعلون. ولم يجد راسل أدنى مشقة فى أن يألف جو الجامعة الذى تلاءمت روحه معه بسرعة فائقة. واستطاع فى أول فصل دراسى له فى كامبردج أن يعقد صداقات وطيدة لم تنفصم عراها مدى الحياة.

وبعد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة بتفوق فى الرياضة جاءت مشكلة العمل الذى يقوم بممارسته. أرادت له العائلة أن يشتغل بالسياسة لأن الاشتغال بها كان العمل الذى توارثته العائلة دون انقطاع منذ القرن السادس عشر. واعتبرت العائلة أن فى الخروج على تقاليدها خيانة للأمانة التى وضعتها فى عنق سليلها. وبذلت الأسرة من ألوان الضغط على راسل الكثير، ولوحت له فى إغراء إنه سيجد الطريق إلى السياسة ممهدا، ومفروشا بالورود، وبالفعل عرض عليه اللورد دفرين وظيفة بالسفارة الإنجليزية فى باريس كما عرض عليه جون مورلى الوزير لأيرلندا وظيفة أخرى. وكاد برتراند راسل أن يلين أمام الضغط والترغيب ويقبل العمل بالسلك السياسى (الذى التحق به بالفعل لفترة وجيزة لاتتجاوز بضعة شهور). ولكن إغراء الفلسفة كان قويا جارفا فلم يستطع مقاومته، رغم ما كان يتضمنه هذا الإغراء من إغضاب للعائلة. وفى عام ١٨٩٥ عين راسل زميلا بجامعة كامبردج

لتدريس الرياضة بها.

بمجرد أن تخرج براتراند راسل من الجامعة غمره شعور بالاشمئزاز من الأسلوب المتبع فى امتحانات الرياضة فيها لدرجة أنه اقتنع بأن علم الرياضة لا يعدو أن يكون ضربا من الأحاجى والألغاز يتطلب التفوق فيه مهارة فى التملص والمراوغة. وأقسم رسل بينه وبين نفسه ألا يفتح كتابا فى الرياضة بعد ذلك. وقام ببيع كل كتب الرياضيات التى فى حوزته. وبدأ يتجه باهتماماته شطر الفلسفة فقد أحس أن دراسة الرياضة قد خذلت أحلام يفاعته.

كان الأمل يداعب برتراند راسل فى يفاعته فى أن تصل به الرياضة إلى التدليل القاطع على الأمور وإذا بأسلوب الامتحانات الجامعية يخيب أمله، ويدله على أنها تتلخص فى مجرد المهارة والحذق فى التخلص من المآزق عن طريق التحايل والمراوغة. إن السبب الذى حدا به إلى دراسة الرياضة فى صباه هو اللذة التى كان يشعر بها فى البرهنة على الأشياء وحبه الذى يجرى فى عروقه للاستدلال العقلى. وكانت ملكة التدليل هذه متأصلة فيه منذ صباه. فعندما كان فى الحادية عشرة من عمرة توجه إلى أخيه الذى يكبره بسبع سنوات ليتلقى على يديه أول درس فى الرياضة. كانت هندسة أقليدس هى المتبعة حينذاك. وبدأ أخوه الأكبر بالتعريفات وسرعان ما استوعبها عقله. ولما جاء دور البديهيات أفهمه أخوه أنه يتعين عليه أن يقبلها على أنها مسلمات لا تقبل الجدل ولا تخضع للبرهنة والإثبات، فاستاء راسل الصبى وأظهر نوعا من الغضب وقال مخاطبا أخاه: «ولكن لماذا ينبغى على أن أعترف بهذه الأشياء اذا لم يكن من المستطاع إثباتها؟» فأجابه أخوه: «إذا لم تعترف بها فلن يمكننا الاستمرار فى الدرس». ولم يحمل الصبى على الاذعان سوى حرصه على أن يعرف «بقية الحكاية» على حد تعبيره، وخشيته من أن يمتنع أخوه عن الاستمرار فى الشرح. وهكذا اضطر راسل رغم شكه وحيرته إلى قبول البديهات على أنها مسلمات لا تقبل الإثبات أو البرهان.

مر برتراند راسل بمراحل تطور فكرية واضحة حددت اتجاهاته الفلسفية فقد بدأ بإعجابه بفلسفة الفيلسوف الألمانى «كانت» ولكنه هجرها عندما أسقطته كما يقول فى وهدة من الطلاسم الميتافيزيقية المحيرة. وعاف عقله الشديد الحرص

علىٰ الوضوح، ما انحدر إليه بسبب فلسفة «كانت» من غموض. وليس هناك أدل على كراهيته للغموض مما كتبه عن نفسه قائلا «إننى أحب التحديد، وأحب الخطوط الواضحة وأمقت الغموض المستغلق».

وبعد ان تخلص رسل من أثر «كانت» عليه، وقع تحت تأثير الفلسفة الهيجيلية فقد أرشده صديقه الحميم ماك تاجارت رائد الهيجيلية فى إنجلترا إلى هذه الفلسفة. واجتذبت الهيجيلية برتراند رسل إليها لما عرفه عنها من انها فلسفة ترضى الرغبة فى الايمان عن طريق الاستمساك بجوهريات الدين فى إطار عقلى شديد التعقيد، لا تحده الحدود التقليدية الضيقة، فهذه الفلسفة تنتهى إلى «المطلق» وهو اسم آخر لله، كما أنها تصور الكون على أنه وحدة واحدة لا سبيل إلى الفصل بين أجزائها. ومما زاد تشبث رسل بالهيجلية فى وقت من الأوقات هو ارتياحه للاعتقاد بأن المادة وهم وبأنه لا وجود للزمان والمكان وبأنه ليس هناك لغير العقل وجود. ويقول رسل إن أثر هيجل عليه استمر لمدى طويل حتى بدأ يقرأ هيجل فى نصوصه الأصلية فروعه وخيب ظنه ان يصطدم بحزمه من الأفكار المضطربة المهوشة التى بدت له مجرد تلاعب بالألفاظ.

وبعد أن هجر براتداند راسل فلسفة هيجل، استأثر به لبعض الوقت نوع من التصوف الرياضى استمده من أفلاطون الذى استمده بدوره من فيثاغورث. وبعد أن أجرى راسل على الأفلاطونية بعض التغييرات التى خففتها ولطفت من حدتها، آمن راسل كما تؤمن الأفلاطونية بأن هناك عالما من المثل كاملا سرمديا لا يعرف التغير، عالما تعطينا الحواس عنه صورة ناقصة شائهة تنأى عن الكمال، وبأن الرياضة التى تعالج عالم الافكار تتصف بالكمال والدقة اللذين يخلو منهما عالم الحس المتغير الذى نخبره فى حياتنا اليومية. ولكن الأمر انتهى ببرتراند راسل الى نبذ هذا التصوف الرياضى ومنذ ذلك الحين وراسل لا يجد رأيا دينيا في أى مذهب فلسفى يستطيع أن يقتنع به.

وفى عام ١٩١٨، عكف برتراند راسل على كتابة «الطريق إلى الحرية» إبان الحرب العالمية الأولى. وفى هذا الكتاب دافع راسل عن الاشتراكية، واعتبر أن اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس، والفوضوية كما بشر بها باكونين وكروبوتكين

ومذهب الاشتراكية النقابية المتطرفة كما كان سائدا فى فرنسا، تكون جميعا دعائم الحرية وترسى أسس المجتمع الجديد الذى كان راسل يرغب فى إنشائه على أنقاض العالم القديم الذى قوضت أركانه الحرب العالمية الأولى .

ولكن فى عام ١٩٢٠ زار برتراند راسل الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة، وتعمد أن يختلط بأكبر قطاع ممكن من الناس حتى يتعرف على التجربة الشيوعية الوليدة. وقابل راسل لينين ومكث معه ساعة. واغتم الفيلسوف لما رآه من مظاهر القسوة والبطش فى روسيا الشيوعية، ومن غلظة قلب زعيمها لينين. وتركت هذه الزيارة القصيرة فى نفسه أسوأ الأثر.

وهكذا خرج برتراند راسل من روسيا الشيوعية ساخطا كل السخط وشرع يهاجم الشيوعية السوفيتية. واستاء اليساريون فى الغرب من هجومة على التجربة الشيوعية الجديدة التى يعطفون عليها، ونظروا إليه شزرا واعتبروه أجيرا للبورجوازية. واستمر اليساريون الغربيون يناصبونه العداء إلى وقت قريب حتى استيقنوا أن الاتحاد السوفييتى لا يقيم المجتمع الذى يحلمون بإقامته.

يجد برتراند راسل صعوبة كبيرة فى أن يتلاءم مع أحداث القرن العشرين فقد شب وترعرع فى ظل مجتمع له مقدساته وتقاليده الراسخة كالطود الأشم ولكنه يرى الآن بعين الحسرة والألم جل هذه المقدسات الشامخة والتقاليد السامقة تتهافت ثم تزول. أما البقية الباقية منها فتهددها الأخطار من كل جانب..

إن التغير الذى طرأ على العالم فى القرن الماضى يهول راسل ويفزعه وهو ينظر إلى انكماش الحريات فى العالم وتقلصها نظرة ملؤها الحزن والأسى. وهذا طبيعى للغاية فقد نشأ الفيلسوف فى أحضان المجتمع الفيكتورى وثار فى وجه الكثير من قيمه. ولكنه تشرب روحه الديمقراطية المتحررة كما وضع أسسها الفيلسوف الإنجليزى جون لوك فى القرن الثامن عشر وكما درج القرن التاسع عشر على فهمها. وقد يجوز لنا أن نصف رسل بالأرستقراطى المتمرد فهو ولاشك يسعى الى تحطيم الكثير من قواعد الفكر المألوفة فى المجتمع الفيكتورى التى لا تزال مألوفة فى العصر الحديث، ولكن الذى لا شك فيه كذلك أن التقليد الليبرالى

الديمقراطى المتأصل فى المجتمع الفيكتورى يلقى منه كل احترام وينال كل اكبار، وخاصة بعد أن شاهد راسل العالم المحموم ينزلق فى حربين عالميتين مجنونتين فى مدى قصير.

يقول برتراند رسل إن التنبؤات التى ذكرها جورج أورويل فى قصته المعروفة (١٩٨٤) تتحقق بالتدريج، وأن العالم عن بكرة أبيه يتوغل فى الظلام الذى صوره أوريل فى هذه القصة. وإذا كان العالم لا يدرك حقيقة هذا الموقف فذلك لأن الحريات تتكمش بالتدريج، ولأن الناس فى الغرب قد استخف بهم الرضاء عن النفس فظنوا واهمين أنهم بمأمن من هذا المصير وتوهموا أن ظلام الديكتاتورية الدامس كما رسمه أورويل، المخيم على الاتحاد السوفيتى لن يصل إليهم بحال من الأحوال دون أن يدركوا أن نفس الظلمة تزحف إليهم وتشملهم بالتدريج. ويقول رسل أنه لابد للناس فى الغرب أن ينتبهوا إلى أن العالم قد افتقد الكثير من مظاهر الحرية التى كانت تسود أوروبا فى القرن التاسع عشر.

وقد أصدر الفيلسوف برتراند راسل كتابا بعنوان «حياتى بقلمى» وكشف فيه عن جذور الفلسفة فى الطفولة السعيدة وفى المراهقة التعيسة، وفى الرجولة المليئة بالقضايا والاكتشافات العلمية، وبرتراند راسل يعطينا خريطة أعماقة النفسية عندما يقول: «استولت على حياتى عواطف عميقة قاهرة قوية بسيطة.. الحب.. الرغبة فى المعرفة.. العطف على المعذبين.. وهذه القوى الثلاث كانت مثل رياح عصفت بى هنا وهناك، وفى طرق ملتوية، وفوق محيط عميق من القلق، وطوحت بى إلى آخر حدود اليأس.. لقد بحثت عن الحب، لأن الحب يحقق لى النشوة لدرجة أننى كنت على استعداد لأن أضحى بحياتى كلها من أجل ساعات قليلة من النشوة الغامرة، وبحثت عن الحب لأنه ينتشلنى من العزلة، التى تجعل مشاعرنا ترتجف، وتطلعت إلى الحب لأنه يفتح أمامى عالما صوفيا صغيرا كالذى عاش فيه القديسون والملائكة والشعراء، هذا هو الحب الذى بحثت عنه ووجدته».

وبعد وفاة أبيه، ألف كتابا خطيراً عن «تحليل العقدة الدينية» وكلفه ذلك الكتاب مالاً ووقتا، وفيه يقول راسل «لقد اكتشفت جدتى أن المدرس الذى كان يعلمنى مبادئ العلوم والتاريخ لم يكن رجلاً متدينا، وإنما كان ملحداً، فكان هذا

الاكتشاف بالنسبة لها مروعا، وقد طرد الأستاذ، وحزنت عليه حزنا شديدا».

ويذكر «راسل» واقعة عجيبة، فقد كان من أعز أصدقائه فيلسوف اسمه «هوايتهد» وبالاشتراك مع هذا الفيلسوف أصدرا سويا كتابا فى الرياضيات يعتبر ثورة فلسفية.

وأصبح التفكير عادة عند برتراند راسل كما أصبح التفكير أثناء المشى رياضته اليومية الأثيرة، ولذلك كان يمشى فى الحديقة، ويتنقل من الحديقة إلى الغابة، وكان يعرف الأوراق التى تنمو، والأزهار التى تظهر، ويعرف الأشجار ومعالم الطريق، ويعرف شكل الغابة عند الشروق والغروب، وكان يحرص على رؤية كوكب الزُّهَرة، ويقف عند أوكار الطيور.

وكان برتراند راسل يؤمن أن هناك ثلاث قوى تحرك الرجال، هى «القوة» و«الجنس» «والأبوة» والرجال الذين ينشدون القوة، يدرسون الجنس والأبوة، وفى الفترة الأخيرة من حياته، أخبره أحد الأطباء أن الالتهاب الموجود فى شفتيه هو «السرطان» وأن حياته مهددة بالموت بين لحظة وأخرى، وانزعج الفيلسوف، ولكنه فى نفس الوقت أقبل على الحياة وعلى الحب بشراهة، وكتب يقول فى مذكراته: «إن هذا المرض معناه أن السماء قد انتقمت منى، فالفم الذى يتحدث بالعمل والمنطق، مصاب بأخبث الأمراض» ولكن الفيلسوف تأكد فيما بعد أن مرضه ليس سرطانا، وأن علاجه سهل ميسور، وتم شفاؤه!

ومات برتراند راسل فى فبراير عام ١٩٧٠، وانطفأت الشعلة الوهاجة.. وانتهت حياة صاحب أقوى صيحة فى القرن العشرين ضد الحروب والدمار.. الفيلسوف الذى شق طريقه وسط العواصف والأعاصير.. وشغل مكانا بارزاً بين مفكرى العصر.. وفى صدر الوجود..!

راسين. جاك

١٦٣٩ - ١٦٩٩م
أعظم المسرحيين فى تاريخ الأدب العالمى كله

«جاك راسين» شاعر مسرحى فرنسى يعتبر أحد أعظم المسرحيين الكلاسيكيين فى تاريخ الأدب العالمى كله.

كان يصغر منافسه العظيم كورنى بنيف بثلاثين عاما. ولد فى بلد قريب من «سواسون». وماتت أمه ثم مات أبوه وهو لم يزل فى طفولته، فكفله جداه وربياه تربية كاملة حتى أتم دراسته. ولبث بضع سنوات وهو فى حيرة: أى طريق يختار فى حياته. أما ذووه فقد أرادوا له وظيفة دينية تدر عليه كسبا عظيما، وأما هو فكان بطبعه نفورا من مثل هذا، وأخيرا شاء له الحظ الباسم أن يشفى الملك من مرض ألم به. فكتب شاعرنا قصيدة فى ذلك صادفت إعجابا، فأجرى عليه راتبا يكفيه وكان له إذ ذاك خمسة وعشرون عاما من عمره. وفى السنة نفسها أخرج مسرحية «مأساة طيبة»، ثم لبث بعدها ثلاثة عشر عاما يخرج المسرحية تلو المسرحية. وكان «راسين» يحظى عند الملك وتابعه بمكانة ممتازة. أما عند المختصين بالنقد الأدبى فكان هو وكورنى يتنافسان فى الزعامة، ففريق يؤثر هذا وفريق يفضل ذاك، ومن بين مآسيه «الإسكندر الأكبر» و«أندروماك» التى ارتجت لها باريس، كما ارتجت منذ إحدى وثلاثين سنة لمسرحية كورنى «السيد»، فقد ظهرت فى هذه المسرحية خصائص راسين ودلائل نبوغه، وأعقب هذه المأساة ملهاة «المترافعون» التى سخر فيها بالقانون سخرية لاذعة. ثم أخرج هذه الملهاة ست مآس، هى: «برتانكيس» و«بيرينيس» و«بايزيد» و«متريدت» و«أفجينيا» و«فيدر».. وفشلت هذه الأخيرة حينا

فاضطربت لهذا الفشل نفسه الحساسة التى لم تكن تحتمل النقد، فنفض يديه من الأدب المسرحى، وتزوج وعاش عيشا هادئا دام عشرين عاما، ولم يكتب بعد ذاك إلا مسرحيتين تصطبغان بصبغة دينية.

كان «راسين» من أولئك الشعراء الذى وهبهم الله قدرة الابتكار فى الموضوعات، لكنه وهبهم قدرة أخرى فى سعة وإفراط ونعنى بها قدرة النسج على منوال موجود والكتابة على غرار مثل ونماذج سبقت إلى الوجود، ويحضرنا من هذا القرن من الشعراء «فيرجيل» فى الأدب الرومانى القديم، و«بوب» فى الأدب الإنجليزى فى مستهل القرن الثامن عشر.

وهناك ظاهرة نلاحظها فى أدب راسين وهى أنه يميل إلى تصوير الواقع، وهنا قد يختلط الأمر على القارئ، إذ يراه فى مسرحياته يرسم عالما أبعد ما يكون عن هذا العالم الذى نعيش فيه، لكن النظرة الفاحصة سرعان ما ترد الأمر إلى الصواب. فلقد كان «كورنى» ينزع بطبعه إلى اختيار الشواذ، ثم يحيطهم بالمواقف الشاذة، فتكون العواطف الناشئة فى نفوسهم عن تلك المواقف شاذة أيضاً. أما راسين فيختار من الأشخاص والمواقف والعواطف ما يطابق الطبيعة البشرية، ولا عبرة بعد ذلك بأى الأشخاص والمواقف يختار. إنه لا يميل إلى المبالغة والتهويل اللذين نلمسهما فى كورنى، لأن المبالغة من خصائص الأدب الابتداعى، وراسين اتباعى صميم، فلا مبالغة ولا إسراف فى تصوير الناس ووصف ما تجيش به صدورهم، قد يختار راسين موقفا من عهد غابر وأشخاصا انقضى زمانهم، لكن ليتخذ منهم وسيلة يبرز بها الطبيعة البشرية، كما نعهدها بقوتها وضعفها فى الحياة الواقعة التى تحيط بنا.

روسو. جان جاك

١٧١٢ - ١٧٧٨م
أديب فرنسا وفيلسوفها

هناك علماء وأدباء ومفكرون أحدثت آراؤهم دويا فى العالم، وكانت الأسباب الرئيسية فى حدوث ثورات وتغييرات عنيفة فى حقول السياسة والاجتماع. ويأتى على رأس هؤلاء المفكر الفرنسى المعروف جان جاك روسو.

وإذا كانت سير الرجال العظام هى مراحل التاريخ الذى صنعوه وصورة الأزمنة التى عاشوا فيها، فلابد من البدء بعرض حياة فيلسوف فرنسا كما سطرها فى اعترافاته التى لم يسبقه إليها أديب من قبل لما فيها من جرأة نادرة وصراحة غريبة، وكما سجلها عشرات بل مئات الباحثين الذين كتبوا عنه. وإذا كان علينا أن نجمل حياته فى كلمات. فإنا نستعير قول «رومان رولان» فيه: «إن حياة روسو وكتاباته تمثل فى ميدان التاريخ الاوروبى حالة ربما كانت فريدة لرجل عبقرى هبطت عليه العبقرية على منشوده وخلافا لإرادته».

نشأ جان جاك روسو فى أسرة بروتستانتية من أصل فرنسي وقد ولد فى جنيف يوم ٢٨ يونيو ١٧١٢. وتوفيت أمه فى أثناء ولادته، فتعهده أبوه، إيزاك روسو، الساعاتى، بالتربية، وبعد طفولة أحيطت بقدر كبير من الحرية عهد به إلى الراعى لامبرسييه، الذى علمه اللاتينية. وفى عام ١٧٢٧، التحق تلميذا لدى حفار معروف، كان يقسو فى معاملته، ولم يكن الشاب المراهق راضيا عن هذا الوضع، وكان يفضل القراءة والنزهة فى حقول جنيف. وفى ذات مساء من شهر مارس ١٧٢٨ قرر ألا يعود لمعلمه، وهرب سيرا على قدميه فى طرقات سافوى، فآوته مدام «دى وارن»

وهى من الأتباع الذين تحولوا إلى الكاثوليكية، وأوفدته إلى تورين لكى يعتنق هو الآخر نفس المذهب.

وبعد حياة غير مستقرة، زاول خلالها العديد من المهن عاد الى مدام دى وارن فى شارميت سنة ١٧٣٢، وهناك قضى روسو فترة سعيدة حتى عام ١٧٤٠ وأتم تعليمه وهو عند تلك السيدة التى طفق يناديها بأمه. ثم غادر شارميت فى عام ١٧٤٢ قاصدا باريس.

وظل روسو طوال عشر سنوات مختلطا بالحياة الاجتماعية وهو يحلم بالشهرة، عمل أولا معلما، ثم مدرسا للموسيقى، ثم سكرتيرا بسفارة فينيسيا. وسرعان ما عزل من وظيفته. ولكنه ظل يحتفظ بذكرى مريرة لاتصالاته الأولى بالمجتمع، وفى عام ١٧٤٣ حاول أن يلفت إليه الأنظار، فقدم إلى أكاديمية العلوم مشروعا ثوريا عن العلامات الموسيقية علي أساس حسابية، ولكن المشروع لم يلق نجاحا، ثم كتب باليه «أشعار الغزل» عام ١٧٤٥، وتعاون مع ديدرو فى كتابة الموسوعة.

وذات عصر مشمس من أكتوبر ١٧٤٩ لفت نظره إعلان من أكاديمية ديجون يقول إن المؤسسة خصصت وساما ذهبيا لأفضل بحث فى الموضوع الآتى: هل أدى التقدم فى الآداب والعلوم إلى تنقية الأخلاق أم إلى إفسادها؟».

وللحال تراءى له أنه يقف وجها لوجه أمام السؤال الذى ما انفك منذ طفولته يستعد للإجابة عنه. والتمعت فى ذهنه الأفكار كما يسقط الوحى. وكتب لاحقا يصف ذلك: «لقد تجمهرت الأفكار فى رأسى، تحفز إحداها الأخرى». أما الفكرة الرئيسية فكانت الآتية: «الإنسان صالح بطبيعته، والمؤسسات الاجتماعية وحدها التى أفسدته» وجاءت ثمرة أفكاره مقالا بعنوان: «مبحث فى العلوم والآداب»، لم تقتصر نتيجته على نيل الجائزة، بل لقد كان نقطة تحول فى الفكر السياسى الغربى. وهو كذلك، أطلق كاتبه جان جاك روسو إلى طليعة الفلاسفة الأوروبيين.

ثم قدم إلى الأكاديمية رسالته عن العلوم والفنون لينال الجائزة ولقد أجاز المجمع هذه الرسالة. ثم كتب سنة ١٧٥٢ أوبرا هزلية بعنوان «منجم القرية» وملهاة بعنوان «نرجس». ثم عاد إلى جنيف ١٧٥٤ واستعاد صفة المواطن لمدينة جنيف بعد

أن كان قد فقده منذ مدة. وأخرج فى سنة ١٧٥٥ مؤلفه الشهير عن أصل التفاوت ونشأته بين الناس وهو يحاول فى هذا المؤلف الوصول إلى صفات «الإنسان الطبيعى» أو الإنسان الأول قبل أن يتحضر وتدمغه الحضارة والمجتمع بصفات معقدة أدت إلى إخفاء ملامحه الأصيلة وإشقائه، مبينا كيف أن الناس كانوا فى حالة الطبيعة متساوين ولكن المجتمع والحضارة هما اللذان أديا إلى ما نرى بينهم من فوارق. والواقع ان روسو يحمل فى هذا المؤلف والمؤلف الذى قدمه لجامعة ديجون عن تقدم العلوم على الحضارة مدعيا ان الحضارة فاسدة وأن التقدم الحضارى هو أساس ما تعانيه البشرية من شرور وآثام ثم ينصح بضرورة الرجوع «إلى حالة الطبيعة» التى تؤدى وحدها بالإنسان إلى السعادة.

وهنا يقترح روسو فى خطابه عن تقدم العلوم الرجوع إلى حالة الطبيعة، غير أن هذا الحال بدا له مستحيلا لأن الإنسان اصبح متعلقا بالحياة الاجتماعية بشكل يجعله غير مستعد إطلاقا للتنازل عنها، إذ أن الحياة الاجتماعية بالنسبة إليه بمثابة «طبيعة ثانية» لا يستطيع أن يستبدل بها غيرها. ومن هنا يبدو الحال الثانى لهذه المشكلة وهو يقوم على إصلاح الحياة الاجتماعية إصلاحا من شأنه أن يؤدى بالإنسان إلى التمتع بالميزات الطبيعية التي كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة والتى فقدها إلى الأبد.

ولكن هل من الممكن تحقيق هذا الحل؟ ويجيب روسو على هذا السؤال فى كتابه عن العقد الاجتماعى. فكتاب العقد الاجتماعى ليس إلا محاولة لإصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع حتى يستطيع الإنسان أن يسترجع كل أو بعض الميزات التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة. ولكن فى حالة استحالة استرجاع مثل هذه الميزات يمكن اعتبار كتاب العقد الاجتماعى محاولة لإيجاد اصلاحات اجتماعية من شأنها ان توفر للإنسان الاجتماعى ما يعادل ما فقده من ميزات، كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة، او ما يعوضه عن فقدانه لتلك الميزات.

وما أن صدر كتابه الجليل الشأن عن العقد الاجتماعى سنة ١٧٦٢ حتى قررت السلطات الحاكمة القبض عليه بتهمة إثارة الخواطر ضد نظم الحكم والقوانين والعادات والتقاليد المستقرة، مما أدى به إلى الفرار من فرنسا إلى سويسرا. ولكنه

طرد بعد ذلك من سويسرا وعاد إلى فرنسا بعد عدة سنوات. ثم قام بتأليف قاموس عن الموسيقى سنة ١٧٦٧ وقضى عدة سنوات فى الترحال من بلد لآخر. ولقد قام فى باريس سنة ١٧٧٢ بتأليف كتابه «ملحوظات عن حكومة بولونيا» ضمنه كثيرا من آرائه لإصلاح نظام الحكم فى تلك الدولة، ثم أتم فى تلك السنة كتاب «الاعترافات» الذى ضمنه تاريخ حياته، كما بدأ فى نفس السنة كتابة مؤلفه «أحلام أو تأملات مشاء وحيد».

ولقد توفى روسو فى ٢ من يوليو سنة ١٧٧٨ أى قبل قيام الثورة الفرنسية بإحدى عشرة سنة، فلم يعش إذن ليرى الثورة التى كانت مؤلفاته من بين الكتابات الهامة التى أدت إلى إشعالها.

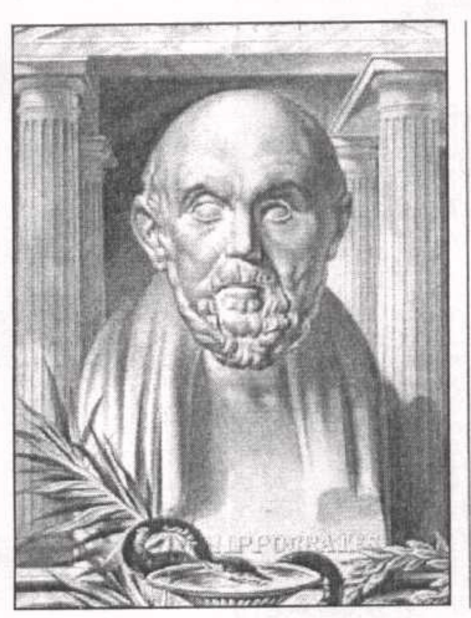
* * *

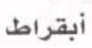


ملف الصور

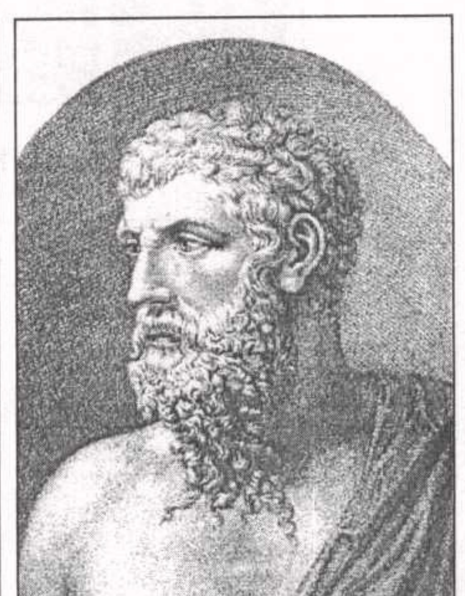


أبسن

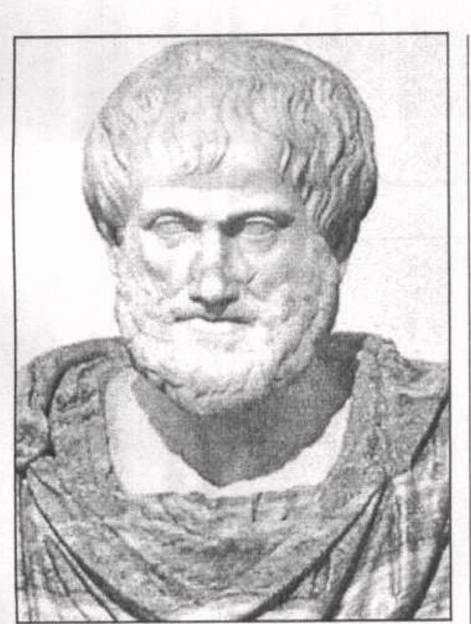




أبقراط



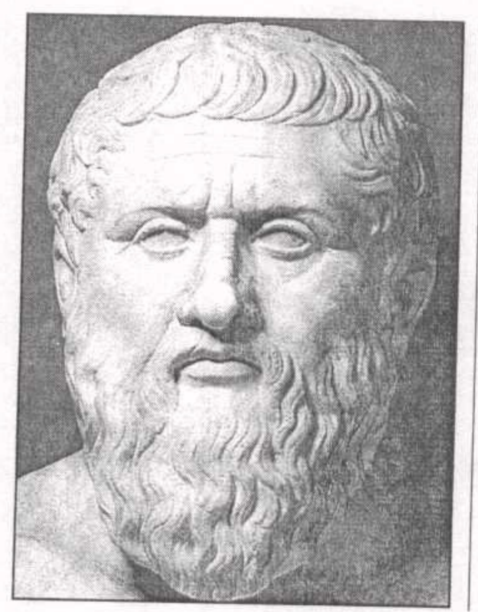
ارستوفانيس

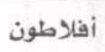


ارسطو طاليس

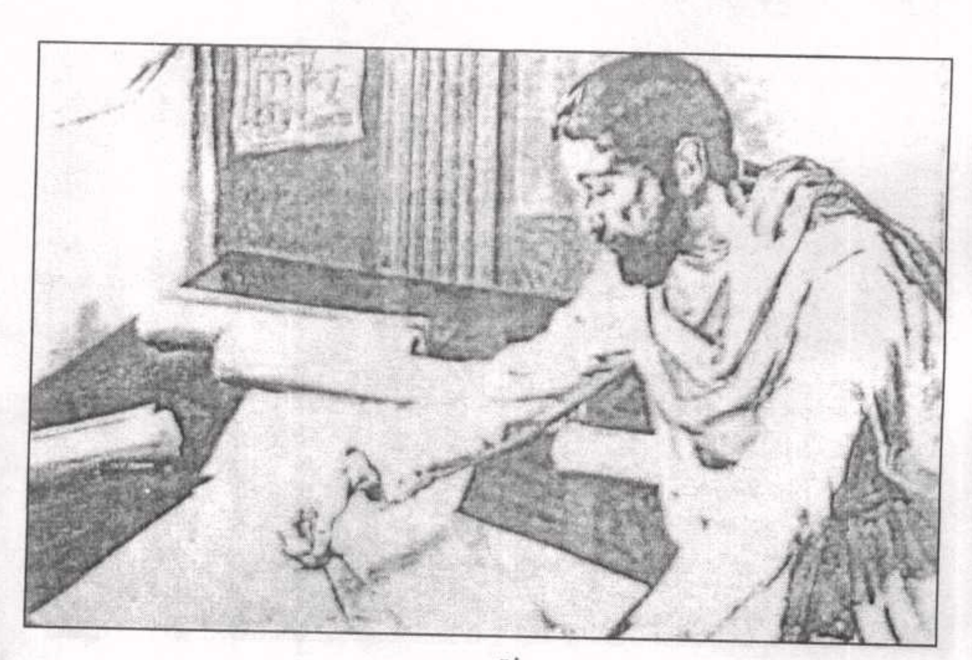


أسبينوزا

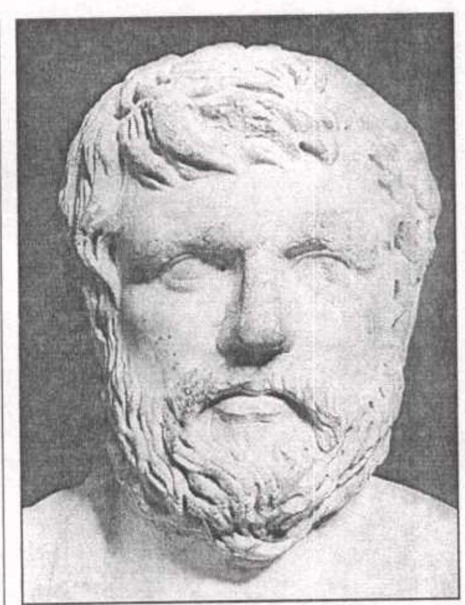




أفلاطون



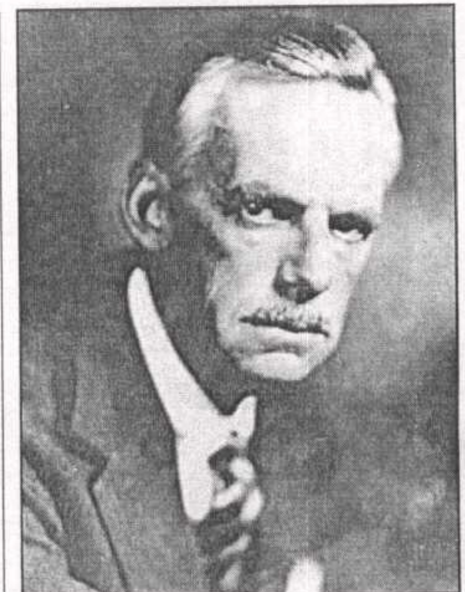
أقليدس



أكسينوفون



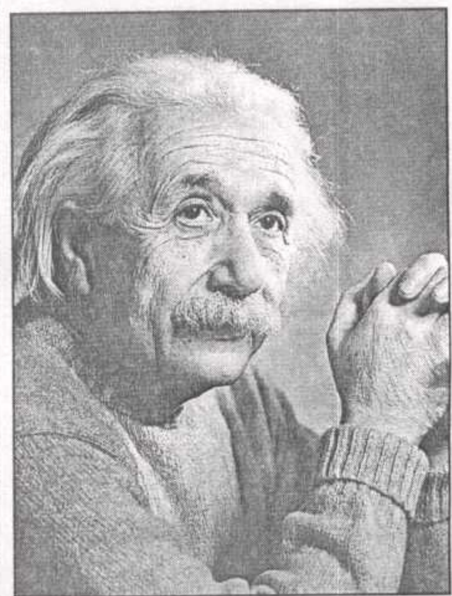
جين أوستين



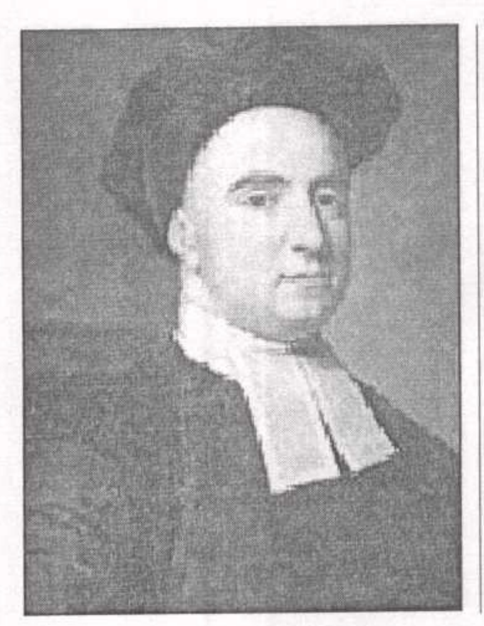
يوجين أونيل



كتاب الجغرافيا لاسترابون

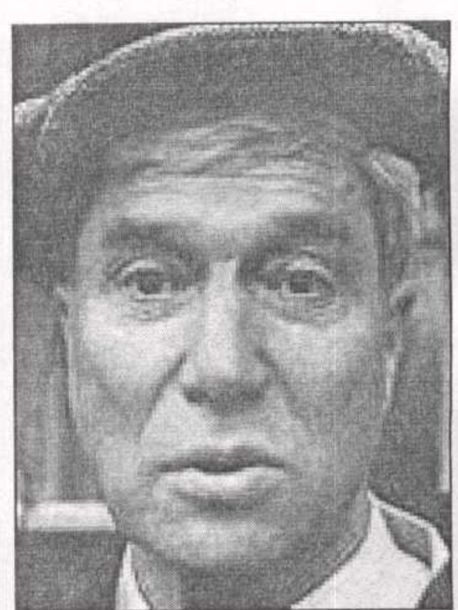


أينشتاين





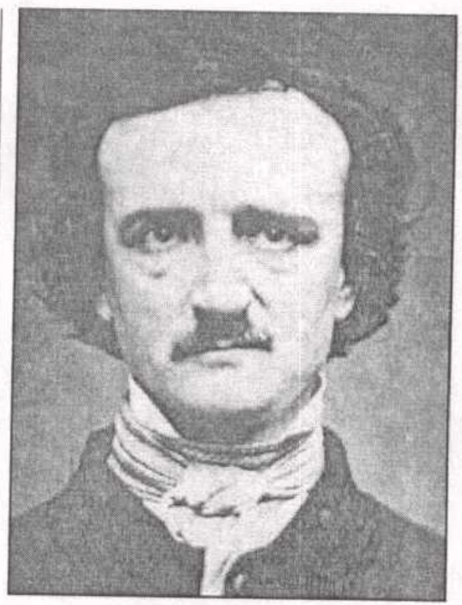
باركلى



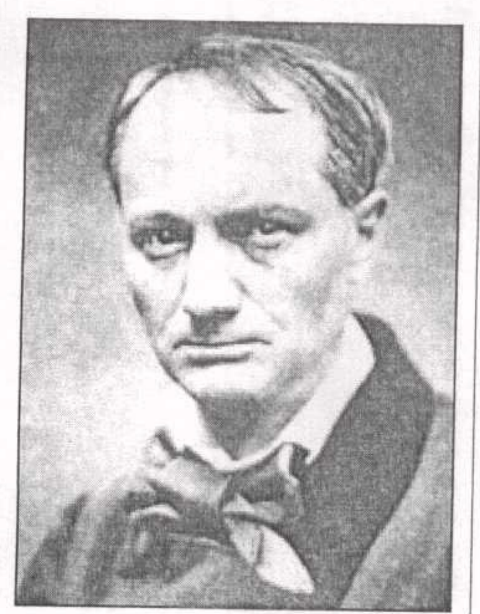
بوريس باسترناك



أونوريه دى بلزاك



إدجار آلان بو



شارل بودلير



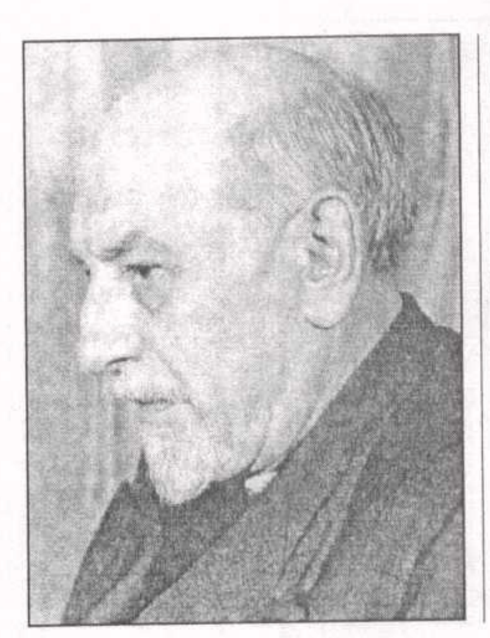
الكسندر بوب

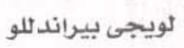


الكسندر بوشكين



بوكاشيو





لويجى بيراندللو



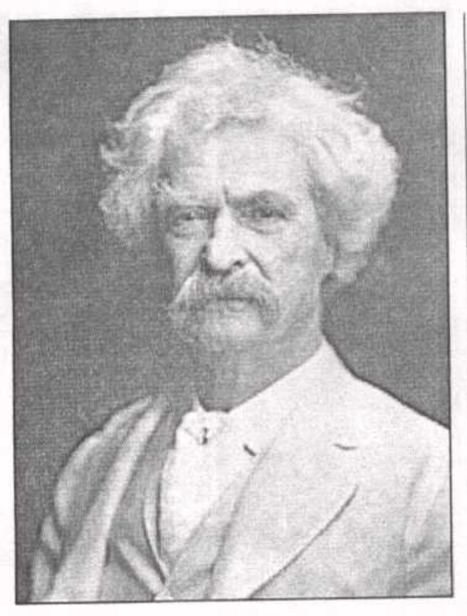
بيكون

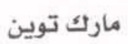


فردريك

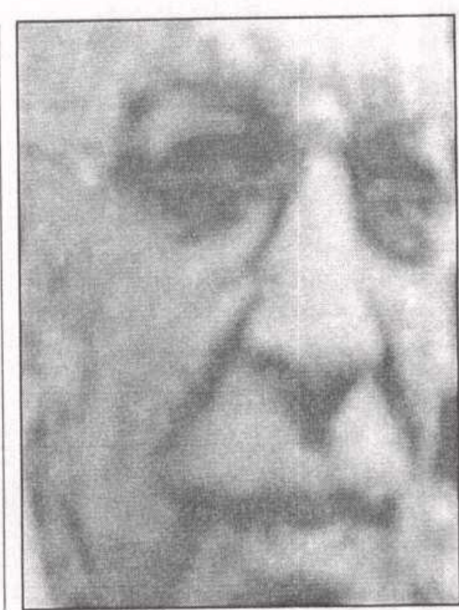


تولستوى





مارك توين



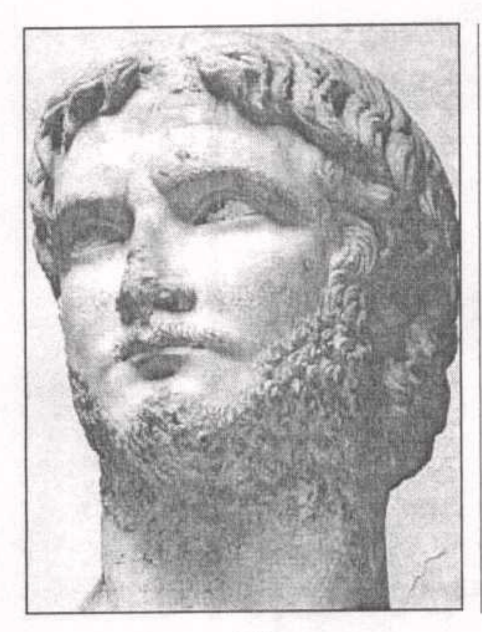
أرنولد توينبى



وليم ثاكرى



هنرى ثور



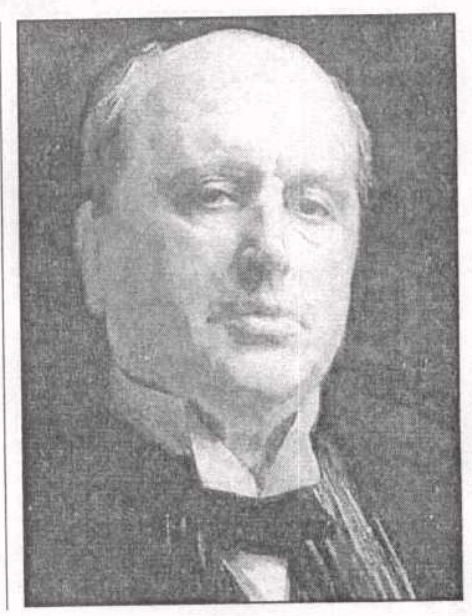
جالينوس



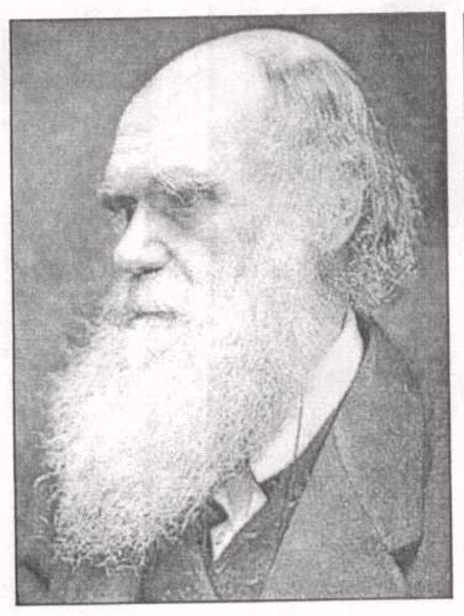
جوته



أندريه جيد



هنري جيمس

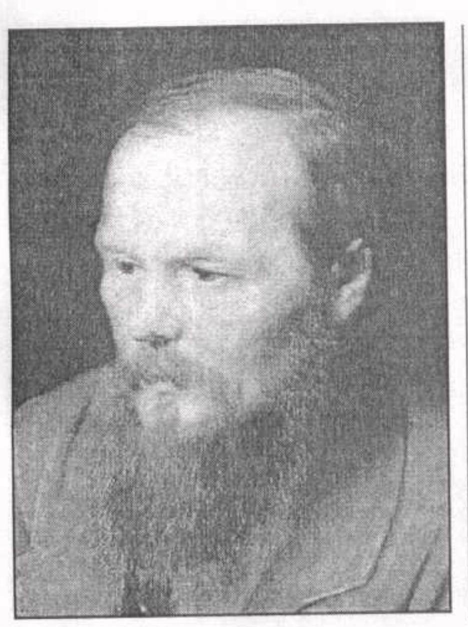




داروين



دانتي



دوستويفسكي



ديدرو

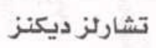


ديفو

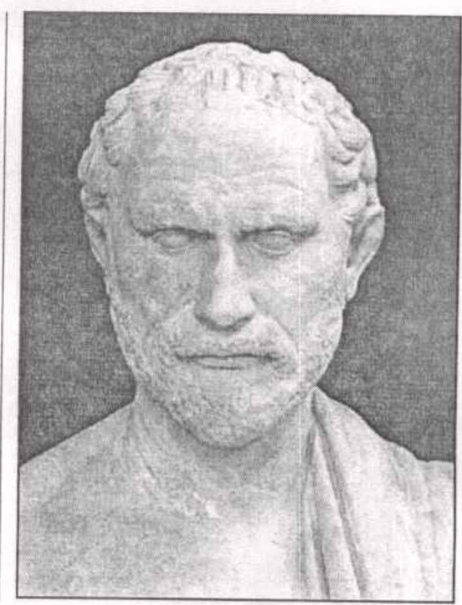


ديكارت





تشارلز ديكنز



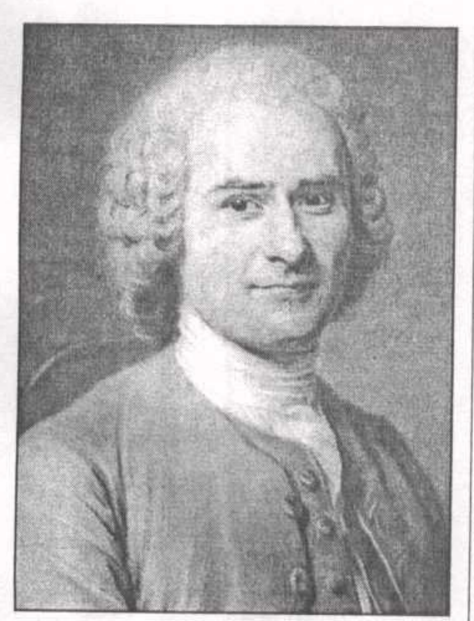
ديموستين



برتراند راسل



جاك راسين



جان جاك روسو

فهرس المحتويات


دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
(+٢٠٢) ٣٦٤٠٨٣٥
(+٢٠٢) ٥٢٤٣٣١٤